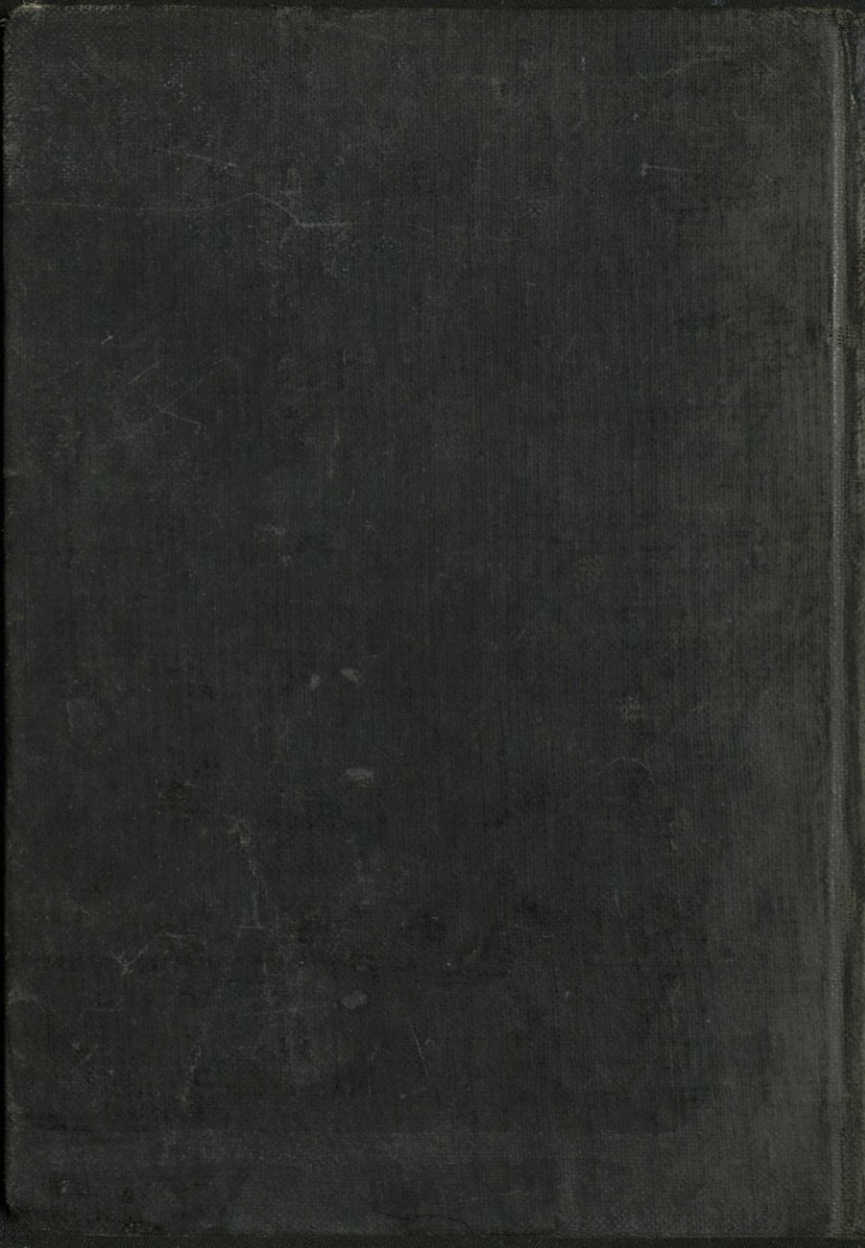
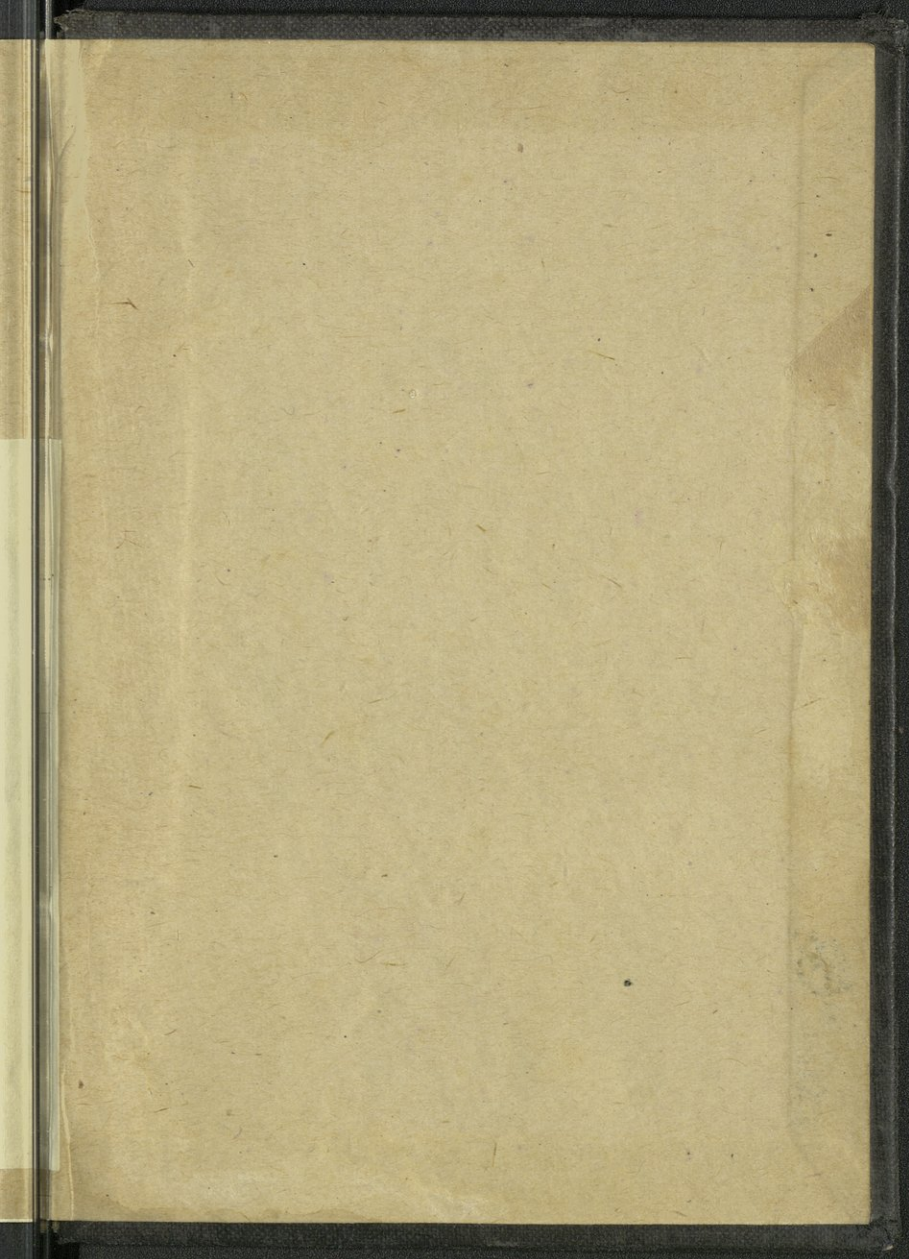






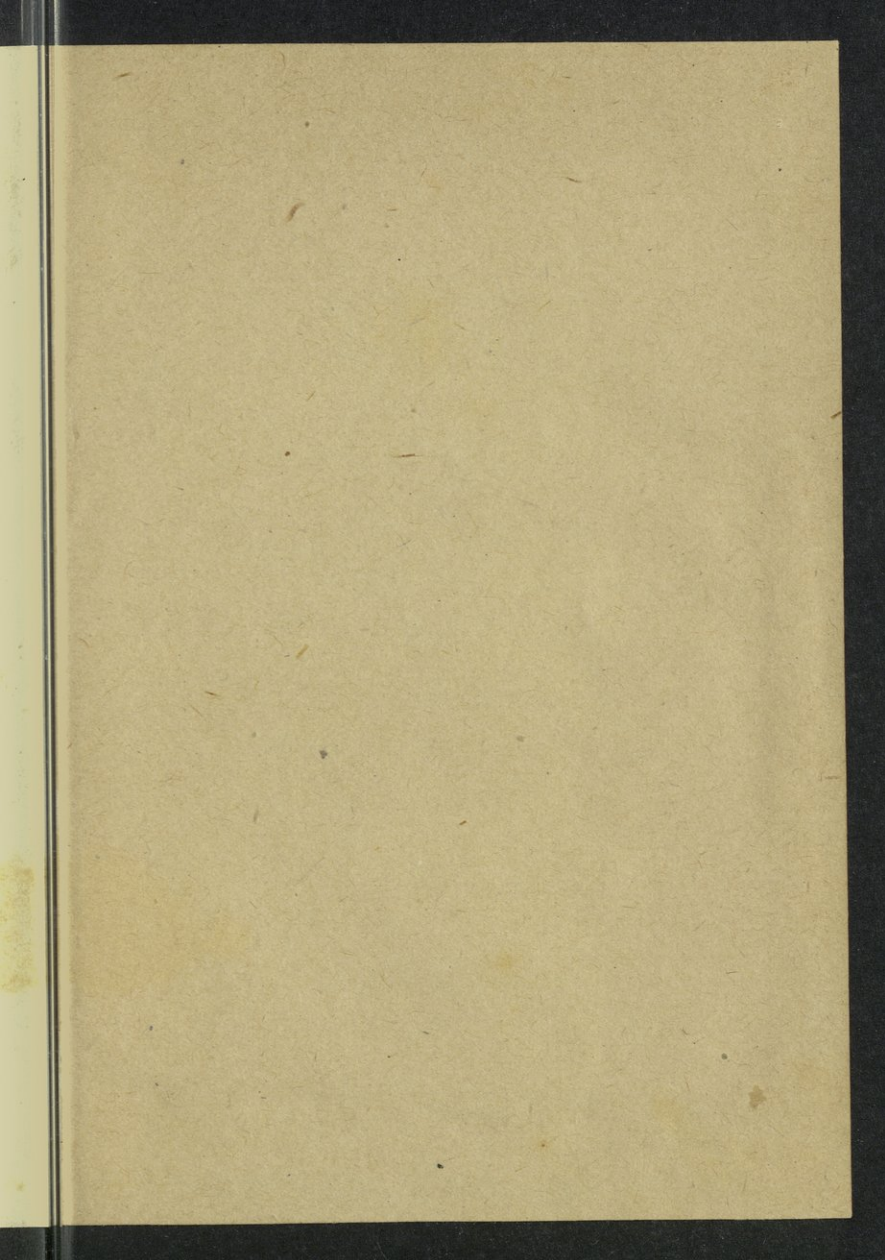
892.708:R56mA

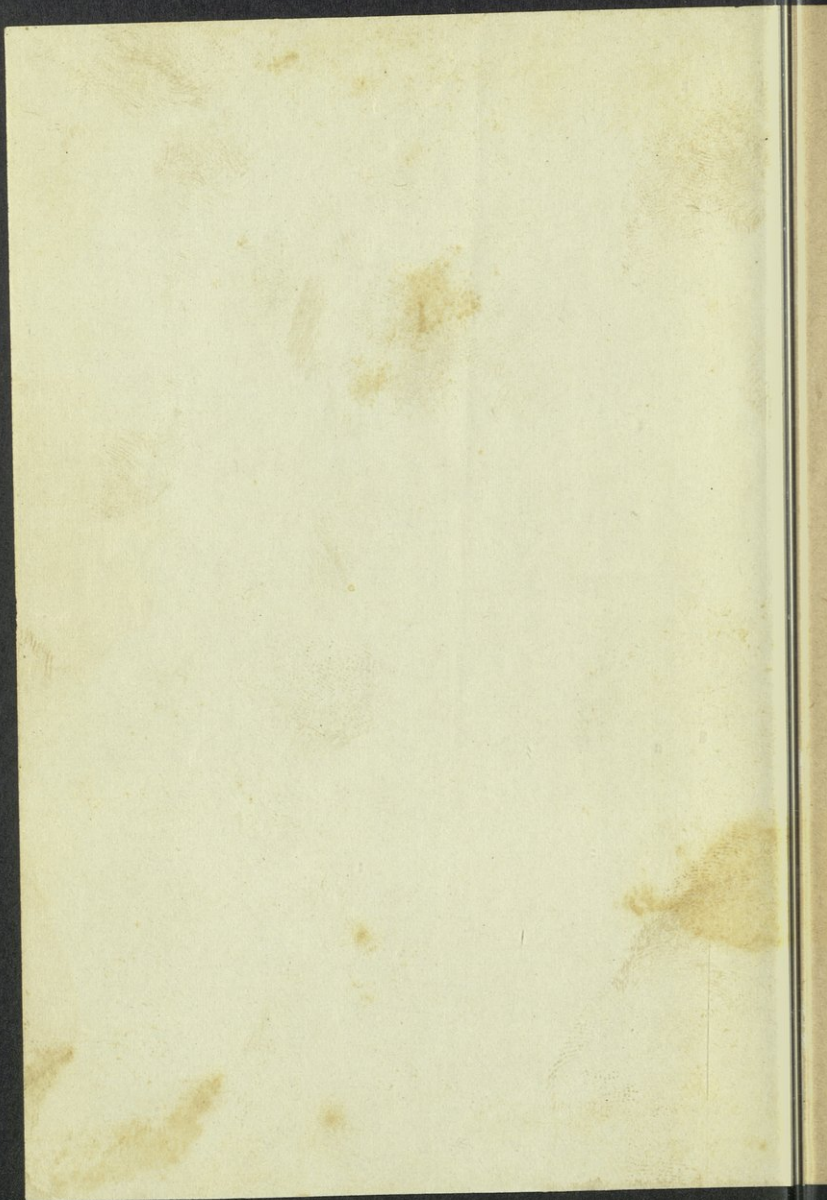
V.1

رفاعي، أحمد فريد

مكتبة القراءة والثقافة

892.708
R56mA
V.1





708

mA

Est. May 1943

الدكتور أحمد فريد رفاعي

مدير إدارة المطبوعات المصرية

892.708

R56mA

٧٠١

C.1

الوقت من ذهب
مكتبة القراءة والثقافة الأدبية للحيث

المقدمة

١

58658

مطبعة المعارف ومكتبتها بصيرة

Cat. May 1943



إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُوبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا
فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ: لَوْ غَيْرَ هَذَا
لَكَانَ أَحْسَنَ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ بَسْطَحَسَنُ
وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ، وَلَوْ تَرِكَ
هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ،
وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ النَّفْصِ عَلَى

جُمْلَةِ الْبَشَرِ.
الْعَادُ الْأَضْفَحَانِي



Handwritten text in Arabic script, oriented upside down, appearing as bleed-through from the reverse side of the page. The text is faint and mostly illegible due to the orientation and fading.

إِهْدَاءُ الْكِتَابِ

إِلَى الْمُرْحُومِينَ الْبَاقِينَ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ ، الزَّعِيمِ ،
« سَعْدِ زَغُول » وَالْإِمَامِ « مُحَمَّدِ عَبْدُهُ » وَاللُّغَوِيِّ
« حَمْزَةَ فَتْحِ اللَّهِ » وَالْإِلَى سَادَتِي الْمُبَرِّزِينَ ، مَفْخَرَةَ
هَذَا الْعَصْرِ ، « أَحْمَدَ نَجِيبِ الْهَلَالِيِّ » وَالْمُصْلِحِ
« مُحَمَّدٍ مُصْطَفَى الْمِرَاغِيِّ » وَالْكَاتِبِ « طَهَ حُسَيْنِ »

أَسَاتِدَتِي الْخَالِدِينَ النَّابِهِينَ :

لَكُمْ فِي الْمَعَارِفِ وَالثَّقَافَةِ ، أَيَادٍ فِي الْإِصْلَاحِ ،
نَاصِعَاتٌ خَالِدَاتٌ ، وَلَكُمْ فِي الْمَعَاهِدِ الدِّينِيَّةِ ،
وَرُبُوعُ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَثَبَاتٌ عَلَى الدَّهْرِ بِاِقْيَاتٌ ،
وَلَكُمْ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ وَالتَّجْدِيدِ آثَارٌ شَاهِدَاتٌ ،

وَلَكُمْ يَنْ عَارِفِي فَضْلِكُمْ مِنْ حَامَّتِكُمْ وَمُصْلِحِي
وَطَنِكُمْ ، مِنْ نَاطِقَاتٍ ؛ وَإِنَّهُ لَلِزَامُ فِي عُقِي ،
وَفَرَضٌ مُقَدَّسٌ عَلَى مِثْلِي ، إِزَاءَ مَا حَبَوْتُمُونَا مِنْ
إِحْسَانٍ ، إِثْرَ إِحْسَانٍ ، وَقَلْدْتُمُونَا مِنْ خَدَمَاتٍ ،
تَشْلُوهَا خَدَمَاتٌ ، أَنْ أَتَقَدَّمَ فِي وِلَاءٍ وَتَوَاضِعٍ
بِهَذَا الْأَثَرِ مِنَ الْمَجْهُودِ الْمُضْنِي الْكَبِيرِ ، إِلَى
شَخْصِيَّاتِكُمْ الْخَالِدَةِ الْفَذَّةِ ، النَّافِعَةِ الْجَلِيلَةِ ، فَلَقَدْ
كَانَ كُلُّ مَنْ سَادَتِي عِلْمَ اللَّهِ ، الدَّءُوبَ فِي مَعْدَاتِهِ
وَمَرَاحَتِهِ ، عَلَى مَصْلَحَةِ أُنْبَاءِ وَطَنِهِ ، السَّاهِرِ
فِي بُكُورِهِ وَأَصَالِهِ ، عَلَى خَيْرِ الْوَطَنِ وَأَهْلِهِ ، فِي
حَرَارَةٍ وَحِمِيَّةٍ ، وَحُرِّيَّةٍ وَوَطَنِيَّةٍ ، وَفِي أَنَاةٍ وَحِكْمَةٍ ،
وَكِيَاسَةٍ طِعْمَةٍ ، وَفِي تَبْتُّ وَمَتَانَةٍ ، وَفِطْنَةٍ وَدَهَانَةٍ .

وَلَسْتُ أَجِدُ عَلَى صِفَاتِكُمْ أَيُّهَا الْمُصْلِحُونَ الْأَجْلَاءَ ،
وَالْعَبَاقِرَةُ الشُّبَّاعَاءَ ، وَالْأَفْذَاذُ الثَّبَتُ الْبُلْغَاءُ — وَقَدْ
هَذَّبْتُكُمْ الْآدَابُ ، وَأَحْكَمْتُكُمْ التَّجَارِبُ ، إِلَى
جَانِبِ حَيَاتِكُمُ الْمَلِيَّةِ — بِنَشَاطٍ فِي دُورِ الْمَعَارِفِ
مَذْكُورٍ ، وَمَجْهُودٍ فِي الْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ مَبْرُورٍ ،
وَأَثَرَ فِي اللُّغَةِ وَالْآدَابِ مَشْهُورٍ ، أَكْثَرَ انْطِبَاقًا
مِنْ قَوْلِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ سَمَاعَةَ ،
يَرْتَادُ عَظِيمًا : « لَهُ حُسْنٌ مِنْ آدَبٍ وَلِسَانٍ ، تُقَعِّدُهُ
الرَّزَانَةُ ، وَيُسْكِنُهُ الْجِلْمُ ، قَدْ فُرَّ عَنْ ذِكَاةٍ وَفِطْنَةٍ ،
وَعَضَّ عَلَى قَارِحَةٍ مِنْ الْكَمَالِ ، تَكْفِيهِ اللَّحْظَةُ ،
وَتُرْشِدُهُ السَّكْتَةُ ؛ لَهُ تَوَاضَعُ الْعُلَمَاءِ ، وَفَهْمُ
الْفُقَهَاءِ ، وَجَوَابُ الْحُكَمَاءِ ، يَكَادُ يَسْتَرِقُّ قُلُوبَ

الرَّجَالِ بِحَلَاوَةِ لِسَانِهِ ، وَحُسْنِ بَيَانِهِ ؛ دَلَائِلُ الْفَضْلِ
عَلَيْهِ لَا تُحِثُّ ، وَأَمَارَاتُ الْعِلْمِ لَهُ شَاهِدَةٌ ، مُضْطَلَعًا
بِمَا اسْتَنْهَضَ ، مُسْتَقِلًّا بِمَا حَمَلَ »

وَإِنِّي لَأَسْتَمِطِرُ دِيمَ رَحْمَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَى مَنْ
مَاتُوا ، وَإِنْ كَانُوا بِخَالِدِ آثَارِهِمْ ، الْبَاقِينَ مَدَى الْحَيَاةِ ،
وَأَبْتَهَلُ إِلَى الْمَوْلَى الْكَرِيمِ ، صَادِقًا مُخْلِصًا ، أَنْ
يُوفِّقَ الْأَحْيَاءَ فِي خُطُوتِهِمُ الرَّشِيدَةَ لِخَيْرِ الْبِلَادِ ،
وَأَنْ يَكْلَأَهُمْ بِظِلِّ رِعَايَتِهِ ، وَوَفِيرِ عِنَايَتِهِ ، فَيَمَاهُمُ
مَاضُونَ فِيهِ فِي صَمْتٍ وَاتِّسَادٍ ، وَطُمَأْنِينَةٍ وَسَدَادٍ ،
مِنْ نَهْضَتِهِمُ التَّجْدِيدِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَأَنْ يَمُدَّ فِي حَيَاتِهِمُ
الْإِصْلَاحِيَّةِ الرَّشِيدَةِ ، الْخَافِلَةَ بِكِبَرِيَّاتِ الْأَعْمَالِ ؛
وَلَيْسَ بَعْدَ الْإِرْهَاصِ إِلَّا الْإِعْجَازُ .

«وَبَعْدُ» فَأَرْجُو أَيُّهَا السَّادَةُ الْعُظَمَاءُ ، وَالْمُصْلِحُونَ
 [الْأَجَلَاءُ] ، وَالْمَجْدِدُونَ الْأَلْبَاءَ ، أَنْ تَتَكَرَّمُوا بِقَبُولِ هَذَا
 الْأَثَرِ عَلَى ضَوْؤَلَتِهِ ، لِمَا أَتَرَعْتُمْ بِهِ قَلْبَ صَاحِبِهِ مِنْ
 الْحُبِّ وَالْوَلَاءِ ، وَأَلْهَجْتُمْ بِهِ لِسَانَهُ مِنَ الشُّكْرِ
 وَالشَّنَاءِ ، وَأَحْطَظْتُ بِهِ شَخْصَهُ مِنَ التَّرَعِيَةِ وَالْعَزَاءِ :
 اعْتِرَافًا بِفَضْلِكُمْ عَلَيْهِ ، وَإِحْسَانِكُمْ إِلَيْهِ .
 وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

المخلص

احمد فريد رفاعى

دار المأمون فى { ٧ شعبان سنة ١٣٥٤
 ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٥ }

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب المقدمة

أُحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَسْتَهْدِيهِ ^(١)، وَأَسْتَمِدُّ مِنْهُ الْعَوْنَ
وَأَسْتَجِدِيهِ ^(٢)، وَأَسْتَلِمُ مِنْهُ فَيْضَ الرَّحْمَةِ وَسِدْرَةَ ^(٣)
الصَّوَابِ ؛ وَأُصَلِّي عَلَى مَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ خَيْرَ كِتَابٍ ،
وَأَسْتَنْزِلُ شَايِبَ ^(٤) رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ عَلَى رَسُولِهِ
وَأَنْبِيَائِهِ ، وَأَفْرَعُ إِلَيْهِ فِي التَّمَاسِ الْقُدُورَةَ الصَّالِحَةَ
بِأَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ ؛ وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ فِيمَا
انْتَوَيْتُهُ مِنَ التَّوْفِيقِ فِي خِدْمَةِ الْوَطَنِ وَأَبْنَائِهِ .

(١) السين والتاء للطلب أى أطلب هدايته (٢) أطلب جدواه أى
كرمه (٣) غاية الصواب (٤) جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر
والمراد فيض رحمتك

« وَبَعْدُ » فَإِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ
 نَفَائِسَ وَثَرَوَاتٍ ، وَرَوَائِعَ وَأَمْهَاتٍ ، وَفُنُونٍ وَعُيُونٍ ،
 وَغُرَرٍ ^(١) وَدُرَرٍ ، وَطُرْفٍ ^(٢) وَمُلَجٍ ^(٣) ، وَكُنُوزٍ وَإِفَادَاتٍ ،
 وَمَوَاعِظَ وَثَقَافَاتٍ ؛ مَا زَالَتْ الْعِنَايَةُ بِالْقِرَاءَةِ
 فِيهَا بَعْدُ فِي إِبَانِهَا ^(٤) ، وَلَمْ تَدْرُجْ مِنْ حِجَرِ أَمْهَاتِهَا ،
 وَشَدَّ مَا تَحْتَاجُ تَوَالِيفُهَا بَعْثًا وَتَجْدِيدًا ، وَبِنَاءً وَتَشْيِيدًا ،
 وَتَشْدِيدًا وَتَهْدِيدًا ؛ فَلَمْ تُفَارِقْ بَعْدُ مَهْدَهَا ، وَلَمْ
 تُوجِّهْ كَغَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ تَوْجِيهًا يَتَّفِقُ وَالزَّمَنَ
 وَالْبَيْئَةَ ، بَلْ مَا زَالَ الْجُمُودُ فِيمَا يَقْرَؤُهُ النَّظَّامِيُّونَ
 مِنْ طَلَبَتِهَا فِي دُورِ التَّعْلِيمِ مَأْمُوسًا ، وَالْإِمْسَاكُ عَلَى

(١) جمع غرة وهي في الأصل بياض في جبهة الفرس والمراد بالغر هنا

الحاسن القذرة (٢) ج طرفة وهي الجديد أي وفيها الجديد من اللفظ والمعنى

(٣) ما حسن من الأحاديث والأصل في الملة المباشرة (٤) بدء حياتها

كِتَابٍ مُعَيَّنٍ فِي أَكْثَرِ سِنِي الدِّرَاسَةِ مُحْسُوسًا ،
وَمَا بَرَحَتْ رُوحُ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ضَارِبَةً بِجَرَانِهَا^(١) ،
وَمَظَانُنَا الْمُعْتَبَرَةُ ، وَآثَارُ شُيُوخِ الْأَدَبِ ، وَأُئَمَّةِ الثَّقَافَةِ
مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، مَنْسِيَةً فِي كَنَاهَا^(٢) ؛ وَيَنِمَا يُعْنَى
الْغَرِيبُونَ بِتَعَدُّدِ أَبْوَابِ الْقِرَاءَاتِ ، وَإِصْدَارِ مُتَبَايِنِ
الطَّبَعَاتِ ، وَإِسْعَافِ الْقَارِئِينَ بِمُخْتَلَفِ الثَّقَافَاتِ ؛
فَإِنَّمَا لَمْ تُقَدَّرْ بَعْدَ أَوْقَاتِ الْحَيَاةِ الَّتِي تَقْطَعُنَا بِشَتَّى
وَأَجْبَاتِهَا وَمُتَتَابِعِ أَعْبَائِهَا ؛ وَلَمْ نَلْبَسْ مَعَ كُلِّ زَمَانٍ
بُرْدَتَهُ^(٣) ، وَلَمْ نَدُرْ مَعَ الدَّهْرِ دَوْرَتَهُ ؛ وَيَنِمَا يَقْرَأُ
طَالِبُنَا الْمِصْرِيُّ فِي الْبَرَامِجِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ مَثَلًا فِي
مُخْتَلَفِ سِنِي الدِّرَاسَةِ شَيْئًا لِسُكْسِيرِ وَآخَرَ لَشَكْرِى

(١) أى ثابتة مستقرة فى كل ناحية (٢) الكن الوفاء والثوى أى

أى ما برحت مغمورة (٣) مظهره ولونه أى لم نساير الزمان

وَتَالِثًا لِدِكْنَزٍ وَرَابِعًا لِكِبْلِنَغٍ وَهَلَمْ جَرًّا ، وَثِنْمَا يَقْرَأُ
الرَّاسِبُ مِنْ أَبْنَانِنَا غَيْرَ مَا قَرَأَهُ فِي عَامِهِ السَّابِقِ ،
حَتَّى لَا تُصِيبَهُ الْمَلَالَةُ وَرُكُودُ الرَّغْبَةِ ، وَأَنْطِفَاءُ
جَذْوَةِ الْمِيلِ ، وَحَتَّى لَا تَعْتَوِرَهُ ^(١) السَّامَةُ ^(٢) وَالتَّبَرُّمُ
وَالْإِنْصِرَافُ ، وَحَتَّى يَتَجَدَّدَ لَدَيْهِ الْإِنْكِبَابُ عَلَى الدَّرْسِ ،
وَالْتَّطَلُّعُ إِلَى مَا هُوَ طَرِيفٌ ؛ إِذْ بِهِ فِي الْعَرِيَّةِ
— حَتَّى عَهْدٍ قَرِيبٍ — لَا يُبَارِحُ كِتَابًا ، مَهْمَا كَانَ
آيَةً فِي الْإِفَادَةِ وَالرَّوْعَةِ ^(٣) ، فَإِنَّ الْبَقَاءَ عَلَى طَعْمٍ وَاحِدٍ
لَا يَسْتَحِثُّ الشَّهِيَّةَ ، وَلَا يُحْيِي الْقَابِلِيَّةَ ، وَيَكَادُ
يَجْعَلُ الْمَلَكَةَ آلِيَةً ؛ وَيَحْضُرُ الْقِرَاءَةَ فِي الْعَيْنِ
دُونَ الْخَاطِرِ ^(٤) ، وَيَقِفُهَا عَلَى الْبَصَرِ دُونَ الْبَصِيرَةِ ؛

(٣) الروعة الجمال الفائق (٤) الذهن

(١) لا تعتريه (٢)

وَكَمْ تَسْأَلُ الْمُفَكِّرُونَ عَنْ حِكْمَةِ الْإِحْجَامِ دُونَ
 إِمْتِنَاعِ الشَّبَابِ بِمَا دَلَّتْ تَجَارِبُ الْعَرَبِ عَلَى إِصَابَتِهِ
 لِلْمَحْجَّةِ^(١) مِنْ إِحْيَائِهِمْ تَرَاثَ كُتُبِهِمُ النَّابِهِينَ ،
 وَقَصَاصِهِمُ الْمَعْرُوفِينَ ، وَأَدْبَائِهِمُ النَّابِغِينَ ،
 وَشُعَرَاءِهِمُ السَّاحِرِينَ ، وَبُلَغَائِهِمُ الْمُتَفَوِّقِينَ ، فِي
 طَبَعَاتٍ بِحَجْمِ الْجَنْبِ ، يَدْرُسُهَا الطَّالِبُ لِيُصِيبَ مِنْهَا
 عِلْمًا جَدِيدًا^(٢) ، وَيَقُومَ بِهَا لِسَانًا حَدِيدًا ، وَذِهْنًا رَشِيدًا ؛
 وَلِمَاذَا لَا نُعْنَى بِحُسْنِ الْأَخْتِيَارِ ، وَصَفْوَةِ الْأَعْتِبَارِ ،
 وَأَنْبَاءِ الْأَخْيَارِ ؟ وَلِمَاذَا لَا نَدْرُسُ فَذَلِكَا^(٣) عَنْ
 الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ ؟ وَلِمَاذَا لَا نُجَدِّدُ طُرْفًا مِنْ

(١) جادة الطريق (١) ما خلفه السلف (٢) أى مشهوداً
 كالسيف الحديد الماضى (٣) جمع فذلِكَ وهي إيجاز لموضوع شامل
 وإجمال لما فصل أولاً

الْمُؤَلَّفَاتِ الدَّارِسَةِ ^(١) ؟ وَلِمَاذَا لَا نُغْنِي بَيْتُ رُوحِ
 الْقِرَاءَةِ فِي الْجَمِيعِ ، فِي سَاعِ فَرَاعِهِمْ ، بَلَهُ أَوْقَاتِ
 تَحْصِيلِهِمْ ؟ وَلِمَاذَا لَا نُحَاوِلُ رَفَعَ مُسْتَوَى الْقِرَاءَةِ ،
 وَقَدْ انْحَطَّتْ إِلَى مَا هُوَ تَافَهُ رَخِصٌ ، مِنْ قِصَصِ
 الْغَرَامِ ، وَأَحَابِيلِ ^(٢) الْأَجْرَامِ ، وَمُفَاجَاتِ الْبُولِيسِيَّاتِ ،
 وَالْإِسْفَافِ بِالْبَذَائِ ، وَسِيَاسَةِ قَتْلِ الْوَقْتِ سُدَى
 فِي غَيْرِ نَفْعٍ وَلَا إِفَادَةٍ ، وَالْوَقْتُ — عِلْمُ اللَّهِ —
 مِنْ ذَهَبٍ ، بَلْ يَذْهَبُ الذَّهَبُ إِذَا أُسِيَءَ اصْطِنَاعُهُ ،
 وَيَبْقَى إِتْسَاجُ الزَّمَنِ إِذَا حَسُنَ انْتِهَازُهُ ، وَأُحْكِمَ
 اقْتِطَاعُهُ ، وَتُدَبَّرَ فِي تَصْرِيفِهِ ، وَنَهَجَ فِيهِ صَاحِبُهُ

(١) التي تقدم عهدا وعفت (٢) شرك (٢) تتبع سوءات
 الناس بهجر العقول وساقطه

مَنْهَجِ الْعَامِلِ الدَّيُّوبِ ، لَا السَّادِرِ ^(١) اللَّعُوبِ ^(٢) ؟

* * *

لَقَدْ مَرَّتْ تِلْكَمُ الْخَوَاطِرُ سِرَاعًا عَلَى كَاتِبِ
هَذِهِ الشُّطُورِ ، حِينَمَا قَرَأْتُ الْبَحْثَيْنِ الْمُتَمَتِعَيْنِ
لِجَامِعَةِ الْجَيْبِ الْأَمْرِيكِيَّةِ ، الَّتِي أَشْرَفَ عَلَى نَشْرِهَا
الْأُسْتَاذَانِ الدُّكْتُورُ لِيْمَانُ أَبُوتُ وَأَسَادُونُ دِيكَنْسُونُ
الْأَمْرِيكِيَّانِ عَامَ ١٩٢٥ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : وَقَدْ
انْتَهَجْتُ جُلَّ دُورِ النُّشْرِ وَرِجَالَاتِ التَّعْلِيمِ هُنَالِكَ
هَذَا الْمَنْهَجَ الْقَوِيمَ مِنْ إِصْدَارِ سِلْسِلَةِ كُتُبِ
الْقِرَاءَةِ الْأَدَبِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ لِلْجَيْبِ ، فَسَلَكُوا فِي عَقْدِهَا
الْمُعْتَبَرِ مِنْ أَثَارِ السَّلَفِ ، وَالنَّافِعِ الْمُفِيدِ مِنْ
مُؤَلَّفَاتِ أُمَّةِ الْجَهَابَةِ ، وَكِتَابَاتِ نُبَغَاءِ الْأَسَاتِذَةِ ؛

(١) الذي لا يبالي ولا يهتم بما صنع (٢) من صنيع المبالغة أى كثير اللعب

لِمَاذَا لَا نَنْسُجُ - فِي مُثَابَرَةٍ وَحُسْنِ مُوَاتَاةٍ^(١) -
 عَلَى مَنَوَاهِمِهِمْ ، وَنَتَرَسَّمُ - فِي جَلَدٍ وَطُولِ أَنَاةٍ -
 مُسَدَّدَ خَطَوَاتِهِمْ ؟ وَلِمَاذَا لَا نَجْعَلُ مِنَ الْقِرَاءَةِ فَنًّا
 مُجَبِّبًا إِلَى النُّفُوسِ ، ضَارِبًا بِسَهْمٍ وَافِرٍ^(٢) فِي مُخْتَلَفِ
 الْفُنُونِ وَالْذُرُوسِ ؛ فَمَنْ أَدَبٍ رَائِعٍ ، وَأُسْلُوبٍ
 جَامِعٍ ؛ إِلَى أَخْبَارٍ عَنِ الْأَذْكِيَاءِ ، وَقِصَصٍ عَنِ
 النَّبَغَاءِ ، وَفَذَلَكَاتٍ عَنِ الْأَدْبَاءِ ، وَمَقْطُوعَاتٍ مِنَ
 الْقُدَمَاءِ ، وَحِكْمَةٍ فِي الْأَخْلَاقِ ، وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ
 فِي التَّارِيخِ ؟ وَلِمَاذَا لَا نَعْمَلُ عَلَى بَعَثِ آثَارِ :
 ابْنِ الْمُقَفَّعِ ، وَالْغَزَالِيِّ ، وَابْنِ ظَفَرٍ ، وَيَاقُوتَ ،
 وَابْنِ مَسْكُويَةٍ ، وَالْجَلَّاحِظِ ، وَعَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ ،

وَابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ ، وَالتَّقَالِي ، وَالْمُبَرِّد ، وَابْنِ بَسَّام ،
وَالثَّعَالِبِي ، وَالطَّبْرِي ، وَالْعَقُوبِي ، وَالْمَسْعُودِي ،
وَالصَّابِي ، وَالْجَهْشِيَارِي ، وَغَيْرِهِمْ ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ
رُؤُوسِهَا ^(١) ، فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحَيَاةِ قَشِيبٍ ^(٢) ، وَشَبَابٍ
بِهَيْجٍ بَدِيلٍ عَنْ مَشِيبٍ ، وَضَبْطٍ وَشَرْحٍ ، وَبَيَانٍ
وَوَضَحٍ ؟ ثُمَّ لِمَاذَا لَا نَخْلُقُ مِنْ شَبَابِنَا رُؤُوسًا بِالْعِلْمِ
عَامِرَةً ، وَبِصُنُوفِ الثَّقَافَاتِ مُتَبَصِّرَةً ، وَبِأَوْقَاتِهَا
ضَنِينَةً ، وَعَلَى سَاعِ فَرَاعِهَا حَرِيصَةً ؟ ثُمَّ لِمَاذَا
نَحْرِمُ طُلَّابَ الْعَرَبِيَّةِ هَذِهِ الذَّخَائِرَ النَّفِيسَةَ ،
وَالْجَوَاهِرَ الْكَرِيمَةَ ؟ وَلِمَاذَا لَا نُحَارِبُ الْقَالَ
وَالْقِيلَ ، وَإِضَاعَةَ الْوَقْتِ سُدًى بَدَدًا ؟

ثُمَّ لِمَاذَا نَحْرِمُ طُلَّابَ الْعَرَبِيَّةِ - سِوَاهُ فِي
 مَدَارِسِنَا ، أَوْ فِي يُوتِنَا ، أَوْ فِي أَوْقَاتِ رِيَاضَتِنَا ،
 وَانْتِقَالَاتِنَا مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ - انْتِهَابَ هَذِهِ الذَّخَائِرِ
 النَّفِيسَةِ ، وَالتَّهَامَ هَذِهِ الْأَعْلَاقِ ^(١) الْكَرِيمَةِ ،
 فَنُصِيبُ أَهْدَافًا جِدَّ هَامَةً بِرَمْيَةٍ وَاحِدَةٍ ، نُصِيبُ :
 إِفَادَةً فِي الْعِلْمِ ، وَتَقْوِيمًا فِي اللِّسَانِ ، وَتَعْمِيرًا
 لِلأَذْهَانِ ، وَإِحْيَاءَ لِلْغَةِ الْقُرْآنِ ؛ وَنُصِيبُ أَخْلَاقًا
 وَحُسْنَ تَنْسِيقَةٍ ، وَصَائِبَ اتِّجَاهٍ . وَنَحْوُلُ بَيْنَ شَبَابِنَا
 وَبَيْنَ الْقِرَاءَةِ الرَّخِصَةِ التَّافِهَةِ مَعْنًى وَأُسْلُوبًا ،
 أَوْ الْجَامِدَةِ الَّتِي لَمْ تَتَجَدَّدْ وَلَمْ تَتَغَيَّرْ ، وَنَفْتَحْ لَهُمْ
 بَابَ الْإِطْلَاعِ عَلَى مِصْرَاعِيهِ ، لِيَلْبِجَ مَنْ أَرَادَ عَنْ

يِنَّةٍ^(١) ، وَيُوَالِي التَّقَدُّمَ فِيهَا الرَّاغِبُونَ عَنْ مِثْلِ
وَرَغْبَةٍ ، وَشَغَفٍ وَهَيَامٍ ؛ وَلَنْصِيبُ بِهَذَا الصَّنَفِ
مِنْ الْقِرَاءَةِ إِشْغَالًا لِلْوَقْتِ فِيمَا يُجْدِي وَيَنْفَعُ ،
فَلَا أَحْلَاسٌ^(٢) مَقَاهِ ، وَلَا مُتَسَكِّعُونَ^(٣) طُرُقَاتٍ ،
وَلَا أُسْرَى^(٤) رَوَايَاتٍ ، وَمَفْتُونُونَ مُفَاجَاتٍ ؟



وَإِنِّي لَا ذِكْرُ هُنَا لِأَبْنَائِي مِنَ الشَّبَابِ الْمُتَعَلِّمِ :
قِصَّةٌ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي لَا أَفْضِي بِهَا اغْتِرَارًا وَافْتِخَارًا ،
بَلْ مَرَمَايَ أَنْ تَكُونَ مَوْعِظَةً حَسَنَةً ، وَتَشْجِيعًا
لِعَزَمَاتِهِمْ فِي حُبِّ الْعَرَبِيَّةِ ؛ وَذَلِكَ أَنِّي — بِسَبَبِ

(١) وضوح وبرهان (٢) ملازموها لا يفارقونها تنديد بالسادين
رواد المفاهي والمفاهي جمع مقهى وهو اسم مكان لصنع القهوة وسمى المنتدى
بالمقهى مجازاً (٣) من يسرون في الطرقات لغير قصد ولا يدرون أين
يقصدون (٤) يراد بأسرى الروايات ومفتونى المفاجآت أولئك الذين
تعرت ثقافتهم عن العلم والاطلاع

جُودِ الْقِرَاءَةِ الْعَرَبِيَّةِ — انْصَرَفْتُ فِي مِيعَةٍ^(١) طُفُولَتِي
إِلَى اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ، وَاتَّهَمْتُ مِنْهَا الشَّيْءَ الْوَفِيرَ ؛
وَلَعَلَّهُ كَانَ مِنَ الْمُدْهِشِ حَقًّا : أَنَّ طَالِبًا فِي الثَّانَوِيِّ
يَكْتُبُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ ، فِي الْجَرِيدَةِ ، فِي مُخْتَلَفِ
الْبُحُوثِ ، وَيُترجمُ عَنْ مَا كُولَى وَسَبَسِرَ ؛ فَرَأَى
صَدِيقُ الْمَرْحُومِ وَالِدِي : أُسْتَاذِي الْمُبْرُورُ ، الشَّيْخُ
حَمْرَةُ فَتَحَ اللَّهُ : أَنَّ يُحِبَّ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَانْتَهَى
رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَنْ قَرَأْتُ عَلَيْهِ الْأَرْبَعَةَ الْكُتُبَ ،
الْمُعْتَبَرَةَ أَصُولًا لِلْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، وَهِيَ^(٢) : الْكَامِلُ ،
وَالْأَمَالِيُّ ، وَالْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ، وَالْعَقْدُ الْفَرِيدُ ؛ وَذَلِكَ بِأَنَّ

(١) مستهلها وربعها (٢) أجمع العلماء على أن هذه الكتب هي عمادُ
الأدب فمن أغفل قراءتها جهل الأدب ومن أغفل بعضها لم يكتمل أدبه

قَصَّ عَلَىَّ ، مَا لَا أَزَالُ أَذْكُرُهُ ، كَأَنَّهُ حَدِيثُ أُمِّسِ
الدَّابِرِ وَقَدْ انْقَضَى عَلَيْهِ حَوَالِي رُبْعِ قَرْنٍ أَوْ يَزِيدُ .



قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ — لِمُنَاسِبَةِ عَزَمِي وَقَسَدِ الرَّحِيلِ
إِلَى سُوَيْسَرَا ، لِلدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ — مَا مَعْنَاهُ :

« إِنَّ وَالِدَكَ قَدْ ضَعُفَ بَصَرُهُ ، وَأَنْتَ وَحِيدُهُ ،
أَفَلَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ سُوءْبَانَ ^(١) ثَرَاءً ، وَتَرْعِيَّةَ ^(٢)
مَالٍ . . . ؟ »

فَلَمْ أَفْقَهُ مَاذَا يَعْنِي ، وَالتَّزَمْتُ الصَّمْتَ ؛ فَاسْتَمَرَّ
قَائِلًا : أَتَعْرِفُ مَنْ يَقُولُ :

(١) السُّوءْبَانُ الْحَسَنُ الْقِيَامُ عَلَى الْمَالِ وَالثَّرَاءُ الْغِنَى (٢) تَحْيِدُ رَعَايَتِهِ

وَلَقَدْ نَهَرْتُ^(١) مَعَ الْغَوَاةِ بِدَلْوِهِمْ
وَأَسْمْتُ^(٢) سَرَحَ^(٣) اللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ
فَإِذَا عُصَارَةٌ كُلِّ ذَاكَ أَشَامُ^(٤) ؟

فَتَلَعَثْتُ ، وَتَيَّنَ الْخَجَلُ فِي مُحَيَّايَ ؛ فَقَالَ :
اسْمَعْ يَا وَلَدِي : لَقَدْ كُنْتُ فِي كَنِّ الطُّفُولَةِ لَا أَعْي
مَا يُرَادُ وَيُشَادُ ، ثُمَّ قَرَأْتُ فِي ابْنِ خِلَّكَانَ وَغَيْرِهِ ،
مِنَ الْمَظَانِّ^(٥) الْمُعْتَمَدَةِ : أَنَّ ابْنَ الْجَوْزِيِّ كَانَ يَكْتُبُ
كُلَّ يَوْمٍ تِسْعَ كَرَارِيسَ تَأْلِيفًا ، وَأَنَّ جَلَالَ الدِّينِ
السِّيُوطِي بَلَغَتْ مُؤَلَّفَاتُهُ أَرْبَعِمِائَةَ مُصَنَّفٍ ، وَأَنَّ

(١) أَلْقَيْتُ يَدْلُوِي مَعَ دَلَاءِ الْغَوَاةِ (٢) أَسَامُ ارْعَى الْإِبِلَ

(٣) سَرَحَ سَرَحًا وَسَرُوحًا مَرَعَى أَيْ سَرَتْ عَلَى دَرَبِهِمْ وَرَعَيْتُ رَعِيَهُمْ

(٤) إِثَامُ أَيْ إِثْمٌ وَالْجَمْعُ آثَامُ (٥) الْمَرَاJعُ

عَبْدَ اللَّطِيفِ الْبَغْدَادِيِّ نَيْفَتَ^(١) مُؤَلَّفَاتُهُ عَلَى السِّتِّينَ
 بَعْدَ الْمِائَةِ ، وَأَنَّ أَبَا الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيَّ جَمَعَ الْأَغَانِيَّ
 فِي خَمْسِينَ سَنَةً ؛ وَهَكَذَا اسْتَمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى
 يَسْرُدُ لِي الطَّرِيفَ الْعَجِيبَ عَنِ الْبُخَارِيِّ ، وَابْنَ
 الْأَثِيرِ ، وَحَنِينَ بْنِ اسْحَقَ ، وَيَعْقُوبَ بْنَ اسْحَقَ ،
 وَثَابِتَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الصَّابِيَّ ، وَقَسْطًا بْنَ ثُومًا ،
 وَالرَّازِيَّ ، وَالْمَسْعُودِيَّ ، وَالْفَزَالِيَّ ، وَابْنَ حَوْقَلَ ،
 وَابْنَ خَرْدَاذِبَةَ ، وَالْهَرَوِيَّ ، وَابْنَ بَطُّوطة ، وَابْنَ
 يَفُورَ ، وَابْنَ الْعَرَبِيِّ ، وَيَاقُوتَ الْحَمَوِيَّ الرَّومِيَّ ،
 الَّذِي كَانَ تَاجِرًا ، وَحَالَتُهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا
 وَمُؤَلِّفًا ، وَلَمَّا ذَكَرَ الْفَارَابِيَّ ، وَابْنَ سِينَا ، حَبِيبَهُمَا

إِلَى ، وَقَصَّ عَلَى مُجْمَلِ حَيَاتِهِمَا ، وَأَنَّ أَوْلَهُمَا وَضَعَ
 أَكْثَرَ مِنْ تَمَانِينَ مُؤَلَّفًا يُعْتَدُّ بِهَا ، وَكَانَ فِي أَصْلِ
 نَشَأَتِهِ خَادِمًا ، وَقِيلَ : نَاطُورًا^(١) ، يَخْفَرُ بُسْتَانًا
 فِي بَعْضِ نَوَاحِي دِمَشْقَ ، وَكَانَ فَقِيرًا مُدْقِعًا^(٢) ،
 وَلَكِنَّ الْمَثْرَبَةَ وَالْإِضَاقَةَ وَسُوءَ الْحَالِ لَمْ تَقْعُدْ بِهِ
 دُونَ الْإِكْبَابِ عَلَى الدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ ، وَالتَّذْقِيقِ
 وَالتَّحْرِيرِ ، فَكَانَ يُوَاصِلُ لَيْلَهُ بِنَهَارِهِ ، وَلَا بُدَّ
 دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ ، وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَا سَهْرَ
 اللَّيَالِي ، لِأَنَّ الْعِلْمَ لَا يَأْتِي عَفْوًا ، وَبِلَا ثَمَنِ ، وَلَا
 يَهْبِطُ وَحْيًا مِنَ السَّمَاءِ ، بَلْ قِيَامًا بِاللَّيْلِ ، وَتَحْصِيلًا
 فِي النَّهَارِ ، وَمُشَاهَدَةً وَمُرَاقَبَةً ، وَانْتِبَاهًا وَاسْتِجْمَامَ

(١) خفياً (٢) معدماً ذا متربة

خَاطِرٍ ، وَاسْتِجْمَاعَ قُوًى ، وَتَوْحِيدَ مَجْهُودٍ ، وَاحْتِمَالَ
 مَكْرُوهِ ، وَشُظْفَ عَيْشٍ ، وَأَنْصِرَافًا عَنِ الْمَلَاذِّ ،
 وَإِقْبَالَ عَلَى الْأَعْبَاءِ ، وَمُضِيًّا إِلَى الْأَمَامِ ؛ وَهَكَذَا
 كَانَتْ حَالُ الْفَارَابِيِّ ، الَّذِي كَانَ يَسْتَضِيءُ بِقِنْدِيلِ
 الْحَارِسِ ، وَالَّذِي وَفَّقَ أَخِيرًا إِلَى خِدْمَةِ الْمُلُوكِ
 وَالْأَقْيَالِ^(١) ، وَمَعَ ذَلِكَ ، وَلِفِرْطِ انْقِطَاعِهِ لِلْعِلْمِ
 وَالدَّرْسِ ، لَمْ يَكُنْ شَرِّهَا نَهَمًا ، فَإِنَّهُ - فِيمَا قِيلَ -
 لَمْ يَكُنْ يَتَنَاوَلُ مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ : سِوَى أَرْبَعَةِ
 دَرَاهِمٍ فِي الْيَوْمِ ، يُخْرِجُهَا فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ
 شُؤْنٍ ، لِإِقَامَةِ أَوْدِهِ^(٢) ، وَإِعَانَتِهِ عَلَى تَحْقِيقِ سُؤْلِهِ ؛
 وَكَانَ مَصْدَرُ نَجَاحِهِ الْمُثَابَرَةُ وَالْمُعَاوَدَةُ ، وَسِعَةِ

(١) أميردون الملك (٢) ما اعوج من عيشه

الْعَطَنِ وَطُولَ الْجِلْدِ ، وَانْفِسَاحَ رُقْعَةِ الْأَمْلِ ، وَتَرْكَ
 السَّامَةِ وَالْمَلَلِ ؛ وَقَدْ قَالَ الْفَارَابِيُّ : « إِنَّهُ قَرَأَ
 بِالسَّمَاعِ « أَرِسْطُو » أَرْبَعِينَ مَرَّةً ، وَارَى أَنِّي مُحْتَاجٌ
 إِلَى مُعَاوَدَتِهِ . أَمَّا ابْنُ سِينَا ، فَإِنَّهُ أَلْفَ أَرْبَعِينَ
 كِتَابًا ، فِي مِائَةِ وَعِشْرِينَ مُجَلَّدًا ، بِخِلَافِ رَسَائِلِهِ ،
 الَّتِي تُعَدُّ بِالْمِائَاتِ ؛ وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ نَفْسِهِ ، فَقَالَ :
 « إِنِّي قَرَأْتُ كِتَابَ « مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ » ، فَمَا
 كُنْتُ أَفْهَمُ مَا فِيهِ ، وَالتَّبَسَّ عَلَى غَرَضٍ وَاصِعِهِ ،
 حَتَّى أَعَدْتُ قِرَاءَتَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً ، وَصَارَ لِي
 مَحْفُوظًا ، وَأَنَا مَعَ ذَلِكَ لَا أَفْهَمُهُ ، وَقُلْتُ : هَذَا
 كِتَابٌ لَا سَبِيلَ إِلَى فَهْمِهِ ؛ وَإِذَا بِي يَوْمًا حَضَرْتُ
 وَقْتَ الْعَصْرِ فِي سُوقِ « الْوَرَّاقِينَ » ، وَبِيدِ دَلَالٍ مُجَلَّدٍ

يُنَادِي عَلَيْهِ ، فَعَرَضَهُ عَلَى ، فَرَدَّدَتْهُ رَدَّ مُتَبَرِّمٍ ،
 مُعْتَقِدًا أَنَّ لَا فَائِدَةَ فِي هَذَا الْعِلْمِ ؛ فَقَالَ لِي :
 لَتَشْتَرِي مِنِّي هَذَا ، فَإِنَّهُ رَخِيسٌ ، أَيْبِعْكَهُ بِثَلَاثَةِ
 دَرَاهِمٍ ، وَصَاحِبُهُ مُحْتَاجٌ إِلَى ثَمَنِهِ ؛ فَاشْتَرَيْتُهُ ، فَإِذَا
 هُوَ كِتَابٌ لِأَبِي نَصْرِ الْفَارَابِيِّ فِي أَغْرَاضِ كِتَابِ
 « مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ » ؛ فَرَجَعْتُ إِلَى يَدَيَّ ، وَأَسْرَعْتُ
 إِلَى قِرَاءَتِهِ ، فَانْفَتَحَ عَلَيَّ فِي الْوَقْتِ أَغْرَاضُ
 ذَلِكَ الْكِتَابِ ، بِسَبَبِ أَنَّهُ صَارَ عَلَى ظَهْرِ^(١) الْقَلْبِ .
 وَقَالَ « ابْنُ سِينَا » وَاصِفًا كَيْفِيَّةَ انكِبَابِهِ عَلَى الدَّرْسِ :
 « كُنْتُ أَرْجِعُ بِاللَّيْلِ إِلَى دَارِي ، وَأَضَعُ السَّرَاجَ
 بَيْنَ يَدَيَّ ، وَأَشْتَغِلُ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ ، حَتَّى إِذَا

(١) أى أنى حفظته واستظهرته

غَلَبَنِ النَّوْمُ ، أَوْ شَعَرْتُ بِضَعْفٍ ، عَدَلْتُ إِلَى شُرْبِ
 قَدَحٍ مِنَ الشَّرَابِ ، رِيثًا تَعُودُ إِلَى قُوَّتِي ، وَمَتَى
 أَخَذَنِي النَّوْمُ ، أَحْلُمُ بِتِلْكَ الْمَسَائِلِ بِأَعْيُنِهَا ^(١) ، حَتَّى
 إِنَّ كَثِيرًا مِنْهَا : انْفَتَحَ عَلَىَّ وَجُوهُهَا فِي الْمَنَامِ .



وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ : مَا أَرَدْتُ بِهَذَا يَا وَلَدِي أَنْ
 أَنْفَرَكَ عَنِ الْمَضَى فِي قِرَاءَةِ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، وَإِنَّمَا
 أَرَدْتُ أَلَّا تَحْتَقِرُوا رِجَالَ الْمُسْتَقْبَلِ الْعَرَبِ وَكَفَايَاتِهِمْ ،
 وَاقْتِدَارَ جَهَابِذِهِمْ ^(٢) ؛ وَيَا حَبَّذَا لَوْ جَمَعْتُمْ بَيْنَ آدَبِ
 الْعَرَبِ وَآدَبِ الْعَرَبِ ، وَعَمِلْتُمْ عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى
 قَدِيمِكُمْ ، إِلَى جَانِبِ الطَّرِيفِ الْمُثْمَرِ مِنْ جَدِيدِكُمْ .

(١) بناتها (٢) جمع جهيد وهو الناقد العارف بتميز الجيد من
 الرديء وهو معرب عن كهيد بالفارسية والمراد به العلماء والأعلام

ثُمَّ قَالَ لِي : لِمَاذَا لَمْ تُتَقَيَّدْ فِي كُنَاشَتِكَ مَقَالَتِي
تِلْكَ ، لِتَكُونَ لَكَ نِبْرَاسًا وَهَادِيًا ، وَمُسْتَحِثًّا
وَمُسْتَنْفِرًا^(١) ؟ فَصَدَعْتُ بِمَا أَمَرْتُ .



وَقَالَ لِي الشَّيْخُ : أَتَعْرِفُ كَيْفَ أَصْبَحَ حَمْرَةً فَتَحَ اللَّهُ:
قَامُوسًا كَاللِّسَانِ ؟ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَرَّسَ^(٢) حَيَاتَهُ لِلْعِلْمِ
دُونَ الْبَطَالَةِ ، وَلِلْقِرَاءَةِ دُونَ الزِّيَارَةِ ، وَلِلْمُطَالَعَةِ دُونَ
هَذَرِ^(٣) الْحَدِيثِ . . . أَكْتُبْ يَا وَلَدِي مَا أَفَادَنِيهِ ابْنُ
الْجَوْزِيِّ فِي صَيِّدِ الْخَاطِرِ ، مِمَّا فَتَقَى الذَّهْنَ وَشَحَذَ
الْخَاطِرَ ، وَصَرَفَ إِلَى الْعِلْمِ وَالدَّرْسِ ، دُونَ اللَّهْوِ
وَالْكَأْسِ .

(١) ما يملك على أن تنفر إلى ما يفيدك (٢) وقفها (٣) هجره وهذيه

قَالَ : « أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ صُحْبَةِ الْبَطَّالِينَ ^(١) ؛ لَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا كَثِيرًا يَجْرُونَ مَعِيَ فِيمَا قَدْ اعْتَادَهُ النَّاسُ مِنْ كَثَرَةِ الزِّيَارَةِ ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ التَّرَدُّدَ خِدْمَةً ، وَيُطِيلُونَ الْجُلُوسَ مَرَّةً ، وَيُجْرُونَ فِيهِ أَحَادِيثَ النَّاسِ ، وَمَا لَا يَغْنِي ، وَتَتَخَلَّلُهُ غَيْبَةٌ ؛ وَهَذَا شَيْءٌ يَفْعَلُهُ فِي زَمَانِنَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَرُبَّمَا طَلَبَهُ الْمَزُورُ ، وَتَشَوَّقَ إِلَيْهِ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْوَحْدَةِ ، وَخُصُوصًا فِي الْأَعْيَادِ ؛ فَتَرَاهُمْ يَمْشُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، وَلَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى التَّهْنِئَةِ وَالسَّلَامِ ، بَلْ يَمْزُجُونَ ذَلِكَ بِمَا ذَكَرْتُهُ ، مِنْ تَضْيِيعِ الزَّمَانِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ الزَّمَانَ أَشْرَفَ شَيْءٍ ، وَالْوَاجِبُ انْتِهَابُهُ بِفِعْلِ الْخَيْرِ ،

(١) الكسالى المتفرغين عن العمل

كَرِهْتُ ذَلِكَ ، وَبَقِيتُ مَعَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إِنْ
 أَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ ، وَقَعْتُ وَخْشَةً لِمَوْضِعِ قَطْعِ
 الْمَأْلُوفِ ؛ وَإِنْ جَرَيْتُ مَعَهُمْ ، ضَاعَ الزَّمَانُ ؛ فَصِرْتُ
 أَدَافِعُ اللَّقَاءِ جَهْدِي ، فَإِذَا غُلِبْتُ ، قَصَّرْتُ فِي
 الْكَلَامِ ، لِأَتَعْجَلَ الْفِرَاقَ ؛ ثُمَّ أَعْدَدْتُ أَعْمَالًا ،
 لَا تَمْنَعُ مِنَ الْمُحَادَثَةِ ، فِي أَوْقَاتِ لِقَائِهِمْ ، لِئَلَّا يَمُضِيَ
 الزَّمَانُ فَارِغًا ، فَجَعَلْتُ مِنَ الْمُعَدِّ لِلِقَائِهِمْ : قَطْعَ
 الْكَاغِدِ ، وَبَرَى الْأَقْلَامِ ، وَخَزَمَ الدَّفَاتِرَ ؛ فَإِنَّ
 هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَا بُدَّ مِنْهَا ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ ،
 وَحُضُورِ قَلْبٍ ؛ فَأَرَصْتُهَا لِأَوْقَاتِ زِيَارَاتِهِمْ ،
 لِئَلَّا يَضِيعَ شَيْءٌ مِنْ وَقْتِي .

أَجَلُ يَا وَلَدِي ؛ هَكَذَا كَانَ نَظَرُ السَّلَفِ الصَّالِحِ
إِلَى الْوَقْتِ ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ ذَهَبٍ حَقًّا ، وَإِلَى
التَّحْبِيرِ وَالتَّأْلِيفِ ، وَإِلَى الدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ . وَلَعَلَّكَ
تَذَكَّرُ قِصَّةَ ذَلِكَ الْخَلِيفَةِ الَّذِي بَعَثَ رُسُلَهُ لِيَطْلُبُوا
لَهُ عَالِمًا ، لِمُنَادَمَتِهِ وَمُسَامَرَتِهِ ؛ فَلَمَّا جَاءُوهُ وَجَدُوهُ :
جَالِسًا إِلَى كُتُبِهِ ، مُنْقَطِعًا إِلَى عِلْمِهِ ؛ فَأَفْضَوْا إِلَيْهِ
بِمُجْمَلِ طَلَبِ الْخَلِيفَةِ ؛ فَقَالَ لَهُمْ : أَبْلِغُوهُ أَنَّ
عِنْدِي قَوْمًا مِنَ الْحُكَمَاءِ أَحَادِثُهُمْ وَأَنَاقِشُهُمْ ،
وَأَنِّي مَائِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ مَتَى أَتَّهَى مِنْهُمْ ؛ فَلَمَّا عَادُوا
إِلَيْهِ ، سَأَلَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْحُكَمَاءِ : مَنْ هُمْ ؟ فَقَالُوا :
لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَحَدٌ أَلْبَسَهُ ؛ فَاسْتَشَاطَ الْخَلِيفَةُ
غَاضِبًا ، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ فِي التَّوَّ وَاللَّحْظَةِ ، كَيْفَ

كَانَتْ حَالُهُ ، وَأَيًّا كَانَتْ مَعَاذِيرُهُ ؟ فَلَمَّا حَضَرَ
الْعَالَمُ ، وَمَثَلَ أَمَامَ الْخَلِيفَةِ ، سَأَلَهُ مَنْ يَكُونُ
هَؤُلَاءِ الْحُكَمَاءَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَهُ ؟ فَأَنْشَدَ :

لَنَا جُلَسَاءُ لَا نَعْلَمُ حَدِيثَهُمْ
أَلْبَاءُ مَأْمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهُدًا

يُفِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ : عِلْمَ مَا مَضَى
وَرَأْيَا وَتَأْدِييَا وَمَجْدًا وَسُوءُ دَا
فَإِنْ قُلْتُ : أَمْوَاتٌ ، فَلَمْ تَعُدْ أَمْرَهُمْ ،

وَإِنْ قُلْتُ : أَحْيَاءُ ، فَلَسْتَ مُفَنِّدًا

وَقَالَ لِي رَحِمَهُ اللَّهُ ذَاتَ يَوْمٍ أَتَذْكُرُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ :

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي

وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمْخْتَلِفٌ جَدًّا

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لِحُومِهِمْ
وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
وَإِنْ ضَيَّعُوا غَنِيَّيَ حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ
وَإِنْ هُمُ هَوَوْا غِيَّيَ هَوَيْتُ لَهُمْ رُشْدًا
وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمَرُّ بِي
زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمَرُّ بِهِمْ سَعْدًا
وَلَا أَحْمِلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ
وَلَيْسَ رَئِيسَ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا
لَهُمْ جُلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَنِي غِيَّيَ
وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْلَفْهُمْ رِفْدًا
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيَا
وَمَا شِيْمَةٌ لِي غَيْرَهَا تُشَبِّهُ الْعَبْدَا

فَلَزِمْتُ الصَّمْتَ فَقَالَ : وَهَلْ تَدْرِي مَنْ يَقُولُ^(١) ؟
 أَنَا النَّذِيرُ لَكُمْ مِنِّي مُجَاهِرَةً
 كُنِّي لَا أَلَامَ عَلَى نَهْيٍ وَإِنْذَارٍ
 فَإِنْ عَصَيْتُمْ مَقَالِي الْيَوْمَ فَاعْتَرِفُوا
 أَنَّ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزْيًا ظَاهِرَ الْعَارِ
 لَتَرْجِعُنَّ أَحَادِيثًا مُلَعَنَةً
 لَهُوَ الْمُقِيمِ وَلَهُوَ الْمُدْلِجِ السَّارِي
 مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ حَوْجَاءٌ يَطْلُبُهَا
 عِنْدِي فَإِنِّي لَهُ رَهْنٌ بِأَصْحَارِ^(٢)
 أَقِيمُ عَوَجَتَهُ إِنْ كَانَ ذَا عِوَجٍ
 كَمَا يَقُومُ قِدْحُ^(٣) النَّبْعَةِ^(٤) الْبَارِي^(٥)

(١) أنظر أبيات قيس بن رفاع في كتاب الأملالي ج ١ ص ١١ (٢) أصغر القوم برزوا إلى الصحراء ، أي بلا استتار ولا امتناع (٣) القدح : السهم قبل أن يسوى (٤) النبعة : القوس (٥) الباري : الذي يبرى السهم

وإِنَّهُ لَيَلَدُّ لِي ، أَنْ أُثْبِتَ هُنَا حَدِيثَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ
 فِي مَعْرِضِ حُثِّهِ عَلَى التَّعَلُّمِ ، وَاحْتِمَالِ كُلِّ نَصَبٍ
 فِي سَبِيلِ تَحْصِيلِهِ ، مَثَلُهُ الْأَعْلَى فِي نَحْوِي كَبِيرٌ
 هُوَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السَّرِيِّ بْنِ سَهْلٍ
 الْمَعْرُوفُ بِالزَّجَّاجِ قَالَ :

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دَرَسْتَوَيْهِ النَّحْوِيُّ .
 حَدَّثَنِي الزَّجَّاجُ . قَالَ : كُنْتُ أَخْرُطُ الزَّجَّاجَ ،
 فَاشْتَهَيْتُ النَّحْوَ ، فَلِزِمْتُ الْمُبَرَّدَ لِتَعَلُّمِهِ ، وَكَانَ
 لَا يُعَلِّمُ مَجَانًّا ، وَلَا يُعَلِّمُهُ بِأَجْرَةٍ إِلَّا عَلَى قَدَرِهَا :
 فَقَالَ لِي : أَيُّ شَيْءٍ صِنَاعَتُكَ ؟ قُلْتُ : أَخْرُطُ الزَّجَّاجَ ،
 وَكَسْبِي فِي كُلِّ يَوْمٍ دِرْهَمٌ وَدَانِقَانِ ، أَوْ دِرْهَمٌ
 وَنِصْفٌ ، وَأُرِيدُ أَنْ تَبْلُغَ فِي تَعْلِيمِي ، وَأَنَا أُعْطِيكَ

كُلَّ يَوْمٍ دِرْهَمًا ، وَأَشْرَطُ لَكَ أَنْ أُعْطِيكَ إِيَّاهُ أَبَدًا ،
 إِلَى أَنْ يُفَرِّقَ الْمَوْتُ بَيْنَنَا . اسْتَغْنَيْتُ عَنِ التَّعْلِيمِ
 أُمِّ احْتَجَبْتُ إِلَيْهِ . قَالَ : فَلَزِمْتُهُ ، وَكُنْتُ أَعْدِمُهُ
 فِي أُمُورِهِ مَعَ ذَلِكَ ، وَأَعْطِيهِ الدَّرْهَمَ فَيَنْصَحْنِي فِي الْعِلْمِ
 حَتَّى اسْتَقَلَّتْ ، فَجَاءَهُ كِتَابُ بَعْضِ بَنِي مَارِقَةَ ،
 مِنَ الصُّرَاةِ يَلْتَمِسُونَ مُعَلِّمًا نَحْوِيًّا لِأَوْلَادِهِمْ . فَقُلْتُ
 لَهُ : أَتَسْنِي لَهُمْ فَأَسْمَانِي ، فَخَرَجْتُ ، فَكُنْتُ أَعَلِّمُهُمْ
 وَأُنْفِذُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا ، وَأَزِيدُهُ
 بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَمَضَتْ مُدَّةٌ عَلَى ذَلِكَ ،
 فَطَلَبَ مِنْهُ عُمَيْدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ مُوَدِّبًا لِابْنِهِ
 الْقَاسِمِ . فَقَالَ لَهُ : لَا أَعْرِفُ لَكَ إِلَّا رَجُلًا زَجَّاجًا
 بِالصُّرَاةِ مَعَ بَنِي مَارِقَةَ . قَالَ : فَكُتِبَ إِلَيْهِمْ

عَبِيدُ اللَّهِ فَاسْتَرْزَلَهُمْ عَنِّي فَتَزَلُّوا لَهُ ، فَأَحْضَرَنِي ،
وَأَسْلَمَ الْقَاسِمَ إِلَيَّ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ غِنَائِي ، وَكُنْتُ
أَعْطَى الْمُبَرَّدَ ذَلِكَ الدَّرْهَمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَى أَنْ
مَاتَ ، وَلَا أَخْلِيهِ مِنَ التَّفَقُّدِ بِحَسَبِ طَاقَتِي .

وَمِنْ شَيْقٍ مَا رَوَاهُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سِيَاقٍ مَأْثُورٍ
جَهَابِذَةِ التَّارِيخِ وَالْأَدَبِ ، وَصِيَّةُ أَبِي عَلِيٍّ خَازِنِ الْعِمِيدِ
وَهُوَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَعْرُوفِ بِمَسْكُويِهِ ، صَاحِبُ
تَجَارِبِ الْأُمَمِ ، وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ . قَالَ : « هَذَا
مَا عَاهَدَ عَلَيْهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ آمِنٌ
فِي سِرِّهِ ، مَعَافٍ فِي جِسْمِهِ ، عِنْدَهُ قُوَّةُ يَوْمِهِ ،
لَا تَدْعُوهُ إِلَى هَذِهِ الْمُعَاهَدَةِ ضَرُورَةُ نَفْسٍ وَلَا بَدَنٍ ،
وَلَا يُرِيدُ بِهَا مُرَآءَاةَ مَخْلُوقٍ ، وَلَا اسْتِجْلَابَ مَنْفَعَةٍ ،

وَلَا دَفْعَ مَضَرَّةٍ مِنْهُمْ ، عَاهَدَهُ عَلَى أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ ،
وَيَتَّقِدَ أَمْرَهُ ، فَيَعِفَّ وَيَشْجُعَ وَيَحْكُمَ ، وَعَلَامَةُ
عِفَّتِهِ : أَنْ يَقْتَصِدَ فِي مَأْرَبِ بَدَنِهِ ، حَتَّى لَا يَحْمِلَهُ
الشَّرُّ عَلَى مَا يَضُرُّ جِسْمَهُ ، أَوْ يَهْتِكُ مُرُوءَتَهُ ،
وَعَلَامَةُ شَجَاعَتِهِ : أَنْ يُحَارِبَ دَوَاعِيَ نَفْسِهِ الذَّمِيمَةِ
حَتَّى لَا تَقْهَرَهُ شَهْوَةٌ قَبِيحَةٌ ، وَلَا غَضَبٌ فِي غَيْرِ
مَوْضِعِهِ . وَعَلَامَةُ حِكْمَتِهِ : أَنْ يَسْتَبْصِرَ فِي
اِعْتِقَادَاتِهِ حَتَّى لَا يَفُوتَهُ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ شَيْءٌ مِنْ
الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الصَّالِحَةِ لِيُصْلِحَ أَوْلَادَ نَفْسِهِ ،
وَيُهَذِّبَهَا ، وَيَحْصُلَ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْمُجَاهَدَةِ ثَمَرُهَا
الَّتِي هِيَ الْعَدَالَةُ . وَعَلَى أَنْ يَتَمَسَّكَ بِهَذِهِ التَّذَكُّرَةِ
وَيَحْتَدَّ فِي الْقِيَامِ بِهَا وَالْعَمَلِ بِمُوجِبِهَا . وَهِيَ خَمْسَةٌ

عَشَرَ بَابًا : إِثَارُ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فِي الْأَعْتِقَادَاتِ ،
وَالصِّدْقِ عَلَى الْكَذِبِ فِي الْأَقْوَالِ ، وَالْخَيْرِ عَلَى الشَّرِّ
فِي الْأَفْعَالِ ، وَكَثْرَةُ الْجِهَادِ الدَّائِمِ لِأَجْلِ الْحَرْبِ الدَّائِمِ
بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، وَالتَّمَسُّكُ بِالشَّرِيعَةِ وَلُزُومُ
وُضَائِفِهَا ، وَحِفْظُ الْمَوَاعِيدِ حَتَّى يُنَجِّزَهَا . وَأَوَّلُ ذَلِكَ
مَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ : قِلَّةُ الثِّقَةِ بِالنَّاسِ بِتَرْكِ
الِاسْتِرْسَالِ ، مَحَبَّةُ الْجَمِيلِ لِأَنَّهُ جَمِيلٌ لَا لِغَيْرِ ذَلِكَ ،
الصَّمْتُ فِي أَوْقَاتِ حَرَكَاتِ النَّفْسِ لِلْكَلامِ حَتَّى
يُسْتَشَارَ فِيهِ الْعَقْلُ ، حِفْظُ الْحَالِ الَّتِي تَحْصُلُ فِي شَيْءٍ
حَتَّى يَصِيرَ مِلْكُهُ وَلَا يَفْسُدَ بِالِاسْتِرْسَالِ ،
الْإِقْدَامُ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ صَوَابًا ، الْأَشْفَاقُ عَلَى
الزَّمَانِ الَّذِي هُوَ الْعُمُرُ اسْتِعْلٍ فِي الْمِهْمِ دُونَ غَيْرِهِ ،

تَرَكَ الْخَوْفَ مِنَ الْمَوْتِ وَالْفَقْرَ لِعَمَلٍ مَا يَنْبَغِي
وَتَرَكَ التَّوَانِي ، تَرَكَ الْأَكْثَرَاتِ لِأَقْوَالِ أَهْلِ الشَّرِّ
وَالْحَسَدِ لئَلَّا يَشْتَغَلَ بِمُقَابَلَتِهِمْ ، وَتَرَكَ الْأَنْفِعَالَ
لَهُمْ ، حُسْنُ احْتِمَالِ الْغَنَى وَالْفَقْرِ وَالْكَرَامَةِ
وَالْهَوَانِ بِجِهَةٍ وَجِهَةٍ ، ذِكْرُ الْمَرَضِ وَقَتِ الصَّحَّةِ
وَالْهَمِّ وَقَتِ السُّرُورِ ، وَالرَّضَى عِنْدَ الْغَضَبِ لِيَقِلَّ
الطَّغْيَى وَالْبَغْيُ ، قُوَّةُ الْأَمَلِ ، وَحُسْنُ الرَّجَاءِ ، وَالثِّقَةُ
بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَصَرَفُ جَمِيعِ الْبَالِ إِلَيْهِ .



وَالْآنَ ، أَرَى لِرِزَامًا مُحِبًّا إِلَيَّ ، وَنَحْنُ بِسَبِيلِ
الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ عَامَّةً ، وَمَا فِيهِ مِنْ جَمَالٍ فَتَنِي
خَاصَّةً ، أَنْ أَتَقَلَّ بِكَ لَحَظَاتٍ قِصَارٍ مِنْ ثَمِينِ

أَوْفَاتِكَ ، وَنَفِيسِ سَاعَاتِكَ ، لِنَقْضِهَا سَوِيًّا فِي
جَوَلَاتِ سَرِيعَةٍ ، مِنْ جَوَلَاتِ أُسْتَاذِنَا الْمَرْحُومِ
الشيخ حمزة فَتَحَ اللهُ ، وَلَسْتُ أَنْكِرُ عَلَيْكَ ، أَنِّي
جَدُّ مُحَافِظٍ مَعَ الْمُحَافِظِينَ فِي ضَرُورَةٍ تَذُوقِ مَتْنِ
أَسَالِيهِمْ وَسَاحِرِ عِبَارَاتِهِمْ وَحَكِيمِ مَنَاحِيهِمْ .
وَإِنِّي لَا أَزْعُمُ أَنَّكَ سَتَسْتَوْعِبُ هُنَا دِرَاسَاتِ
طَوِيلَةٍ مِنَ الدَّرَاسَاتِ التَّحْلِيلِيَّةِ فِي الْأَدَبِ ، وَلَكِنِّي
أَخْتَارُ لَكَ طَرَفًا مِنْ مُخْتَارَاتِ الشَّيْخِ ، أَوْ بَعْبَارَةٍ أَدَقَّ
مِنْ مُخْتَارَاتِي مِنْ دُرُوسِ الشَّيْخِ ، مِنْ التَّنْثِيرِ الْعَرَبِيِّ
الشَّامِلِ الْجَامِعِ ، مُسْتَقْلًا بِكَ مِنْ عَصْرِ الصَّحَابَةِ
وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ إِلَى الْأُمَوِيِّ فَالْعَبَّاسِيِّ بِوُجْهِتَيْهِ
فَالْأَنْدَلُسِيِّ فَطَرْفٍ مِنْ مَوَاعِظِ الْعَرَبِ وَحِكْمِهِمْ

وَلَا ذِئْجَ تَقْدِهِمْ وَمَا لِبَعْضِهِمْ مِنْ أَسَالِيبَ فِي النَّقْدِ
 التَّهْكِيمِيَّ جِدًّا لَا ذِئْجَةَ ، مَعَ خِفَّةٍ ، وَمُرٌّ وَجِيعَةٍ ، فِي
 حَلَاوَةِ مَذَاقٍ ، حَتَّى كَأَنَّكَ تَقْرَأُ « جِرُومَ جِرُومِ »
 أَوْ « دِكْنِزِ » أَوْ كَأَنَّكَ تَمْتَعُ نَفْسَكَ وَتَصْقُلُ خَاطِرَكَ
 وَتَتَنَزَّعُ مَلَكًا وَتَبْرُثُكَ بِقِرَاءَةِ التَّهْكِمَاتِ الشَّكْسِيرِيَّةِ ،
 وَلَيْسَ لِي مِنْ غَايَةٍ — عِلْمُ اللَّهِ — إِلَّا أَنْ تُعَمِّرَ ذِهْنَكَ
 الْمُتَعَطِّشَ لِلْأَدَبِ وَالثَّقَافَةِ ، بِأَفَاوِيقَ مِنَ الْأُسْلُوبِ
 الشَّيْقِ الطَّرِيفِ ، وَالْمَعْنَى الْمُسْتَطَرَفِ الْحَصِيفِ ،
 إِلَى مَا وَهَبَكَ اللَّهُ فِي عَصْرِنَا الْحَدِيثِ مِنْ عِلْمٍ ،
 وَفَنٍّ ، وَابْتِكَارٍ ، وَاخْتِرَاعٍ .

وَهَاكَ رِسَالَةَ عُمَرَ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فِي الْقَضَاءِ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ،
سَلَامٌ عَلَيْكَ ، أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ
مُحْكَمَةٌ ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ
فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَازَ لَهُ ، أَسِ يَنْ
النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ
شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ ، وَلَا يَيْأَسُ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ ،
الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى ، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ، وَالصُّلْحُ
جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا ، أَوْ حَرَّمَ
حَلَالًا . لَا يَمْنَعُكَ قَضَائِهِ قَضَيْتَهُ الْيَوْمَ فَرَأَجَعْتَ فِيهِ
عَقْلَكَ ، وَهَدَيْتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ ،

فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ ، وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي
 الْبَاطِلِ . الْفَهَمَ ، الْفَهَمَ ، فِيمَا تَلَجَّلَجَ فِي صَدْرِكَ ،
 مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ . ثُمَّ أَعْرِفِ الْأَشْبَاهَ
 وَالْأَمْثَالَ ، فَفَسِّ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَأَعْمِدْ إِلَى أَقْرَبِهَا
 إِلَى اللَّهِ وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ . وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا ،
 وَإِلَّا اسْتَحَلَمْتَ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةَ ، فَإِنَّهُ أَنْفَى لِلشَّكِّ ،
 وَأَجْلَى لِلْعَمَى . الْمُسْلِمُونَ عُذُولُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ
 إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ أَوْ مُحَرَّبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ ، أَوْ
 ظَنِينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ نَسَبٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَلَّى مِنْكُمْ
 السَّرَائِرَ وَدَرَأَ بِالْيَنَنْاتِ وَالْأَيْمَانِ . وَإِيَّاكَ وَالْعَلَقَ (١)
 وَالضَّجَرَ وَالتَّأْذِيَّ بِالْخُصْمِ ، وَالتَّنَكُّرَ عِنْدَ

(١) الْغَلَقُ : الْغُلُقُ مِنَ الْكَلَامِ الْمَشْكُلِ .

الْخُصُومَاتِ ، فَإِنَّ الْحَقَّ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ يُعْظِمُ اللَّهُ
 بِهِ الْأَجَرَ ، وَيُحْسِنُ بِهِ الذُّخْرَ ، فَمَنْ ظَهَرَ لِلنَّاسِ
 بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسِهِ شَأْنُهُ اللَّهُ ، فَمَا ظَنُّكَ
 بِشَوَابِ غَيْرِ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ ،
 وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ وَالسَّلَامُ » .

وَإِلَيْكَ مَا كَتَبَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَمُعَاذُ
 بْنُ جَبَلٍ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَنْصَحَانِهِ
 رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ
 الْجَرَّاحِ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :
 سَلَامٌ عَلَيْكَ . فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ (أَمَّا بَعْدُ) فَإِنَّا عَهْدُنَاكَ وَأَمْرُ نَفْسِكَ ^(١)
لَكَ مُهِمٌّ ، فَأَصْبَحْتَ وَقَدْ وَلَيْتَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ :
أَحْمَرَهَا وَأَسْوَدَهَا ، يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْكَ الصَّدِيقُ
وَالْعَدُوُّ ، وَالشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ . وَلِكُلِّ حِصَّةٍ ^(٢)
مِنَ الْعَدْلِ . فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ يَا عَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ ؟
وَإِنَّا نَحْذَرُكَ يَوْمًا تَعْنُو ^(٣) فِيهِ الْوُجُوهُ ، وَتَجِبُ ^(٤)
لَهُ الْقُلُوبُ ، وَتَنْقَطِعُ فِيهِ الْحَبَجُ ، بِحُجَّةٍ مَلِكٍ
قَهَرَهُمْ بِجَبَرُوتِهِ . وَالْخَلْقُ دَاخِرُونَ ^(٥) لَهُ ، يَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ ، وَيَخَافُونَ عِقَابَهُ ، وَإِنَّا كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَمْرَ
هَذِهِ الْأُمَّةِ يَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ

(١) أَمْرُ نَفْسِكَ لَكَ : شعارُكَ حُرِيَّةَ رَأْيِكَ (٢) نَصِيبٌ وَقِسْمَةٌ

(٣) تَشْخَصُ (٤) تَخْفُقُ وَتَرْجَفُ (٥) خَاضِعُونَ

الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءِ السَّرِيرَةِ ! ؟ وَإِنَّا نَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُنْزِلَ
كِتَابَنَا سِوَى الْمَنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِنَا . فَإِنَّا إِنَّمَا
كُتِبْنَا إِلَيْكَ نَصِيحَةً لَكَ وَالسَّلَامُ . فَكُتِبَ إِلَيْهِمَا :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :
إِلَى أَبِي عُيَيْدَةَ عَامِرِ بْنِ الْجَرَّاحِ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ .
سَلَامٌ عَلَيْكُمَا ، أَحْمَدُ إِلَيْكُمَا اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
(أَمَّا بَعْدُ) فَقَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمَا تَزْعُمَانِ أَنَّهُ بَلَّغَكُمَا
أَنِّي وَلَيْتُ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، أَحْمَرَهَا وَأَسْوَدَهَا :
يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيِ الصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ ، وَالشَّرِيفِ
وَالْوَضِيعِ . وَكُتِبْتُمَا أَنْ أَنْظُرَ كَيْفَ أَنْتَ يَا عُمَرُ
عِنْدَ ذَلِكَ ؟ وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لِعُمَرَ عِنْدَ ذَلِكَ
إِلَّا بِاللَّهِ . كُتِبْتُمَا تُحَذِّرَانِي مَا حُذِّرْتُ بِهِ الْأُمَّمَ قَبْلَنَا .

وَقَدِيمًا كَانَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِأَجَالِ النَّاسِ يُقَرَّبَانِ
كُلَّ بَعِيدٍ، وَيُبْلِيَانِ^(١) كُلَّ جَدِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ
مَوْعُودٍ. حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى مَنَازِلِهِمْ^(٢) مِنَ الْجَنَّةِ
أَوْ النَّارِ ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ. كَتَبْنَا تَرْعُمَانَ أَنْ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ
يَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا: أَنْ يَكُونَ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ
أَعْدَاءُ السَّرِيرَةِ وَلَسْتُمْ بِذَلِكَ. وَلَيْسَ هَذَا ذَلِكَ الزَّمَانُ
وَلَكِنْ زَمَانُ ذَلِكَ حِينَ تَظْهَرُ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ.
وَكَتَبْنَا تَعُودَانَ بِاللَّهِ أَنْ أُنْزَلَ كِتَابُكُمَا مِنِّي سِوَى
الْمُنْزَلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِكُمَا. وَإِنَّمَا كَتَبْنَا
نَصِيحَةً لِي وَقَدْ صَدَقْتُمَا. فَتَعَهَّدَانِي مِنْكُمَا بِكِتَابٍ
وَلَا غِنَى بِي عَنْكُمَا وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا.



وَهَاكَ رِسَالَةً حَدَّثَنِي بِهَا رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَكَانَ بِهَا
جَدُّ مُعْجَبٍ ، وَجِدَّ مَفْتُونٍ ، وَمَهْمَا قِيلَ بِأَنَّهَا لَمْ
تُكْتَبْ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ فَإِنَّهَا تُعْتَبَرُ بِلَا رَيْبٍ
خُفَّةً فَنِيَّةً فِي النَّثْرِ الْعَرَبِيِّ :

قَالَ (١) أَبُو حَيَّانَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ التَّوْحِيدِيُّ
الْبَغْدَادِيُّ : سَمَرْنَا لَيْلَةً عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ
أَحْمَدَ بْنِ بَشِيرٍ الْمَرْوَرُودِيِّ بِبَغْدَادَ ، فَتَصَرَّفَ فِي
الْحَدِيثِ كُلِّ مُتَصَرِّفٍ ، وَكَانَ غَزِيرَ الرِّوَايَةِ ، لَطِيفَ
الدَّرَايَةِ ، فَجَرَى حَدِيثُ الثَّقَفِيَّةِ ، فَرَكِبَ كُلُّ
مَرْكَبًا ، وَقَالَ قَوْلًا ، وَعَرَّضَ بَشْيًءً ، وَنَزَعَ إِلَى فَنٍّ .
فَقَالَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَحْفَظُ رِسَالَةَ لِأَبِي بَكْرٍ

(١) انظر صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١ وعصر المأمون ج ٢ ص ١

الصَّدِيقِ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وَجَوَابَ عَلِيِّ عَنْهَا ، وَمُبَايَعَتَهُ أَيَّامَهُ
عَقِبَ تِلْكَ الْمُنَاطَرَةَ ؟ فَقَالَ الْجُمَاعَةُ : لَا وَاللَّهِ ،
فَقَالَ : هِيَ مِنْ بَنَاتِ الْحَقَائِقِ ، وَمُحَبَّبَاتِ الصَّنَادِقِ ،
وَمُنْذُ حَفِظْتُهَا مَا رَوَيْتُهَا إِلَّا لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْمَهَلَّبِيِّ فِي
وَزَارَتِهِ ، فَكَتَبَهَا عَنِّي يَدِهِ . وَقَالَ : لَا أَعْرِفُ
رِسَالَةً أَعْقَلَ مِنْهَا وَلَا أَبْيَنَ ، وَأَنَّهَا لَتَدُلُّ عَلَى عِلْمٍ
وَحِلْمٍ ، وَفَصَاحَةٍ وَنَبَاهَةٍ ، وَبُعْدِ غَوْرٍ ، وَشِدَّةِ
غَوْصٍ . فَقَالَ لَهُ الْعَبَّادَانِي : أَيُّهَا الْقَاضِي ، فَلَوْ
أَتَمَّمْتَ الْمِنَّةَ عَلَيْنَا بِرِوَايَتِهَا ؟ أَسْمِعْنَاهَا ، فَنَحْنُ
أَوْعَى لَكَ مِنَ الْمَهَلَّبِيِّ ، وَأَوْجَبُ ذِمَامًا عَلَيْكَ ،
فَانْدَفَعَ وَقَالَ :

حَدَّثَنَا الْخَزَاعِيُّ بِمَكَّةَ عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ ، قَالَ
 حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي فُلَيْحٍ عَنْ عِيسَى بْنِ دَوَّابٍ
 ابْنِ الْمُبَاحِ ، قَالَ سَمِعْتُ مَوْلَايَ أَبَا عُيَيْدَةَ يَقُولُ :
 لَمَّا اسْتَقَامَتِ الْخِلَافَةُ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، بَعْدَ فِتْنَةِ كَادَ الشَّيْطَانُ
 بِهَا ، فَدَفَعَ اللَّهُ شَرَّهَا وَيَسَّرَ خَيْرَهَا ، بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ
 عَنْ عَلِيٍّ تَلَكُؤُ^(١) وَشِمَاسُ^(٢) وَتَهَمُّ^(٣) وَنِفَاسُ^(٤) ،
 فَكَرِهَ أَنْ يَتِمَّادَى الْحَالُ فَيَبْدُوَ الْعَوْرَةُ ، وَتَشْتَعَلَ
 الْجُمُرَةُ ، وَتَتَفَرَّقَ ذَاتُ الْبَيْنِ ، فَدَعَانِي بِحَضْرَتِهِ فِي
 خُلُوةٍ ، وَكَانَ عِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 وَحْدَهُ ، فَقَالَ : يَا أَبَا عُيَيْدَةَ ، مَا أَيْمَنَ نَاصِيَتِكَ ،

(١) الشماس المعادة والمعاودة (٢) من تههم الشيء طلبه وتهمس

(٣) نافس في الشيء منافسة رغب فيه على وجه المبالاة والمفاخرة

وَأَبِينَ الْخَيْرَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ ! وَطَالَمَا أَعَزَّ اللَّهُ بِكَ
 الْإِسْلَامَ وَأَصْلَحَ شَأْنَهُ عَلَى يَدَيْكَ ، وَلَقَدْ كُنْتُ
 مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَكَانِ
 الْمَحْظُوطِ ، وَالْمَحَلِّ الْمَغْبُوطِ ، وَلَقَدْ قَالَ فِيكَ فِي
 يَوْمِ مَشْهُودٍ : « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ » ، وَلَمْ تَزَلْ لِلدِّينِ مُلْتَجَا ،
 وَلِلْمُؤْمِنِينَ مُرْتَجَى ، وَلِلْأَهْلِ رُكْنًا ، وَلِلْإِخْوَانِ
 رِدْءًا . قَدْ أَرَدْتُكَ لِأَمْرِ خَطَرُهُ خَوْفٌ ، وَإِصْلَاحُهُ
 مِنْ أَعْظَمِ الْمَعْرُوفِ ، وَلَئِنْ لَمْ يَنْدَمِلْ جُرْحُهُ
 بِيَسَارِكَ وَرَفِقِكَ ، وَلَمْ تَجِبْ^(١) حَيْثَهُ بِرُقِيَّتِكَ ،
 وَقَعَ الْيَأْسُ ، وَأَعْضَلَ الْبَأْسُ ، وَاحْتَبَجَ بَعْدَ

(١) تجب تقطع

ذَلِكَ إِلَى مَا هُوَ أَمْرٌ مِنْهُ وَأَعْلَقُ ، وَأَعْسَرُ
 مِنْهُ وَأَعْلَقُ ، وَاللَّهُ أَسْأَلُ تَمَامَهُ بِكَ ، وَنِظَامَهُ
 عَلَى يَدَيْكَ ، فَتَأْتِ (١) لَهُ — أَبَا عُيَيْدَةَ — وَتَلَطَّفُ
 فِيهِ ، وَأَنْصَحُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ ، وَلِهَذِهِ الْعِصَابَةِ غَيْرِ آلٍ جُهْدًا ، وَلَا قَالٍ
 حَمْدًا ، وَاللَّهُ كَالِئُكَ وَنَاصِرُكَ ، وَهَادِيكَ وَمُبَصِّرُكَ ،
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ . إِمِضْ إِلَى عَلِيٍّ وَاخْفِضْ لَهُ جَنَاحَكَ ،
 وَاغْضُضْ عِنْدَهُ صَوْتَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سُلَالَةُ أَبِي طَالِبٍ ،
 وَمَكَانُهُ مِمَّنْ فَقَدْنَاهُ بِالْأُمْسِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ —
 مَكَانَهُ ، وَقُلْ لَهُ : الْبَحْرُ مَغْرَقَةٌ ، وَالْبَرُّ مَفْرَقَةٌ ،
 وَالْجَوُّ أَكْلَفُ (٢) ، وَاللَّيْلُ أَغْدَفُ (٣) ، وَالسَّمَاءُ

(١) تَأْتِي فَلَانٌ لِلْأَمْرِ: تَهَيَّأْ لَهُ وَأَتَاهُ مِنْ وَجْهِهِ (٢) الْجَوُّ أَكْلَفُ:
 أَسْوَدُ تَعْلُوهُ حِمْرَةٌ (٣) وَاللَّيْلُ أَغْدَفُ: مُرْخٍ سَدُولُهُ مَظْلَمٌ

جَلَوَاءُ^(١) ، وَالْأَرْضُ صَلْعَاءُ^(٢) ، وَالصُّعُودُ مُتَعَذِّرٌ ،
 وَالْهَبُوطُ مُتَعَسِّرٌ ، وَالْحَقُّ عَطُوفٌ رَعُوفٌ ، وَالْبَاطِلُ
 عَنُوفٌ عَسُوفٌ ، وَالْعَجَبُ قَدَاحَةُ الشَّرِّ ، وَالضَّغْنُ
 رَائِدُ الْبَوَارِ ، وَالتَّعْرِيزُ شَجَارُ الْفِتْنَةِ ، وَالْقِحَّةُ ثَقُوبُ
 الْعَدَاوَةِ ، وَهَذَا الشَّيْطَانُ مُتَكِيٌّ عَلَى شِمَالِهِ ، مُتَمِيلٌ
 بِيَمِينِهِ ، نَافِخٌ حِضْنِيهِ^(٣) لِأَهْلِهِ ، يَنْتَظِرُ الشَّاتِ
 وَالْفُرْقَةَ ، وَيَدِبُ بَيْنَ الْأُمَّةِ بِالشَّحْنَاءِ وَالْعَدَاوَةِ ،
 عِنَادًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوَّلًا ، وَلِلْأَدَمِ ثَانِيًا ، وَلِنَبِيِّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَدِينِهِ ثَالِثًا ، يُوسِسُ بِالْفُجُورِ ، وَيُدْلِي
 بِالْغُرُورِ ، وَيَمْنِي أَهْلَ الشَّرُّورِ ، وَيُوحِي إِلَى أَوْلِيَائِهِ
 زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا بِالْبَاطِلِ ، دَابًّا لَهُ مُنْذُ كَانَ عَلَى

(١) السماء جلواء : مصححة (٢) الأرض صلعاء : خالية لا شجر فيها

(٣) نافع حضيئه : أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر

عَهْدِ أَيْنَا آدَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَادَةً لَهُ
 مُنْذُ أَهَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سَالِفِ الدَّهْرِ ، لَا مَنَجِي
 مِنْهُ إِلَّا بَعْضُ النَّاجِذِ عَلَى الْحَقِّ ، وَغَضَّ الطَّرْفِ عَنْ
 الْبَاطِلِ ، وَوَطَّءَ هَامَةً عَدُوَّ اللَّهِ بِالْأَشَدِّ فَلْأَشَدِّ ،
 وَالْأَكْثَرِ فَالْأَكْثَرِ ، وَإِسْلَامِ النَّفْسِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
 فِي ابْتِغَاءِ رِضَاهُ . وَلَا بُدَّ الْآنَ مِنْ قَوْلٍ يَنْفَعُ
 إِذَا ضَرَّ الشُّكُوتُ وَخِيفَ غَيْبُهُ . وَلَقَدْ أَرْشَدَكَ
 مَنْ أَفَاءَ^(١) ضَالَّتَكَ ، وَصَافَاكَ مَنْ أَحْيَا مَوَدَّتَهُ
 بِعِتَابِكَ ، وَأَرَادَكَ لَكَ الْخَيْرَ مَنْ أَثَرَ الْبَقَاءَ مَعَكَ ،
 مَا هَذَا الَّذِي تُسَوِّلُ لَكَ نَفْسُكَ ، وَيُدَوِّي بِهِ
 قَلْبُكَ ، وَيَلْتَوِي عَلَيْهِ رَأْيُكَ ، وَيَتَخَاوُسُ^(٢)

(١) أفاء : أرجع (٢) يتخاوض : يغض من بصره

دُونَهُ طَرْفُكَ ، وَيَسْرِي فِيهِ ظَعْنُكَ ، وَيَتَرَادُّ مَعَهُ
 نَفْسُكَ ، وَتَكْثُرُ عِنْدَهُ صُعْدَاؤُكَ ، وَلَا يَفِيضُ
 بِهِ لِسَانُكَ ؟ أَعْجَمَةٌ بَعْدَ إِفْصَاحٍ ؟ أَتَلْيِيسُ بَعْدَ
 إِيْضَاحٍ ؟ أَدِينُ غَيْرُ دِينِ اللَّهِ ؟ أَخْلُقُ غَيْرُ خَلْقِ
 الْقُرْآنِ ؟ أَهْدَى غَيْرُ هُدَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ ؟ أَمْثَلِي « تَمْشِي »^(١) لَهُ الضَّرَاءُ وَتَدِبُ لَهُ
 الْحَمَرُ « ؟ أَمْ مِثْلَكَ يَنْقَبِضُ عَلَيْهِ الْفَضَاءُ ،
 وَيُكْسَفُ فِي عَيْنِهِ الْقَمَرُ ؟ مَا هَذِهِ الْقَعْقَعَةُ
 بِالشَّانِ^(٢) ؟ وَمَا هَذِهِ الْوَعُوَّةُ بِاللِّسَانِ ؟ إِنَّكَ
 وَاللَّهِ جِدٌّ عَارِفٌ بِاسْتِجَابَتِنَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ

(١) الضراء : الاستخفاء . والحمر : ما رواك من شجر . وهو
 مثل يضرب لمن يخدع صاحبه (٢) الشنان جمع شن : وهو القرية الخلق
 الصغيرة . والقعقة الصوت يريد أنه لا يخوف بمثل هذا

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبِخُرُوجِنَا عَنْ أَوْطَانِنَا
 وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَحِبَّتِنَا ، هِجْرَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ ، وَلُصْرَةً لِدِينِهِ ، فِي زَمَانٍ أَنْتَ فِيهِ فِي كِنِّ
 الصَّبَا ، وَخِذِرِ الْقَرَارَةِ ، وَعُفُوفَانِ الشَّبِيَةِ ،
 غَافِلٌ عَمَّا يُشِيبُ وَيُرِيبُ ، لَا تَعِي مَا يُرَادُ
 وَيُشَادُ ، وَلَا تُحْصِلُ مَا يُسَاقُ وَيُقَادُ ، سِوَى
 مَا أَنْتَ جَارٍ عَلَيْهِ إِلَى غَايَتِكَ الَّتِي إِلَيْهَا
 عُدِلَ بِكَ ، وَعِنْدَهَا حُطٌّ رَحْلِكَ ، غَيْرَ
 مَجْهُولِ الْقَدْرِ ، وَلَا مَجْهُودِ الْفَضْلِ . وَنَحْنُ
 فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ نُعَانِي أَحْوَالًا تُزِيلُ الرَّوَاسِيَ ،
 وَنُقَاسِي أَهْوَالًا تُشِيبُ النَّوَاصِيَ ، خَائِضِينَ غِمَارَهَا ،

رَاكِبِينَ تَيَّارَهَا ، تَجَرَّعُ صَابَهَا ، وَنَشْرَجُ^(١) عِيَابَهَا ،
وَنُحْكِمُ أَسَاسَهَا ، وَنُبْرِمُ أَمْرَاسَهَا^(٢) ، وَالْعِيُونَ تُحْدِجُ
بِالْحَسَدِ ، وَالْأَنْوُفُ تَقْطِئُ بِالْكِبْرِ ، وَالصُّدُورُ
تَسْتَعِرُّ بِالْغَيْظِ ، وَالْأَعْنَاقُ تَتَطَاوُلُ بِالْفَخْرِ ، وَالشِّفَارُ
تُسْحَدُ بِالْمَكْرِ ، وَالْأَرْضُ تَمِيدُ بِالْخَوْفِ ، وَلَا تَنْتَظِرُ
عِنْدَ الْمَسَاءِ صَبَاحًا ، وَلَا عِنْدَ الصَّبَاحِ مَسَاءً وَلَا تُدْفَعُ
فِي نَحْرِ أَمْرٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَحْسُوَ الْمَوْتَ دُونَهُ ، وَلَا نَبْلُغُ
مُرَادًا إِلَّا بَعْدَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْحَيَاةِ عِنْدَهُ ، فَادِينِ فِي
جَمِيعِ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَبِ
وَالْأُمِّ ، وَالْخَالِ وَالْعَمِّ ، وَالْمَالِ وَالنَّشَبِ ، وَالسَّبَدِ^(٣)

(١) نشرج عيابها : تنضدها ونضم بعضها إلى بعض والعياب جمع
عيبة وهي زنيل من آدم تجعل فيه الثياب (٢) جمع مرس ككتف وهو
الجليل (٣) السبد : الشعر . والبد : الصوف

وَاللَّبْدِ ، وَالْهَلَّةِ^(١) ، وَالْبَلَّةِ . بِطِيبِ أَنْفُسٍ ، وَقُرَّةِ أَعْيُنٍ
وَرَحْبِ أَعْطَانٍ ، وَثَبَاتِ عَزَائِمٍ ، وَصِحَّةِ عُقُولٍ ،
وَطَلَّاقَةِ أَوْجِهٍ ، وَذَلَّاقَةِ أَلْسُنٍ . هَذَا ، مَعَ خَفِيَّاتِ
أَسْرَارٍ ، وَمَكْنُونَاتِ أَخْبَارٍ ، كُنْتَ عَنْهَا غَافِلًا ،
وَلَوْ لَا سِنُّكَ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاقِلًا ، كَيْفَ
وَفُؤَادُكَ مَشْهُومٌ^(٢) ، وَعُودُكَ مَعْجُومٌ ؟ وَالْآنَ قَدْ
بَلَغَ اللَّهُ بِكَ ، وَأَنْهَضَ الْخَيْرَ لَكَ ، وَجَعَلَ مُرَادَكَ
بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَعَنْ عِلْمٍ أَقُولُ مَا تَسْمَعُ ، فَارْتَقِبْ
زَمَانَكَ ، وَقَلِّصْ أُرْدَانَكَ ، وَدَعْ التَّقَعُّسَ وَالتَّجَسُّسَ
لِمَنْ لَا يَظْلَعُ لَكَ إِذَا خَطَا ، وَلَا يَتَزَحَّزَحُ عَنْكَ
إِذَا عَطَا فَلَا مَرُ غَضٍّ ، وَالنَّفُوسُ فِيهَا مَضٌ . وَإِنَّكَ

(١) يقال جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة أى لم يأتنا بشيء . فاهلته من
الفرح والاستهلال ، والبلّة من البلل والخير (٢) مشهوم : ذكى متوقد

أَدِيمَ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلَا تَحْلَمُ^(١) جَلَابًا ، وَسَيْفُهَا الْعَضْبُ ،
 فَلَا تَنْبُ اغْوَجَا ، وَمَاؤُهَا الْعَذْبُ فَلَا تَحُلُ اجَا ،
 وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، فَقَالَ لِي : « يَا أَبَا بَكْرٍ هُوَ لِمَنْ
 يَرْغَبُ عَنْهُ . لَا لِمَنْ يُجَاحِشُ^(٢) عَلَيْهِ ، وَلِمَنْ يَتَضَاءَلُ
 عَنْهُ لَا لِمَنْ يَتَنَفَّجُ^(٣) إِلَيْهِ ، هُوَ لِمَنْ يُقَالُ هُوَ لَكَ ،
 لَا لِمَنْ يَقُولُ هُوَ لِي »

وَلَقَدْ شَاوَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فِي الصَّهْرِ ، فَذَكَرَ فِثْيَانًا مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقُلْتُ :
 أَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَلِيٍّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 : إِنِّي أَكْرَهُ لِفَاطِمَةَ مِيعَةَ شَبَابِهِ ، وَحَدَاثَةِ

(١) حلم الجلد (من باب فرح) : فسد وثقب (٢) أى يطلبه
 ويدافع عنه (٣) يتطلع إليه ويفتخر به

سِنَّهُ . فَقُلْتُ لَهُ : مَتَى كَنَفْتُهُ يَدُكَ ، وَرَعْتُهُ عَيْنُكَ
 حَقَّتْ بِهِمَا الْبَرَكَهٗ ، وَأُسْبِغَتْ عَلَيْهِمَا النِّعْمَةُ ، مَعَ
 كَلَامٍ كَثِيرٍ خَاطَبْتُهُ بِهِ رَغْبَةً فِيكَ ، وَمَا كُنْتُ
 عَرَفْتُ مِنْكَ فِي ذَلِكَ لَا حَوْجَاءَ وَلَا لَوْجَاءَ ^(١) ،
 فَقُلْتُ مَا قُلْتُ وَأَنَا أَرَى مَكَانَ غَيْرِكَ ، وَأَجِدُ
 رَاحَةً سِوَاكَ ؛ وَكُنْتُ إِذْ ذَاكَ خَيْرًا لَكَ مِنْكَ الْآنَ لِي .
 وَلَئِنْ كَانَ عَرَضَ بِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
 هَذَا الْأَمْرِ ، فَلَمْ يَكُنْ مُعْرِضًا عَنْ غَيْرِكَ : وَإِنْ كَانَ قَالَ
 فِيكَ فَمَا سَكَتَ عَنْ سِوَاكَ ؟ وَإِنْ تَلَجَّلَجَ فِي نَفْسِكَ
 شَيْءٌ فَهَلُمَّ ، فَالْحُكْمُ مَرْضَى ، وَالصَّوَابُ مَسْمُوعٌ ، وَالْحَقُّ
 مُطَاعٌ . وَلَقَدْ نُقِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أى ما كنت عرفت منك شيئاً

إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ عَنْ هَذِهِ الْعِصَابَةِ رَاضٍ ،
وَعَلَيْهَا حَذِرٌ ، يَسْرُهُ مَا سَرَّهَا وَيَسُوئُهُ مَا سَاءَهَا ،
وَيَكِيدُهُ مَا كَادَهَا وَيُرْضِيهِ مَا أَرْضَاهَا ، وَيُسْخِطُهُ
مَا أَسْخَطَهَا . أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَدْعُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ
وَأَقَارِبِهِ وَسُجَرَائِهِ ^(١) ، إِلَّا أَبَانَهُ بِفَضِيلَةٍ ، وَخَصَّهُ بِمِزْيَةٍ ،
وَأَفْرَدَهُ بِحَالَةٍ ! أَتَظُنُّ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ الْأُمَّةَ
سُدًى بَدَدًا ، عَبَاهِلَ ^(٢) مَبَاهِلَ ، طَلَا حَتَّى مَفْتُونَةٌ بِالْبَاطِلِ
مَغْبُونَةٌ عَنِ الْحَقِّ ، لَا رَأْيَ وَلَا ذَائِدَ ، وَلَا ضَابِطَ وَلَا
حَائِطَ ، وَلَا سَاقِي وَلَا وَاقِي ، وَلَا هَادِي وَلَا حَادِي !
كَلَّا ! وَاللَّهِ مَا أُشْتَاقَ إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى وَلَا سَأَلَهُ الْمَصِيرَ
إِلَى رِضْوَنِهِ وَقُرْبِهِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ ضَرَبَ الْمُدَى ،

(١) سِجْرَائِهِ : أَصْدِقَائِهِ (٢) عَبَاهِلَ مَبَاهِلَ (بِالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ فِي

الْكَلِمَتَيْنِ) : مَهْمَلَةٌ

وَأَوْضَحَ الْهُدَى ، وَأَبَانَ الصَّوَى ^(١) ، وَأَمَّنَ الْمَسَالِكَ
وَالْمَطَارِحَ ، وَسَهَّلَ الْمَبَارِكَ وَالْمَهَائِيعَ ^(٢) ، وَإِلَّا بَعْدَ
أَنْ شَدَخَ يَافُوخَ ^(٣) الشَّرِّ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَشَرَمَ وَجْهَ
النَّفَاقِ لَوَجْهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَجَدَعَ أَنْفَ الْفِتْنَةِ فِي
ذَاتِ اللَّهِ ، وَتَقَلَّ فِي عَيْنِ الشَّيْطَانِ بِعَوْنِ اللَّهِ ،
وَصَدَعَ عِمْلَ فِيهِ وَيَدِهِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

وَبَعْدُ ، فَهَؤُلَاءِ ^(٤) الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ عِنْدَكَ
وَمَعَكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ وَدَارٍ جَامِعَةٍ ، إِنْ أَسْتَقَالُونِي
لَكَ وَأَشَارُوا عِنْدِي بِكَ ، فَأَنَا وَاضِعٌ يَدِي فِي يَدِكَ ،

(١) الصوى : الاعلام (٢) المهائيع : الطرق (٣) اليافوخ
(يهمز ولا يهمز) : جزء الرأس الذي لا يتحرك في الطفل (٤) في صبح
الأعشى : « فهذه »

وَصَارَتْ إِلَى رَأْيِهِمْ فِيكَ . وَإِنْ تَكُنِ الْآخِرَى فَادْخُلْ
فِيمَا دَخَلَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَكُنْ الْعَوْنَ عَلَى مَصَالِحِهِمْ ،
وَالْفَاتِحَ لِمَغَالِقِهِمْ ، وَالْمُرْشِدَ لِضَالَّتِهِمْ ، وَالرَّادِعَ
لِغَوَايَتِهِمْ ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ،
وَالْتَّنَاصُرِ عَلَى الْحَقِّ . وَدَعْنَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
بِصُدُورٍ بَرِيئَةٍ مِنَ الْغِلِّ ، وَنَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى بِقُلُوبٍ
سَلِيمَةٍ مِنَ الضَّغْنِ .

وَبَعْدُ ، فَالنَّاسُ ثَمَامَةٌ فَارْفُقْ بِهِمْ وَأَحْنُ عَلَيْهِمْ
وَلِنْ لَهُمْ ، وَلَا تَشْقِ نَفْسَكَ بِنَا خَاصَّةٍ فِيهِمْ ، وَاتْرُكْ
نَاجِمَ الْحَقْدِ حَصِيدًا ، وَطَائِرَ الشَّرِّ وَاقِعًا ، وَبَابَ
الْفِتْنَةِ مُغْلَقًا ، فَلَا قَالَ وَلَا قِيلَ ، وَلَا لَوْمْ وَلَا تَبِيعَ
وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ شَهِيدٌ ، وَبِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ بِصِيرٌ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : فَلَمَّا تَأَهَّبْتُ لِلنُّهُوضِ ، قَالَ
 عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كُنْ لَدَى الْبَابِ هُنِيهَةً ، فَلِيَ
 مَعَكَ دَوْرٌ مِنَ الْقَوْلِ ؛ فَوَقَفْتُ وَمَا أَذْرِي مَا كَانَ
 بَعْدِي ، إِلَّا أَنَّهُ حَقَنِي بَوَجْهِ يَنْدَى تَهْلَلًا ، وَقَالَ لِي :
 قُلْ لِعَلِّي : الرُّقَادُ مُحَامَةٌ ، وَالْهَوَى مَقْحَمَةٌ ، وَمَا
 مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ، وَحَقٌّ مُشَاعٌ أَوْ مَقْسُومٌ ،
 وَنَبَأٌ ظَاهِرٌ أَوْ مَكْتُومٌ ؛ وَإِنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ
 مَنْ مَنَعَ الشَّارِدَ تَأَلُّفًا وَقَارِبَ الْبَعِيدِ تَلَطُّفًا ، وَوَزَنَ
 كُلَّ شَيْءٍ بِمِيزَانِهِ ، وَلَمْ يَخْلُطْ خُبْرَهُ بِعِيَانِهِ ،
 وَلَمْ يَجْعَلْ قِطْرَهُ مَكَانَ شِبْرِهِ ، دِينًا كَانَ أَوْ دُنْيَاً ،
 ضَلَالًا كَانَ أَوْ هُدًى ، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ مُسْتَعْمَلٍ
 فِي جَهْلٍ ، وَلَا خَيْرَ فِي مَعْرِفَةٍ مَشُوبَةٍ بِنُكْرٍ .

وَلَسْنَا كَجِلْدَةٍ رُفِعَ^(١) الْبَعِيرِ بَيْنَ الْعِجَانِ وَالذَّنَبِ ،
وَكُلُّ صَالٍ فَبِنَارِهِ ، وَكُلُّ سَيِّئٍ فَلِى قَرَارِهِ . وَمَا
كَانَ سُكُوتُ هَذِهِ الْعِصَابَةِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ لِعِىٍّ
وَشَيٍّْ^(٢) ، وَلَا كَلَامُهَا الْيَوْمَ لِفَرَقٍ أَوْ رَفَقٍ .
وَقَدْ جَدَعَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْفَ
كُلِّ ذِي كِبَرٍ ، وَقَصَمَ ظَهَرَ كُلِّ جَبَّارٍ ، وَقَطَعَ
لِسَانَ كُلِّ كَذُوبٍ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .
مَا هَذِهِ الْخُنْزَوَانَةُ^(٣) الَّتِي فِي فَرَاشِ رَأْسِكَ ! مَا هَذَا
الشَّجَا الْمُعْتَرِضُ فِي مَدَارِجِ أَنْفَاسِكَ ! مَا هَذِهِ الْقَذَاةُ
الَّتِي تَغَشَّتْ نَظْرَكَ ! وَمَا هَذِهِ الْوَحَرَةُ^(٤) الَّتِي أَكَلَتْ

(١) الرفع : أصل الفخذ من باطن . والعجان : الاست . يريد أن
منزلتهم بين الأحياء والعشائر ليست حقيرة مهينة (٢) الشى بالكسر
إتباع للعى (٣) الخنزوانة : الكبر (٤) الوحرة (بالتحريك)
والحقد العداوة والشراسيف : جمع شرسوف والشرسوف مقط الضلع

شَرَّاسِيفِكَ ! وَمَا هَذَا الَّذِي لَبِسْتَ بِسَبَبِهِ جِلْدَ النَّمْرِ
 وَأَشْتَمَلْتَ عَلَيْهِ بِالشَّحْنَاءِ وَالنُّكْرِ ! وَلَسْنَا فِي كَسْرَوِيَّةٍ
 كَسَرَى ، وَلَا فِي قَيْصَرِيَّةٍ قَيْصَرَ ! تَأْمَلُ لِأَخْوَانِ
 فَارِسَ وَأَبْنَاءَ الْأَصْفَرِ ! قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ جَزْرًا لِسُيُوفِنَا ،
 وَدَرِيئَةً لِرِمَاحِنَا ، وَمَرْمَى لِبَطْنَانِنَا ، وَتَبَعًا لِسُلْطَانِنَا ،
 بَلْ نَحْنُ فِي نُورِ بُيُوتِهِ ، وَضِيَاءَ رِسَالَتِهِ ، وَثَمَرَةَ
 حِكْمَتِهِ ، وَآثَرَةَ رَحْمَتِهِ ، وَعُنْوَانِ نِعْمَتِهِ ، وَظِلِّ
 عِصْمَتِهِ ، بَيْنَ أُمَّةٍ مَهْدِيَّةٍ بِالْحَقِّ وَالصِّدْقِ ، مَأْمُونَةٍ
 عَلَى الرَّثْقِ وَالْفَتَقِ ، لَهَا مِنَ اللَّهِ قَلْبُ أَبِيٍّ ، وَسَاعِدُ
 قَوِيٍّ ، وَيدُ نَاصِرَةٍ ، وَعَيْنُ بَاصِرَةٍ . أَتَظُنُّ ظَنًّا
 يَا عَلِيُّ أَنْ أَبَا بَكْرٍ وَثَبَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ
 مُفْتَاتًا عَلَى الْأُمَّةِ ، خَادِمًا لَهَا ، أَوْ مُتَسَلِّطًا عَلَيْهَا !

أَتَرَاهُ حَلَّ عُقُودَهَا ، وَأَحَالَ عُقُودَهَا ! أَتَرَاهُ جَعَلَ
 نَهَارَهَا لَيْلًا ، وَوَزَنَهَا كَيْلًا ، وَيَقْظَتَهَا رُقَادًا ،
 وَإِصْلَاحَهَا فُسَادًا ! لَا وَاللَّهِ ! سَلَا عَنْهَا فَوَهِتْ
 لَهُ ، وَتَطَامَنَ لَهَا فَلَمَّصَتْ بِهِ ، وَمَالَ عَنْهَا فَمَالَتْ
 إِلَيْهِ ، وَأُشْمِزَّ دُونَهَا ، فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ، حَبْوَةً
 حَبَاهُ اللَّهُ بِهَا ، وَعَاقِبَةً بَلَّغَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا ، وَنِعْمَةً
 سَرَبَلَهُ جَمَالَهَا ، وَيَدُّهُ أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ شُكْرَهَا ،
 وَأُمَّةٌ نَظَرَ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِخَلْقِهِ ، وَأَرْأَفُ
 بِعِبَادِهِ ، يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرُ . وَأَنْكَ بِحَيْثُ
 لَا يُجْهَلُ مَوْضِعُكَ مِنْ يَتَى النُّبُوَّةِ ، وَمَعْدِنِ
 الرِّسَالَةِ ، وَلَا يُجْحَدُ حَقُّكَ فِيمَا أَتَاكَ اللَّهُ . وَلَكِنْ
 لَكَ مَنْ يُزَاحِمُكَ بِمَنْكِبِ أَضْخَمٍ مِنْ مَنْكِبِكَ ،

وَقُرْبِ أَمْسٍ مِنْ قَرَاتِكَ ، وَسِنِّ أَعْلَى مِنْ
 سِنِّكَ ، وَشَيْبَةِ أَرْوَعٍ مِنْ شَبِيبَتِكَ ، وَسَيَادَةِ لَهَا
 أَصْلٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَفَرَعٌ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمَوَاقِفَ
 لَيْسَ لَكَ فِيهَا جَمَلٌ وَلَا نَاقَةٌ ، وَلَا تُذَكَّرُ مِنْهَا
 فِي مُقَدِّمَةٍ وَلَا سَاقَةٍ ، وَلَا تَضْرِبُ فِيهَا بِذِرَاعٍ وَلَا
 أَصْبَعٍ ، وَلَا تَخْرُجُ مِنْهَا بِبَازِلٍ وَلَا هُبُوعٍ^(١) . وَلَمْ يَزَلْ
 أَبُو بَكْرٍ حَبَّةَ قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَعِلَاقَةَ نَفْسِهِ وَعَيْبَةَ سِرِّهِ ، وَمَفْرَعَ رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ ،
 وَرَاحَةَ كَفِّهِ ، وَمَرْمَقَ طَرْفِهِ وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَحْضَرِ الصَّادِرِ
 وَالْوَارِدِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، شَهْرَتُهُ مُغْنِيَةٌ عَنِ
 الدَّلِيلِ عَلَيْهِ . وَلَعُمْرِي إِنَّكَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ

(١) البازل : الجمل القوي الذي دخل في سنته التاسعة . والهبع :
 الفصيل الذي ينتج في الصيف فيكون ضعيفاً

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَابَةً ، وَلَكِنَّهُ أَقْرَبُ مِنْكَ قُرْبَةً ،
وَالْقَرَابَةُ لَحْمٌ وَدَمٌ ، وَالْقُرْبَةُ نَفْسٌ وَرُوحٌ . وهذا
فَرْقٌ عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ . وَلِذَلِكَ صَارُوا إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ .
وَمَهْمَا شَكَّكَ فِي ذَلِكَ ، فَلَا تَشُكَّ أَنْ يَدَّ اللَّهُ مَعَ
الْجُمَاعَةِ ، وَرِضْوَانَهُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ ، فَادْخُلْ فِيمَا هُوَ
خَيْرٌ لَكَ الْيَوْمَ وَأَنْفَعُ لَكَ غَدًا ، وَالْفِظْ مِنْ فَيْكَ
مَا يَلْقَى بِلَهَاتِكَ ، وَأَنْفُثْ سَخِيمَةَ صَدْرِكَ عَنْ ثِقَاتِكَ ،
فَإِنْ يَكُ فِي الْأَمَدِ طَوْلٌ ، وَفِي الْأَجَلِ فُسْحَةٌ ،
فَسَتَأْكُلُهُ مَرِيئًا أَوْ غَيْرَ مَرِيءٍ ، وَسَتَشْرِبُهُ هَنِئًا أَوْ
غَيْرَ هَنِئٍ ، حِينَ لَا رَادَّ لِقَوْلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ آيسًا
مِنْكَ ، وَلَا تَابِعَ لَكَ إِلَّا مَنْ كَانَ طَامِعًا فَيْكَ ،
يَمُضُ^(١) إِهَابَكَ ، وَيَعْرُكُ^(٢) أَدِيمَكَ ، وَيُزِرِّي عَلَى

(١) يمض أهابك : يحرق جلدك (٢) يعرك : يدلك

هَذِيكَ . هُنَالِكَ تَقْرَعُ السِّنَّ مِنْ نَدَمٍ ، وَتَجْرَعُ الْمَاءَ
 مَمْرُوجًا بِدَمٍ ، وَحِينَئِذٍ تَأْسَى عَلَى مَا مَضَى مِنْ عُمْرِكَ ،
 وَدَارِجٌ قُوتِكَ ، فَتَوَدُّ أَنْ لَوْ سُقِيتَ بِالْكَأْسِ الَّتِي
 أَيْتَهَا ، وَرَدِدْتَ إِلَى حَالَتِكَ الَّتِي اسْتَغْوَيْتَهَا .
 وَلِلَّهِ تَعَالَى فِينَا وَفِيكَ أَمْرٌ هُوَ بِالْغُهِ ، وَغَيْبٌ هُوَ
 شَاهِدُهُ ، وَعَاقِبَةٌ هُوَ الْمَرْجُوءُ لِسَرَّائِهَا وَضَرَّائِهَا ،
 وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ، الْغَفُورُ الْوَدُودُ .

قال أبو عبيدة : فتمشيتُ مُتَزَمِّلاً أَنْوَهُ كَأَنَّمَا
 أَخْطُو عَلَى رَأْسِي ، فَرَقًّا مِنَ الْفُرْقَةِ ، وَشَفَقًا عَلَى
 الْأُمَّةِ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خَلَاءٍ
 فَأَبْثَثْتُهُ بَشَى كُلَّهُ ، وَبَرِئْتُ إِلَيْهِ مِنْهُ ، وَرَفَقْتُ بِهِ .
 فَمَا سَمِعَهَا وَوَعَاَهَا ، وَسَرَتْ فِي مَفَاصِلِهِ حُمَيَّاهَا ،

قال : « حَلَّتْ مُعْلَوِّطَةٌ ^(١) ، وَوَلَّتْ مُخْرَوِّطَةٌ ^(٢) » ،
وَأَنشَأَ يَقُولُ :

إِحْدَى لِيَا لَيْكَ فِهَيْسَى ^(٣) هَيْسَى

لَا تَنْعَمِ اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسَى

نَعَمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ أَكَلْتُ هَذَا فِي أَنْفُسِ الْقَوْمِ ،
وَيُحْسِنُونَ بِهِ ، وَيَضْطَغِنُونَ ^(٤) عَلَيَّ ! قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ :
فَقُلْتُ : لَا جَوَابَ لَكَ عِنْدِي ، إِنَّمَا أَنَا قَاضٍ حَقَّ
الدِّينِ ، وَرَاتِقٌ فَتَقَ الْمُسْلِمِينَ ، وَسَادٌّ ثُلَمَةَ الْأُمَّةِ ،
يَعْلَمُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ جُلْجُلَانٍ ^(٥) قَلْبِي ، وَقَرَارَةِ نَفْسِي
فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَاللَّهِ مَا كَانَ قُعُودِي

(١) معلوطة : مفتحة من غير روية (٢) مخروطة : مسرعة
(٣) هيسى : سيري أى سير كان (٤) أى يطمون على الضغن
وهو الحقد (٥) جلجلان قلبي : أى حبه

فِي كَنْ هَذَا الْبَيْتِ قَصْدًا لِلْخِلَافِ ، وَلَا إِنْكَارًا
لِلْمَعْرُوفِ ، وَلَا زَرَايَةً عَلَى مُسْلِمٍ ، بَلْ لِمَا قَدْ وَقَدَنِي
بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فِرَاقِهِ ،
وَأُودَعَنِي مِنَ الْحُزَنِ لِفَقْدِهِ . وَذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَشْهَدْ
بَعْدَهُ مَشْهَدًا إِلَّا جَدَّدَ عَلَيَّ حُزْنًا وَذَكَرَنِي شَجَبًا .
وَأَنِ الشَّوْقَ إِلَى اللَّحَاقِ بِهِ كَافٍ عَنِ الطَّمَعِ فِي غَيْرِهِ .
وَقَدْ عَكَفْتُ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ أَنْظُرُ فِيهِ ، وَأَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ
رَجَاءُ ثَوَابٍ مُعَدٍّ لِمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ عَمَلَهُ ، وَأَسْلَمَ لِعَالَمِهِ
وَمَشِيعَتِهِ ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ . عَلَى أَنِّي مَا عَلِمْتُ أَنَّ
التَّظَاهَرَ عَلَى وَاقِعٍ ، وَلَا عَنِ الْحَقِّ الَّذِي سَيَقُ إِلَى
دَافِعٍ . وَإِذْ قَدْ أُفْعِمَ الْوَادِي بِي ، وَحُشِدَ النَّادِي مِنْ
أَجْلِي ، فَلَا مَرْحَبًا بِمَا سَاءَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ

وَسَرَرَنِي . وَفِي النَّفْسِ كَلَامٌ لَوْ لَا سَابِقُ عَقْدٍ وَسَالِفُ
عَهْدٍ ، لَشَفِيتُ غِيْظِي بِخِنْصَرِي وَبِنَصْرِي ، وَخُضْتُ
لِحَبَّتِهِ بِأَخْصِي وَمَفْرِقِي ، وَلَكِنِّي مُلْجَمٌ ، إِلَى أَنْ أَلْقَى
اللَّهَ رَبِّي ، وَعِنْدَهُ أُحْتَسِبُ مَا نَزَلَ بِي وَإِنِّي غَادٍ
إِلَى جَمَاعَتِكُمْ ، فَبَيَّاعٌ صَاحِبِكُمْ ، صَابِرٌ عَلَى مَا
سَاءَنِي وَسَرَّكُمْ ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : فَعُدْتُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقَوْلَ عَلَى غَرِّهِ (١) وَلَمْ أَخْتَزِلْ شَيْئًا
مِنْ حُلُوهِ وَمُرِّهِ ، وَبَكَرْتُ غُدُوَّةً إِلَى الْمَسْجِدِ ،
فَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ يَوْمَئِذٍ وَإِذَا عَلِيٌّ مُخْتَرِقُ الْجَمَاعَةِ إِلَى
أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَبَايَعَهُ وَقَالَ خَيْرًا ، وَوَصَفَ

(١) على غره : أى كما هو وكما قص على

حَمِيلاً ، وَجَلَسَ زَمِيئاً^(١) وَاسْتَأْذَنَ لِلْقِيَامِ فَمَضَى وَتَبِعَهُ
عُمَرُ مُكْرِمًا لَهُ ، مُسْتَأْثَرًا لِمَا عِنْدَهُ

فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا قَعَدْتُ عَنْ صَاحِبِكُمْ
كَارْهًا ، وَلَا أَتَيْتُهُ فَرَقًا ، وَلَا أَقُولُ مَا أَقُولُ تَعَلَّةً :
وَإِنِّي لَأَعْرِفُ مُنْتَهَى طَرَفِي ، وَمَحَطَّ قَدَمِي ، وَمَنْزَعَ
قَوْسِي ، وَمَوْقِعَ سَهْمِي ، وَلَكِنْ قَدْ أَزَمْتُ عَلَى
فَأْسِي^(٢) ثَقَّةً بَرِّئِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَفَيْكَ غَرْبَكَ ،
وَاسْتَوْقِفْ سِرَّكَ ، وَدَعْ الْعِصَى بِلِحَائِهَا ، وَالذَّلَّاءَ
عَلَى رِشَائِهَا . فَإِنَّا مِنْ خَلْفِهَا وَوَرَائِهَا ، إِن قَدَحْنَا

(١) زَمِيئاً : حَلِيماً وَقَوْرًا (٢) يُقَالُ : أَزَمَ الْفَرَسَ عَلَى فَأْسِ الْجَبَامِ
إِذَا عَضَّهَا وَقَبَضَ عَلَيْهَا . وَفَأْسُ الْجَبَامِ : الْحَدِيدَةُ الْمُعْتَرِضَةُ لَهُ فِي الْحَنَكِ .
يُرِيدُ أَنَّهُ أَلْجَمَ نَفْسَهُ ثَقَّةً الْخ

أُورَيْنَا ، وَإِنْ مَتَحْنَا أَرْوَيْنَا ، وَإِنْ قَرَحْنَا أَدْمَيْنَا ،
وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَمَاثِيْلَكَ الَّتِي لَغَزْتَ بِهَا عَنْ صَدْرِ
أَكْلِ بِالْجَوَى ، وَلَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ عَلَى مَقَالَتِكَ
مَا إِنْ سَمِعْتَهُ نَدِمْتَ عَلَى مَا قُلْتَ . وَزَعَمْتَ أَنَّكَ
فِي كِنِّ يَتِيكَ لِمَا وَقَدَكَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَقْدِهِ ، فَهُوَ وَقَدَكَ وَلَمْ يَقِذْ غَيْرَكَ !
بَلْ مُصَابُهُ أَعْظَمُ وَأَعْمُ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّ مِنْ حَقِّ
مُصَابِهِ أَلَّا تَصْدَعَ شَمْلَ الْجَمَاعَةِ بِفُرْقَةٍ لَا عِصَامَ
لَهَا ، وَلَا يُؤْمِنُ كَيْدُ الشَّيْطَانِ فِي بَقَائِهَا . هَذِهِ
الْعَرَبُ حَوْلَنَا ، وَاللَّهُ لَوْ تَدَاعَتْ عَلَيْنَا فِي صُبْحِ
نَهَارٍ لَمْ نَلْتَقِ فِي مَسَائِهِ . وَزَعَمْتَ أَنَّ الشَّوْقَ
إِلَى اللَّحَاقِ بِهِ كَافٍ عَنِ الطَّمَعِ فِي غَيْرِهِ ! فَمَنْ

عَلَامَةُ الشَّوْقِ إِلَيْهِ نُصْرَةُ دِينِهِ ، وَمُؤَاوَزَةُ أَوْلِيَائِهِ
 وَمُعَاوَنَتُهُمْ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ عَكَفْتَ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ
 تَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ مِنْهُ ، فَمِنَ الْعُكُوفِ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ
 النَّصِيحَةُ لِعِبَادِ اللَّهِ ، وَالرَّافَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، وَبَذْلُ
 مَا يَصْلُحُونَ بِهِ ، وَيَرْشُدُونَ عَلَيْهِ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ
 لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّظَاهُرَ وَاقِعٌ عَلَيْكَ ، وَأَيُّ حَقٍّ
 لَطَّ (١) دُونَكَ ! قَدْ سَمِعْتَ وَعَلِمْتَ مَا قَالَ الْأَنْصَارُ
 بِالْأَمْسِ سِرًّا وَجَهْرًا ، وَتَقَلَّبْتَ عَلَيْهِ بَطْنًا وَظَهْرًا ،
 فَهَلْ ذَكَرْتَ أَوْ أَشَادْتَ بِكَ ، أَوْ وَجَدْتَ رِضَاهُمْ
 عَنْكَ ؟ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِلِسَانِهِ إِنَّكَ تَصْلُحُ
 لِهَذَا الْأَمْرِ ؟ أَوْ أَوْمَأَ بَعَيْنِهِ أَوْ هَمَّ فِي نَفْسِهِ ؟

أَتَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ ضَلُّوا مِنْ أَجْلِكَ ، وَعَادُوا كُفَّارًا
 زُهْدًا فِيكَ ، وَبَاعُوا اللَّهَ تَحَامُلًا عَلَيْكَ ؟ لَا وَاللَّهِ !
 لَقَدْ جَاءَنِي عَقِيلُ بْنُ زِيَادٍ الْخَزْرَجِيُّ ، فِي نَفَرٍ مِنْ
 أَصْحَابِهِ ، وَمَعَهُمْ شُرْحِيلُ بْنُ يَعْقُوبَ الْخَزْرَجِيُّ
 وَقَالُوا إِنَّ عَلِيًّا يَنْتَظِرُ الْإِمَامَةَ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ أَوَّلَى
 بِهَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَيُنْكِرُ عَلَى مَنْ يَعْقِدُ الْخِلَافَةَ ،
 فَأَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ ، وَرَدَدْتُ الْقَوْلَ فِي نَحْرِهِمْ حَيْثُ
 قَالُوا : إِنَّهُ يَنْتَظِرُ الْوَحْيَ ، وَيَتَوَكَّفُ^(١) مُنَاجَاةَ
 الْمَلَكِ ، فَقُلْتُ ذَاكَ أَمْرٌ طَوَاهُ اللَّهُ بَعْدَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَكَانَ الْأَمْرُ مَعْقُودًا
 بَأَنْشُوطَةٍ^(٢) ، أَوْ مَشْدُودًا بِأَطْرَافِ لِيْطَةٍ^(٣) ؟ كَلَّا !

(١) يتوكف : ينتظر (٢) الأنشودة : عقدة يسهل انحلالها إذا أخذ
 بأحد طرفيها انفتحت (٣) الليطة : قشرة القصبه التي تليط بها أى تلزق

وَاللَّهِ لَا عَجْمَاءَ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَّا أَفْصَحَتْ ، وَلَا شَوْكَاءَ
 إِلَّا وَقَدْ تَفَتَّحَتْ ، وَمِنْ أَعْجَبِ شَأْنِكَ قَوْلُكَ :
 « وَلَوْ لَا سَالِفُ عَهْدٍ ، وَسَابِقُ عَقْدٍ ، لَشَفِيتُ
 غَيْظِي ! » وَهَلْ تَرَكَ الدِّينُ لِأَهْلِهِ أَنْ يَشْفُوا غَيْظَهُمْ
 بِيَدٍ أَوْ بِلِسَانٍ ؟ تِلْكَ جَاهِلِيَّةٌ وَقَدْ اسْتَأْصَلَ
 اللَّهُ شَافَتَهَا ، وَاقْتَلَعَ جُرْثُومَتَهَا ، وَهَوَّرَ لَيْلَهَا ،
 وَغَوَّرَ سَيْلَهَا ، وَأَبْدَلَ مِنْهَا الرُّوحَ وَالرَّيْحَانَ ،
 وَالْهُدَى وَالْبُرْهَانَ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ مُلْجِمٌ ، وَلَعَمْرَى
 إِنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ ، وَآثَرَ رِضَاهُ ، وَطَلَبَ مَا عِنْدَهُ ،
 أَمْسَكَ لِسَانَهُ ، وَأَطْبَقَ فَاهُ ، وَجَعَلَ سَعْيَهُ لِمَا وَرَاهُ !
 فَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَهْلًا يَا أَبَا حَفِصٍ ،
 وَاللَّهِ مَا بَدَلْتُ مَا بَدَلْتُ وَأَنَا أُرِيدُ نَكْثَهُ ، وَلَا

أَقَرَرْتُ مَا أَقَرَرْتُ وَأَنَا أَبْتَغِي حَوْلًا عَنْهُ . وَإِنَّ
أَخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ آثَرِ النِّفَاقِ ، وَاحْتَضَنَ
الشَّقَاقَ ، وَفِي اللَّهِ سَلْوَةٌ عَنْ كُلِّ حَادِثٍ ، وَعَلَيْهِ
التَّوَكُّلُ فِي جَمِيعِ الْحَوَادِثِ .

أَرْجِعْ يَا أَبَا حَفِصٍ إِلَى مَجْلِسِكَ ، نَاقِعِ الْقَلْبِ ،
مَبْرُودِ الْغَلِيلِ ، فَسِيحِ اللَّبَانَ^(١) فَصِيحِ اللِّسَانَ ، فَلَيْسَ
وَرَاءَ مَا سَمِعْتَ وَقُلْتَ إِلَّا مَا يَشُدُّ الْأَزَرَ ، وَيَحْطُّ
الْوِزَرَ ، وَيَضَعُ الْإِصْرَ ، وَيَجْمَعُ الْأُلْفَةَ ، بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ،
وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فَانْصَرَفَ عَلِيُّ وَعُمَرُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . وَهَذَا أَصْعَبُ مَا مَرَّ عَلَى بَعْدِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . اهـ

❖ ❖

وَإِلَيْكَ عَهْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِمَامِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ
وَجْهَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ لِلْأَشْتَرِ النَّخَعِيِّ . وَأَرْجُو أَنَّ
تَذْكُرَ أُسْلُوبَ عَلِيٍّ وَآثَرَهُ حِينَ دِرَاسَتِكَ لِحَيَاةِ
عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ . قال :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ
عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرِ ، فِي
عَهْدِهِ إِلَيْهِ ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جَبَايَةِ خَرَاجِهَا ، وَجَهَادَ
عَدُوِّهَا ، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا ، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا . أَمَرَهُ
بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي
كِتَابِهِ : مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْعُدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا
وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا ، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ
سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ . فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكْفَّلَ

بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَكْسِرَ
نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَيَزَعَهَا ^(١) عِنْدَ الْجُمُوحَاتِ ^(٢) فَإِنَّ
النَّفْسَ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ . ثُمَّ اعْلَمْ
يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا
دَوْلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرِ ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ
أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ
قَبْلَكَ وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا
يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرَى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى السُّنَنِ
عِبَادِهِ فَلْيَكُنْ أَحَبُّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ
لِلصَّالِحِ فَامْلِكْ هَوَاكَ ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ،
فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ
كَرِهَتْ . وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ

وَاللُّطْفَ بِهِمْ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا ^(١) ،
تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ
أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلَلُ ،
وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ ، وَيُؤْتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمَدِ
وَالْخَطَا فَاغْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي
تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ . فَإِنَّكَ
فَوْقَهُمْ ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللَّهُ فَوْقَ
مَنْ وَلاَكَ ! وقد استكفأك أمرهم وابتلاك بهم ،
وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبٍ ^(٢) اللَّهُ فَإِنَّهُ لَا يَدَى لَكَ
بِنِقْمَتِهِ وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَلَا تَنْدَمَنَّ
عَلَى عَفْوٍ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ ^(٣)

وَجَدْتَ مِنْهَا مَنُذُوحَةً وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرٌ
فَأُطَاعُ فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ وَمَنْهَكَةٌ^(١) لِلدِّينِ
وَتَقَرَّبُ مِنَ الْغَيْرِ^(٢) . وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ
فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أَبْهَةً أَوْ مَخِيلَةً^(٣) فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ
مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ
مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ^(٤) إِلَيْكَ مِنْ
طِمَاحِكَ^(٥) وَيَكْفُ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ وَيَفِيءُ إِلَيْكَ
بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ . إِيَّاكَ وَمَسَامَاةَ اللَّهِ فِي
عَظَمَتِهِ وَالتَّشَبُّهُ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ
وَيُيَهِّنُ كُلَّ مُخْتَالٍ . أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ

(١) إضعاف (٢) الخطوب والحوادث (٣) كبرياء

(٤) يخضع (٥) الجروح أو شموخ الأنف

نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ . وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى
مِنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ ! وَمَنْ ظَلَمَ
عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصَمَهُ دُونَ عِبَادِهِ وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ
أَدْحَضَ حُجَّتَهُ ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ
وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نَقْمَتِهِ
مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَّهِدِينَ ،
وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمُرْصَادِ . وَلَيْكُنْ أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ
أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ ، وَأَعَمَّهَا فِي الْعَدْلِ ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى
الرَّعِيَّةِ ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ ،
وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ وَلَيْسَ
أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَوْئِنَةً فِي الرَّخَاءِ
وَأَقْلَ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلَ

بِالْإِخْفَافِ وَأَقَلِّ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأَ عُذْرًا
عِنْدَ الْمَنَعِ وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلَمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ
أَهْلِ الْخَاصَّةِ وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُدَّةُ
لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةِ مِنَ الْأُمَّةِ ، فَلْيَكُنْ صَفُوكَ لَهُمْ
وَمَمْلُكَ مَعَهُمْ . وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنُوهُمْ
عِنْدَكَ أَطْلُبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ . فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا :
الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ
عَنْكَ مِنْهَا . فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللَّهُ
يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ
يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا يُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ . أَطْلِقْ عَنِ
النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حَقْدٍ ، واقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَتِرٍ (١)

وَتَغَابَ^(١) عَنْ كُلِّ مَا لَا يَصِحُّ لَكَ ، وَلَا تَعَجَلَنَّ
إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ
بِالنَّاصِحِينَ وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ
عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ
الْأُمُورِ وَلَا حَرِيصًا يُزِينُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجُورِ ، فَإِنَّ
الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ
بِاللَّهِ ، إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ
وَزِيرًا وَمَنْ شَرِكُهُمْ فِي الْآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ
بَطَانَةً^(٢) ، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ وَإِخْوَانُ الظُّلْمَةِ ،
وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ
وَنَفَادِهِمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ مِمَّنْ

(١) تظاهر بالغباء فسيء القوم المتغابي (٢) حاشية وأصدقاء

لَمْ يُعَاوَنْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ ، وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ ،
 أَوْلَيْكَ أَخْفُ عَلَيْكَ مَوْثُونَةً ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً ،
 وَأَحْنَى عَلَيْكَ عِطْفًا ، وَأَقْلَلْ لِعَیْرِكَ إِنْفَاءً . فَاتَّخِذْ
 أَوْلَيْكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ . ثُمَّ لِيَكُنْ
 آثَرُهُمْ ^(١) عِنْدَكَ أَقْوَلُهُمْ لَكَ بِمُرِّ الْحَقِّ وَأَقْدَلُهُمْ مُسَاعَدَةً
 فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَاقِعًا ذَلِكَ
 مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ وَالصَّقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ
 ثُمَّ رُضُّهُمْ ^(٢) عَلَى أَنْ لَا يُطْرُوكَ ، وَلَا يَبْجَحُوكَ
 بِيَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ . فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ
 الزَّهْوَ وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ . وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ
 وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيدًا

لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ وَتَدْرِيبًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ
 عَلَى الْإِسَاءَةِ ! وَالزِّمُّ كُلُّهُ مِنْهُمْ مَا الزَّمَّ نَفْسَهُ وَاعْلَمْ
 أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ
 إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وَتَخْفِيفِهِ الْمُؤَوَّنَاتِ عَلَيْهِمْ وَتَرْكِ
 اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قَبْلَهُمْ . فَلْيَكُنْ
 مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ
 فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَبًا^(١) طَوِيلًا وَإِنَّ
 أَحَقَّ مَنْ حَسَنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسَنَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ
 وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ .
 وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ
 وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلُفَّةُ وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ وَلَا تُحْدِثَنَّ

سُنَّةَ تَضَرُّ بِشَيْءٍ مِمَّا مَضَى مِنْ تِلْكَ السَّنَنِ فَيَكُونُ
الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّا وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا تَقَضَّتْ مِنْهَا
وَأَكْثَرُ مُدَارَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَمُنَاقَشَةِ الْحُكَمَاءِ فِي تَثْبِيتِ
مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ
قَبْلَكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الرِّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا
إِلَّا بِبَعْضٍ وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ
اللَّهِ وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ
وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ وَمِنْهَا أَهْلُ الْجُزْيَةِ
وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ وَمِنْهَا التُّجَّارُ
وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي
الْحَاجَةِ وَالْمُسْكِنَةِ وَكُلُّ قَدْ سَمَى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ وَوَضَعَ
عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةٍ نَبِيَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا فَلِلْجُنُودِ بِإِذْنِ
 اللَّهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ وَزِينُ الْوَلَاةِ وَعِزُّ الدِّينِ وَسَبِيلُ
 الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ
 إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوُونَ بِهِ
 عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَيَكُونُ
 مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ ثُمَّ لَا قِوَامَ لَهُذَيْنِ الصَّنَفَيْنِ إِلَّا
 بِالصَّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَالِ وَالْكِتَابِ
 لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ ^(١) وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ
 وَيُؤْتَمِنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا وَلَا قِوَامَ
 لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالشُّجَارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ
 عَلَيْهِ مِنْ مَرَاقِقِهِمْ وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ

(١) البيعات للوَلَاةِ وَالْحُكَمَاءِ

مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ ، ثُمَّ
 الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمُسْكِنَةِ الَّذِينَ
 يَحِقُّ رِفْدُهُمْ^(١) وَمَعُونَتُهُمْ وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ ،
 وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ وَلَيْسَ
 يُخْرِجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةٍ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ
 إِلَّا بِالْإِهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى
 لُزُومِهِ الْحَقِّ ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقَلَ .
 فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ ،
 وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ ، وَأَنْقَاهُمْ جَبِيًّا وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا :
 مَنْ يُنْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ ، وَيَسْتَرْيَحُ إِلَى الْعُذْرِ ،
 وَيَرَأْفُ بِالضُّعْفَاءِ ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ ، وَمَنْ لَا يُشِيرُهُ

الْعُنفُ ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ ، ثُمَّ أُلْصِقَ بِذَوِي
 الْمُرُوءَاتِ وَالْأَخْسَابِ وَأَهْلِ الْبَيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ
 وَالسَّوَابِقِ الْحُسْنَةِ ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ
 وَالسَّمَاخَةِ ، فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكَرِيمِ ، وَشُعَبٌ مِنَ
 الْعُرْفِ ، ثُمَّ تَفَقَّدَ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ
 مِنْ وَلَدَيْهِمَا ، وَلَا يَتَفَاقَنَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ ،
 وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ ، وَإِنْ قَلَّ ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ
 لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ . وَلَا تَدْعُ
 تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ إِتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا ، فَإِنَّ
 اللَّيْسِيرَ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا
 لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ ، وَلَيْسَ كُنْ أَثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ
 مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ ؛ وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ ،

بِمَا يَسْعُهُمْ وَيَسْعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفٍ ^(١) أَهْلِيهِمْ ،
 حَتَّى يَكُونَ هُمُومُهُمَا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، فَإِنَّ
 عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ ، وَإِنْ أَفْضَلَ
 قُرَّةَ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ ، وَظُهُورُ
 مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ ، وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ
 صُدُورِهِمْ ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ
 الْأُمُورِ وَقَلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُورِهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ
 مُدَّتِهِمْ ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الشَّنَاءِ
 عَلَيْهِمْ وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّ
 كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهْزُ الشُّجَاعَ ،
 وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ ^(٢) ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ اعْرِفْ

(١) الأعقاب والخلف (٢) الناشر المنصرف

لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ مَا أُنْبِئِي ، وَلَا تُضِيفَنَّ بَلَاءَ امْرِيٍّ
إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا تُقْصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَاءِهِ ،
وَلَا يَدْعُونَكَ شَرَفَ امْرِيٍّ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَاءِهِ
مَا كَانَ صَغِيرًا ، وَلَا ضَعْفُهُ ^(١) امْرِيٍّ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ
مِنْ بَلَاءِهِ ^(٢) مَا كَانَ عَظِيمًا . وَارْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
مَا يُضْلِعُكَ ^(٣) مِنْ أَلْطُوبٍ وَيَشْتَبِيهِ عَلَيْكَ مِنْ
الْأُمُورِ ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ
إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) فَالرَّدُّ إِلَى اللَّهِ : الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ
كِتَابِهِ ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ : الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ

(١) انحطاطه (٢) جهاده (٣) ما يؤودك ويرهقك

الْمُفَرَّقَةَ . ثُمَّ اخْتَرَ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ
 فِي نَفْسِكَ مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ ، وَلَا تُمَحِّكُهُ
 الْخُصُومُ ، وَلَا يَتِمَادَى فِي الزَّلَّةِ ، وَلَا يَحْصُرُ مِنَ
 الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ . إِذَا عَرَفَهُ ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى
 طَمَعٍ وَلَا يَكْتَفِي بِأَذْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ ، وَأَوْقَفَهُمْ
 فِي الشُّبُهَاتِ . وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ ، وَأَقْلَبَهُمْ تَبَرُّمًا بِمُرَاجَعَةِ
 الْخُصَمِ وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ
 عِنْدَ إِتِّصَاحِ الْحُكْمِ ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَافُ ،
 وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَافُ ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ . ثُمَّ أَكْثَرَ تَعَاهُدَ
 قَضَائِهِ ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبَدْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ ،
 وَتَقَلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ
 لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِيَأْمَنَ

بِذَلِكَ اغْتِيَالِ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ ، فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ
نَظْرًا بَلِيغًا ، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي
الْأَشْرَارِ : يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا .
ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمْ اخْتِبَارًا ، وَلَا
تَوَلَّهِمْ مُحَابَاةً وَآثَرَةً ؛ فَإِنَّهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ
وَالْخِيَانَةِ ؛ وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجَرُّبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ
الْبَيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ ،
فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا ، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا ؛ وَأَقْلُّ فِي الْمَطَامِعِ
إِشْرَافًا ، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظْرًا ؛ ثُمَّ أَسْبَغْ
عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ
أَنْفُسِهِمْ ، وَغِنَى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ،
وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ .

ثُمَّ تَفَقَّدَ أَعْمَالَهُمْ وَأَبْعَثَ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ
وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ ^(١) فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ
حَدَوَةٌ ^(٢) لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ .
وَتَحَفَّظُ مِنَ الْأَعْوَانِ فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ
إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ
اِكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي
بَدَنِهِ ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ
الْمَذَلَّةِ وَوَسَّمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ ، وَقَلَدْتَهُ عَارَ الثُّمَةِ ، وَتَفَقَّدَ
أَمْرَ الْخُرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ
وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ؛ وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ
سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ ^(٣) عَلَى

(١) رقابتك (٢) إهابة ودعوة (٣) كلُّ وعالة

الْخُرَاجِ وَأَهْلِهِ وَلَيْكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ
أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخُرَاجِ لِأَنَّ ذَلِكَ
لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ ، وَمَنْ طَلَبَ الْخُرَاجَ بِغَيْرِ
عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ . وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمَّ
أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا ؛ فَإِنْ شَكُّوا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً أَوْ
انْقِطَاعَ شَرِبٍ ، أَوْ بَالَةً ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا
غَرَقٌ . أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ . خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا
تَرْجُو أَنْ يَصْلَحَ بِهِ أَمْرُهُمْ . وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ
خَفَّفْتَ بِهِ الْمِئُونَةَ عَنْهُمْ فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ
عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ ، وَتَزِينِ وَلَايَتِكَ ، مَعَ
اسْتِجْلَابِكَ حُسْنِ ثَنَائِهِمْ ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِيفَاضَةِ الْعَدْلِ
فِيهِمْ ، مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ

مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ . وَالثَّقَّةِ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ
 مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِكَ بِهِمْ ، فَرُبَّمَا
 حَدَّثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ
 بَعْدُ . احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسِهِمْ بِهِ . فَإِنَّ الْعُمُرَانَ
 مُحْتَمِلٌ مَا حَمَلَتْهُ ، وَإِنَّمَا يَأْتِي خَرَابُ الْأَرْضِ
 مِنْ إِغْوَارِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا يُعَوِّزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ
 أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةِ
 انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ ؛ ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ . فَوَلَّ عَلَى
 أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ ؛ وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا
 مَكَائِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لَوْجُوهِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ
 مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ فَيَجْتَرِي بِهَا عَلَيْكَ فِي
 خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَأٍ ، وَلَا تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةَ عَنْ إِيرَادِ

مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ
عَنْكَ فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطَى مِنْكَ ، وَلَا يُضْعَفُ عَقْدًا
اعْتَقَدَهُ لَكَ ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ ،
وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ
بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلُ . ثُمَّ لَا يَكُنْ
اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ
الظَّنِّ مِنْكَ ؛ فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ
بِتَصْنَعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ
النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ ، وَلَكِنْ اخْتَبَرَهُمْ بِمَا وُلُّوا
لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ : فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا ،
وَأَعْرِفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى
نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ ، وَلِمَنْ وُلِّيَتْ أَمْرُهُ . وَاجْعَلْ

لِرَأْسِ^(١) كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا^(٢) مِنْهُمْ لَا يَقْهَرُهُ
كِبَرُهَا ، وَلَا يَتَشَتُّ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا ، وَمَهْمَا كَانَ فِي
كِتَابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَايَيْتَ عَنْهُ الزِّمْتَهُ . ثُمَّ اسْتَوْصَ
بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ وَأَوْصَ بِهِمْ خَيْرًا : الْمُقِيمِ
مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرَّبِ بِمَالِهِ ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِيَدِنِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ
مَوَادُّ الْمَنَافِعِ ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ^(٣) ، وَجَلَابِهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ
وَالْمَطَارِحِ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، وَحَيْثُ
لَا يَلْتَمِ الْنَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا . وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا ؛ فَإِنَّهُمْ
سَلَمٌ لَا تُخَافُ بِأَنْقِصَهُ ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ ، وَتَقَقَّدُ
أُمُورُهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ . وَاعْلَمْ — مَعَ
ذَلِكَ — أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضَيْقًا فَاحِشًا ، وَشُحًّا قَبِيحًا

(١) أهمها (٢) عظيمًا (٣) وُجوه المعيشة

وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّمًا فِي الْبِيَاعَاتِ ، وَذَلِكَ بَابُ
 مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ وَعَيْبٌ عَلَى الْوَلَاةِ ؛ فَامْنَعْ مِنَ الْإِحْتِكَارِ
 فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ .
 وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْنَهُمَا سَمَحًا : بِمَوَازِينٍ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ
 بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ ^(١) فَمَنْ قَارَفَ ^(٢) حُكْرَةً ^(٣)
 بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَتَكَلَّ بِهِ ، وَعَاقِبُهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ .
 ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى : مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ
 لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى ^(٤)
 وَالزَّمْنَى ^(٥) ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَالِعًا وَمُعْتَرًّا ؛ وَاحْفَظْ
 لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا

(١) المشتري (٢) زاول (٣) احتكاراً (٤) الفقر وهي

ضد النعمى (٥) جمع زمين وهو من أصابته الزمانة

مِنْ يَنْتِ مَالِكَ وَقِسْمًا مِنْ غَلَّتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ
 فِي كُلِّ بَلَدٍ ؛ فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى ،
 وَكُلُّهُ قَدْ اسْتُرْعِيَتْ حَقُّهُ فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ .
 فَإِنَّكَ لَا تُعْذِرُ بِتَضْيِيعِكَ النَّافَةِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ
 الْمُسْتَهْمِ ، فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ ، وَلَا تُصَعِّرْ
 خَدَّكَ لَهُمْ ، وَتَفْقِدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ
 مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ ، فَفَرِّغْ لِأَوْلِيَّكَ
 ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ
 أُمُورَهُمْ ، ثُمَّ اْعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ
 تَلْقَاهُ ؛ فَإِنَّ هُوَ لَأَوْلَى مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى
 الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَكُلُّهُ فَأَعْذِرْ إِلَى اللَّهِ فِي
 تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ ، وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيَمِّ وَذَوِي الرِّقَّةِ

فِي السَّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَلَا يَنْصِبُ لِمَسْأَلَةِ نَفْسِهِ ،
 وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ ثَقِيلٌ (وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ) . وَقَدْ
 يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ ،
 وَوَثَّقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ . وَاجْعَلْ لِدَوَى
 الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغْ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ،
 وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامًّا فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ ،
 وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ
 حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ
 رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ، فِي غَيْرِ
 مَوْطِنٍ (لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ
 مِنَ الْقَوَى غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ) ثُمَّ اخْتَمِلَ الْخُرْقَ مِنْهُمْ
 وَالْعِيَّ ، وَنَحَّ عَنْهُمْ الضِّيقَ وَالْأَنْفَ يَبْسُطُ اللَّهُ

عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ ، وَأَعْطِ مَا أُعْطِيتَ هَنِيئًا ، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ ، ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا : مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْبَى عَنْهُ كِتَابُكَ ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَخْرُجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ ، وَأَمُضٍ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلُهُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ ، وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا يَبْنِيكَ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ . وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلَّهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ ، وَسَامَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ . وَلَيْكُنْ فِي خَاصَّةٍ مَا تُخْلِصُ بِهِ لِلَّهِ دِينَكَ : إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةٌ ، فَأَعْطِ اللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ

وَنَهَارِكَ ، وَوَفَّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ
ذَلِكَ كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ ، وَلَا مَنْقُوصٍ بِالْغَا مِنْ بَدَنِكَ
مَا بَلَغَ ، وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ فَلَا تَكُونَنَّ
مُنْفَرًّا وَلَا مُضِيعًا ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ
الْحَاجَةُ . وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ،
حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ كَيْفَ أَصَلِّي بِهِمْ ؟ فَقَالَ —
(صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) .
وَأَمَّا بَعْدُ ، فَلَا تُطَوِّلَنَّ اخْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ؛ فَإِنَّ
اخْتِجَابَ الْوَلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ ؛ وَقَلَّةُ
عِلْمٍ بِالْأُمُورِ ، وَالِاخْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ
مَا اخْتَجَبُوا دُونَهُ ، فَيَصْغُرُ عَنْدهُمْ الْكَبِيرُ ، وَيَعْظُمُ
الصَّغِيرُ ، وَيَقْبَحُ الْحَسَنُ ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ ، وَيُشَابُّ

الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ . وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى
عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ
تُعْرِفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ . وَإِنَّمَا
أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ
فِي الْحَقِّ فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقِّ تَعْطِيهِ ،
أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسَدِّيه ؟ أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ فَمَا أَسْرَعَ
كَفَّ النَّاسُ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيْسُوا مِنْ بَذْلِكَ !
مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لَا مَوْئِنَةَ
فِيهِ عَلَيْكَ مِنْ شَكَاةٍ مَظْلَمَةٍ ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ
فِي مُعَامَلَةٍ . ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً فِيهِمْ
اسْتِشَارٌ وَتَطَاوُلٌ وَقَلَّةٌ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ فَاحْسِمُ
مَادَّةَ أَوْلِيَّكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ

وَلَا تُقْطِعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَتِكَ قَطِيعَةً
وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِنَّ يَلِيهَا
مِنَ النَّاسِ فِي شَرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرِكٍ يَحْمِلُونَ
مَوْؤَنَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ فَيَكُونُ مِنْهَا ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ
وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالزِّمِ الْحَقَّ مَنْ
لَزِمَهُ مِنْ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِرًا
مُحْتَسِبًا وَقِعًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ
وَابْتَسِعَ عَاقِبَتُهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ فَإِنَّ مَغَبَّةَ^(١)
ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ . وَإِنْ ظَنَنْتِ الرَّعِيَّةَ بِكَ حَيْفًا^(٢) فَأَصْحِرْ^(٣)
لَهُمْ بِعُذْرِكَ وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ ، فَإِنَّ
فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ وَرِفْقًا بِرَعِيَّتِكَ

(١) العاقبة (٢) جوراً (٣) كن واسع النطاق

وَأَعْذَارًا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيهِمْ عَلَى الْحَقِّ
وَلَا تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لِلَّهِ فِيهِ رِضًا ،
فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَاً لِحُبُودِكَ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ
وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ وَلَكِنَّ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ
بَعْدَ صُلْحِهِ ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ ، فَخُذْ
بِالْحَزْمِ ، وَأَتِّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ وَإِنْ عَقَدْتَ
بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً
فَحُطَّ عَهْدُكَ بِالْوَفَاءِ وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ ، وَاجْعَلْ
نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيتَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ
فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ فِي النَّاسِ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ
أَهْوَائِهِمْ وَتَشْتَّتِ آرَائِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ
وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ

لِمَا اسْتَوْبَلُوا^(١) مِنْ عَوَاقِبِ الْعَدْرِ ، فَلَا تَعْدُرَنَّ
 بِذِمَّتِكَ ، وَلَا تَخِيْسَنَّ^(٢) بَعْهَدِكَ وَلَا تَخْتَلِنَنَّ عَدُوَّكَ ؛
 فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ . وَقَدْ جَعَلَ
 اللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ
 وَحَرِيْمًا يَسْكُنُونَ إِلَى مَنْعَتِهِ وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ
 فَلَا إِذْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ ، وَلَا خِدَاعَ فِيهِ وَلَا تَعْقِدَ
 عَقْدًا تَجَوُّزُ فِيهِ الْعِلَلَ وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ
 بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوَثُّقَةِ وَلَا يَدْعُونَكَ ضَيْقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ
 فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ فَإِنَّ
 صَبْرَكَ عَلَى ضَيْقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ
 خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعْتَهُ ، وَأَنْ تُحِيْطَ بِكَ مِنْ

اللَّهُ فِيهِ طَلِبَةٌ فَلَا تَسْتَقِيلَ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ .
 إِيَّاكَ وَالْدَّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ
 أَذْنَى لِنِقْمَةٍ وَلَا أَعْظَمَ لِتَبَعَةٍ وَلَا أُخْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ
 وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ الدَّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا . وَاللَّهُ
 سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئُ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا
 مِنَ الدَّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تُقَوِّنَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ
 دِمِّ حَرَامٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ
 وَيَنْقُلُهُ وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ
 الْعَمْدِ لِأَنَّ فِيهِ قَوْدٌ^(١) الْبَدَنِ وَأَنْ ابْتُلَيْتَ بِخَطَا
 وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ
 فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ^(٢) مَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةٌ فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ

خَوْفُهُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُودِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ
 حَقَّهُمْ ، وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ
 مِنْهَا وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرُصِ
 الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ ^(١) مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ
 الْمُحْسِنِينَ . وَإِيَّاكَ وَالْمَنْ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ
 أَوْ التَّزْيِيدِ فِيهَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتَتَّبِعَ
 مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ ، فَإِنَّ الْمَنْ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ ، وَالتَّزْيِيدَ
 يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ
 وَالنَّاسِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
 تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ
 أَوَانِهَا أَوْ التَّسَقُّطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا أَوْ اللَّجَاجَةَ

(١) لينذهب به

فِيهَا إِذَا تَنَكَّرْتَ ، أَوْ الْوَهْنِ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحْتَ .
 فَضَعُ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ .
 وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِشَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ وَالتَّغَابَى عَمَّا
 تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ فَإِنَّهُ مَأْخُذٌ مِنْكَ
 لِفَعْرِكَ وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنَكَّشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةٌ ^(١)
 الْأُمُورِ ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِمَظْلُومِ أَمْلِكُ حِمِيَّةَ
 أَنْفِكَ ، وَسُورَةَ حَدِّكَ ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ ، وَغَرْبَ
 لِسَانِكَ ؛ وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفٍّ ^(٢) الْبَادِرَةِ ،
 وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ
 الْإِخْتِيَارَ . وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ
 مُهُومُكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ . وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ

(١) ستارها وحجبها (٢) بصدها وكبح جماحها

أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ
 عَادِلَةٍ أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيٍّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَتَقْتَدِيَ
 بِمَا شَاهَدْتَ بِمَا عَمَلْنَا فِيهَا . وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي
 اتِّبَاعِ مَا عَاهَدْتَ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا وَاسْتَوْثَقْتُ
 بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ
 عِنْدَ تَسْرُعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ بِسَعَةِ
 رَحْمَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ أَنْ
 يُؤَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ
 الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ ، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ ،
 وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ ، وَتَضَعِيفِ
 الْكِرَامَةِ ، وَأَنْ يُخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالْسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ

إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا . وَالسَّلَامُ

وَهَاكَ رِسَالَةَ الْبَصْرِيِّ فِي صِفَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ ،
وَيُحَدِّثُنَا التَّارِيخُ : أَنَّ عُمَرَ ابْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ ، لَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ ، كَتَبَ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ
أَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ ، أَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهِ بِصِفَةِ الْإِمَامِ
الْعَادِلِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَحِمَهُ اللَّهُ :

اعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْإِمَامَ
الْعَادِلَ قَوَامَ كُلِّ مَائِلٍ ، وَقَصْدَ كُلِّ جَائِرٍ ، وَصَلَاحَ
كُلِّ فَاسِدٍ ، وَقُوَّةَ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَنَصْفَةَ كُلِّ
مَظْلُومٍ ، وَمَفْزَعَ كُلِّ مَلْهُوفٍ . وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالرَّاعِي الشَّفِيقِ عَلَى إِبْلِهِ ، الرَّفِيقِ ،
الَّذِي يَرْتَادُ لَهَا ^(١) أَطِيبَ الْمَرْعَى وَيَذُودُهَا ^(٢) عَنْ
مَرَاعِ الْمُهْلَكَةِ ، وَيَحْمِيهَا مِنَ السَّبَاعِ ، وَيَكْنُفُهَا
مِنْ أَذَى الْحَرِّ وَالْقُرِّ ^(٣) . وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ كَالْأَبِ الْخَانِي عَلَى وَلَدِهِ : يَسْعَى لَهُمْ
صِغَارًا ، وَيُعَلِّمُهُمْ كِبَارًا . يَكْتَسِبُ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ ،
وَيَدَّخِرُ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ . وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ كَالْأُمِّ الشَّفِيقَةِ الْبَرَّةِ الرَّفِيقَةِ بَوْلَدِهَا ،
حَمَلَتْهُ كُرْهًا ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَرَبَّتْهُ طِفْلًا ، تَسْهَرُ
بِسَهَرِهِ ، وَتَسْكُنُ بِسُكُونِهِ ، تُرْضِعُهُ تَارَةً ، وَتَقْطُمُهُ
أُخْرَى ، وَتَفْرَحُ بِعَافِيَتِهِ ، وَتَغْمُّ بِشِكَايَتِهِ .

(١) يقصد (٢) يمنعها (٣) البرد الشديد

وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَصِيُّ الْيَتَامَى ،
وَحَازِنُ الْمَسَاكِينِ ، يُزَبِّي صَغِيرَهُمْ وَيَمُونُ كَبِيرَهُمْ .
وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالْقَلْبِ بَيْنَ
الْجَوَانِحِ ، تَصْلُحُ الْجَوَانِحُ بِصَلَاحِهِ ، وَتَفْسُدُ بِفَسَادِهِ .
وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْقَائِمُ بَيْنَ اللَّهِ
وَبَيْنَ عِبَادِهِ ، يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ وَيُسْمِعُهُمْ ، وَيَنْظُرُ
إِلَى اللَّهِ وَيُرِيهِمْ ، وَيَنْقَادُ إِلَى اللَّهِ وَيَقُودُهُمْ ، فَلَا تَكُنْ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا مَلَكَكَ اللَّهُ كَعَبْدٍ اتَّيَمَنَهُ
سَيِّدُهُ ، وَاسْتَحْفَظَهُ (١) مَالَهُ وَعِيَالَهُ ، فَبَدَدَ الْمَالَ
وَشَرَّدَ الْعِيَالَ ، فَافْقَرَ أَهْلَهُ ، وَفَرَّقَ مَالَهُ . وَاعْلَمْ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْخُدُودَ لِيَزْجُرَ بِهَا

(١) طلب إليه حفظه

عَنِ الْخَبَائِثِ وَالْفَوَاحِشِ ، فَكَيْفَ إِذَا أَتَاهَا مَنْ يَلِيهَا ؟
وَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقِصَاصَ حَيَاةً لِعِبَادِهِ ، فَكَيْفَ إِذَا
قَتَلَهُمْ مَنْ يَقْتَصُّ لَهُمْ ؟ وَاذْكُرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ ، وَقَلَّةَ أَشْيَاعِكَ عِنْدَهُ ، وَأَنْصَارِكَ
عَلَيْهِ ، فَتَزَوَّدْ لَهُ ؛ وَلِمَا بَعْدَهُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ .
وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَكَ مَنْزِلًا غَيْرَ مَنْزِلِكَ
الَّذِي أَنْتَ فِيهِ . يَطُولُ فِيهِ ثَوَاؤُكَ ، وَيُفَارِقُكَ
أَحِبَّاؤُكَ ، يُسَلِّمُونَكَ فِي قَعْرِهِ فَرِيدًا وَحِيدًا ، فَتَزَوَّدْ
لَهُ مَا يَصْحَبُكَ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ
وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . وَاذْكُرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا بُعِثَ
مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، فَلَأَسْرَارُ ظَاهِرَةٌ

وَالكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا .
فَإِن يَأْمُرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ فِي مَهَلٍ قَبْلَ حُلُولِ الْأَجَلِ
وَانْقِطَاعِ الْأَمَلِ ، لَا تَحْكُمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِبَادِ اللَّهِ
بِحُكْمِ الْجَاهِلِينَ وَلَا تَسْلُكُ بِهِمْ سَبِيلَ الظَّالِمِينَ ،
وَلَا تُسَلِّطُ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ
لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَاةَ ذِمَّةٍ ^(١) فَتَبَوَّءَ^(١) بِأَوْزَارِكَ
وَأَوْزَارٍ مَعَ أَوْزَارِكَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكَ وَأَثْقَالًا مَعَ
أَثْقَالِكَ ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ الَّذِينَ يَتَنَعَّمُونَ بِمَا فِيهِ
بُؤْسُكَ وَيَأْكُلُونَ الطَّيِّبَاتِ فِي دُنْيَاهُمْ بِإِذْهَابِ
طَيِّبَاتِكَ فِي آخِرَتِكَ . لَا تَنْظُرْ إِلَى قُدْرَتِكَ الْيَوْمَ ،
وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى قُدْرَتِكَ غَدًا ، وَأَنْتَ مَأْسُورٌ

فِي حَبَائِلِ الْمَوْتِ ، مَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، فِي
مَجْمَعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَقَدْ عَنَتِ
الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ .

إِنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ لَمْ أَبْلُغْ بِعِظَتِي
مَا بَلَغَهُ أُولُو النَّهْيِ مِنْ قَبْلِي ، فَلَمْ آلُكَ شَفَقَةً
وَنُصْحًا ، فَأَنْزَلَ كِتَابِي إِلَيْكَ كَمْدَاوِي حَبِيبِهِ ،
يَسْقِيهِ الْأَذْوِيَّةَ الْكَرِيمَةَ ، لِمَا يَرْجُو لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ
الْعَافِيَةِ وَالصَّحَّةِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

✱
✱ ✱

وَالآنَ نَتَقَلُّ بِكَ بَعْدَ أَنْ اسْتَوْعَبْتَ طَرَفًا مِنْ
أَمَالِي الشَّيْخِ وَمُخْتَارَاتِهِ عَنْ أَدَبِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ ،

وَطَرَفٍ مِنَ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ ، إِلَى صُورَةٍ مِنَ الْأَدَبِ
 الْعَبَّاسِيِّ ، مُبْتَدئينَ بِمُشَاوَرَةِ الْمَهْدِيِّ لِأَهْلِ بَيْتِهِ .
 وَمَهْمَا عَزَاها النُّقَادُ إِلَى صِنَاعَةِ الْعَصْرِ ، دُونَ مَقَالَتِهَا
 مِمَّنْ غَزِيَتْ إِلَيْهِمْ ، لِاتِّسَاقِ الْأُسْلُوبِ ، وَوَحْدَةِ
 الْوَتِيرَةِ ، وَاطِّرَادِهَا فِي شَكْلِ وَاحِدٍ لُغَةً وَمَنْحَى ،
 وَلَفْظًا وَعِبَارَةً ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ أَمْرِهَا لَا يَعْدُو أَنَّهَا مِنْ
 آيَاتِ الْعَصْرِ وَكِتَابَاتِهِ ، وَعَلَيْهَا مَسْحَةٌ ثِقَافَتِهِ
 وَعُلُومِهِ وَيُونَانِيَّةُ حِكْمَتِهِ وَفَارَسِيَّةُ مَوْعِظَتِهِ ،
 وَعَبَّاسِيٌّ طَرِيقَتِهِ .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي الْعِقْدِ الْفَرِيدِ : هَذَا
 مَا تَرَجَعَ فِيهِ الْمَهْدِيُّ وَوُزَرَاؤُهُ وَمَا دَارَ بَيْنَهُمْ
 مِنْ تَذْيِيرِ الرَّأْيِ فِي حَرْبِ خُرَاسَانَ أَيَّامَ تَحَاكَمَتِ

عَلَيْهِمُ الْعُمَالُ وَأَعْنَفَتْ ، فَحَمَلَتْهُمْ الدَّالَّةُ وَمَا تَقَدَّمَ
 لَهُمْ مِنَ الْمَكَانَةِ عَلَى أَنْ نَكْثُوا بِيَعْتَهُمْ ، وَتَقْضُوا
 مَوْتَهُمْ ، وَطَرَدُوا الْعُمَالُ ، وَالتَّوَوَّا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ
 الْخُرَاجِ ؛ وَحَمَلَ الْمَهْدِيُّ مَا يُحِبُّ مِنْ مَصْلَحَتِهِمْ
 وَيَكْرَهُ مِنْ عَنَتِهِمْ ، عَلَى أَنْ أَقَالَ عَثَرَتَهُمْ ، وَاعْتَفَرَ
 زَلَّتَهُمْ ، وَاحْتَمَلَ دَالَتَهُمْ ، تَطَوُّلاً بِالْفَضْلِ وَاتِّسَاعاً
 بِالْعَفْوِ ، وَأَخْذاً بِالْحُجَّةِ ، وَرِفْقاً بِالسِّيَاسَةِ ، وَلِذَلِكَ
 لَمْ يَزَلْ مُذْ حَمَلَهُ اللَّهُ أَعْبَاءَ الْخِلَافَةِ وَقَلَدَهُ أُمُورَ
 الرِّعِيَّةِ رَفِيقاً بِمَدَارِ سُلْطَانِهِ ، بَصِيرَةً بِأَهْلِ زَمَانِهِ ،
 بَاسِطاً لِلْمَعْدَلَةِ فِي رِعِيَّتِهِ ، تَسْكُنُ إِلَى كَنَفِهِ ، وَتَأْنَسُ
 بِعَفْوِهِ ، وَتَثِقُ بِحِلْمِهِ ، فَإِذَا وَقَعَتِ الْأَقْضِيَةُ الْإِلَازِمَةُ
 وَالْحُقُوقُ الْوَاجِبَةُ ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ هَوَادَةٌ وَلَا إِنْغِصَاءُ

وَلَا مُدَاهَنَةً ، أَثَرَةً لِلْحَقِّ وَقِيَامًا بِالْعَدْلِ وَأَخْذًا
 بِالْحَزْمِ ، فَدَعَا أَهْلَ خُرَاسَانَ إِلَى غَيْرِ أَرْبَعِينَ بِحُلْمِهِ ؛ وَالثَّقَّةَ
 بِعَفْوِهِ أَنْ كَسَرُوا^(١) الْخَرَاجَ وَطَرَدُوا الْعَمَالَ وَسَأَلُوا
 مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، ثُمَّ خَلَطُوا احْتِجَابًا بِاعْتِدَارٍ ،
 وَخُصُومَةً بِإِقْرَارٍ ، وَتَنْصُلًا بِاغْتِلَالٍ ؛ فَلَمَّا انْتَهَى ذَلِكَ
 إِلَى الْمَهْدِيِّ خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِ خَلَائِهِ وَبَعَثَ إِلَى نَفَرٍ
 مِنْ لُحَمَتِهِ وَوُزَرَائِهِ ، فَأَعْلَمَهُمُ الْحَالَ وَاسْتَنْصَحَهُمُ
 لِلرَّعِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْوَالِيَّ بِالْإِبْتِدَاءِ ، وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ
 بْنِ مُحَمَّدٍ : أَيُّ عَمٍّ ! تَعَقَّبَ قَوْلَنَا وَكُنْ حَكَمًا يَنْتَنَا
 وَأَرْسَلَ إِلَى وَلَدَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ فَأَحْضَرَهُمَا الْأَمْرَ

(١) كَسَرُوا الْخَرَاجَ أَيُّ كَفَوْا عَنْ ادَائِهِ

وَشَارَكَهُمَا فِي الرَّأْيِ، وَأَمَرَ مُحَمَّدٌ ^(١) بِنِ اللَّيْثِ بِحِفْظِ
مُرَاجَعَتِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ مَقَالَتِهِمْ فِي كِتَابِ .

فَقَالَ سَلَامٌ ^(٢) صَاحِبُ الْمَظَالِمِ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ غَايَةً ، وَلِكُلِّ
قَوْمٍ صِنَاعَةً ، اسْتَفْرَغْتَ رَأْيَهُمْ ، وَاسْتَعْرَقْتَ أَشْغَالَهُمْ
وَاسْتَنْفَدْتَ أَعْمَارَهُمْ ، وَذَهَبُوا بِهَا ، وَذَهَبَتْ بِهِمْ ،
وَعُرِفُوا بِهَا وَعُرفَتْ بِهِمْ ، وَلِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي
جَعَلْتَنَا فِيهَا غَايَةً ، وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا أَقْوَامٌ مِنْ
أَبْنَاءِ الْحَرْبِ وَسَاسَةِ الْأُمُورِ وَقَادَةِ الْجُنُودِ وَفُرْسَانَ
الْمُزَاهِرِ ^(٣) وَإِخْوَانَ التَّجَارِبِ ، وَأَبْطَالَ الْوَقَائِعِ الَّذِينَ

(١) هو ابن الليث بن نصر بن سيار. وكان قد أرسل المهدي أباه الليث
لحاربة المنقع فلم يتمكن منه وكان ابنه محمد هذا من كتاب المهدي ولم تعرف
سنة وفاته (٢) هو سلام بن الأبرش ، استعمله المنصور ثم تولى العقوبات
في أيام المهدي (٣) المزهري : تحريك البلايا والحروب في الناس

رَشَحْتَهُمْ سِجَالَهَا ، وَفَيَّاتَهُمْ ظِلَالَهَا ، وَعَضَّتْهُمْ
 شِدَائِدُهَا ، وَقَرَمَتْهُمْ نَوَاجِذُهَا ؛ فَلَوْ عَجَمْتَ مَا قَبْلَهُمْ
 وَكَشَفْتَ مَا عِنْدَهُمْ ؛ لَوَجَدْتَ نَظَائِرَ تُوَيْدُ أَمْرِكَ ،
 وَتَجَارِبَ تُوَافِقُ نَظْرَكَ ، وَأَحَادِيثَ تُقَوِّي قَلْبَكَ ،
 فَأَمَّا نَحْنُ مَعَاشِرَ عُمَّالِكَ ، وَأَصْحَابَ دَوَاوِينِكَ ،
 فَحَسَنُ بِنَا وَكَثِيرُ مِنَّا أَنْ نَقُومَ بِثَقْلِ مَا حَمَلْتَنَا مِنْ
 عَمَلِكَ ، وَاسْتَوْدَعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ ، وَشَغَلْتَنَا بِهِ مِنْ
 إِمْضَاءِ عَدْلِكَ ، وَإِنْفَازِ حُكْمِكَ وَإِظْهَارِ حَقِّكَ .

فَأَجَابَهُ الْمُهْدِيُّ : إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً :
 وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً ، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَدْيِيرًا يُبْطِلُ
 الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِزَمَانِنَا وَتَدْيِيرِ سُلْطَانِنَا ،
 قَالَ نَعَمْ أَيُّهَا الْمُهْدِيُّ ، أَنْتَ مُتَّبِعُ الرَّأْيِ ، وَثَبِيقُ

الْعُقْدَةُ قَوِيُّ الْمُنَّةِ ^(١) ، بَلِيغُ الْفِطْنَةِ ، مَعْصُومُ
 النِّيَّةِ ، مُحْضُورُ الرَّوِيَّةِ ، مُؤَيَّدُ الْبَدِيَّةِ ، مُوَفَّقُ
 الْعَزِيمَةِ ، مُعَانُ بِالْظَّفَرِ ، مَهْدِيٌّ إِلَى الْخَيْرِ ، إِنْ هَمَمْتَ
 نَفَى عَزْمِكَ مَوَاقِعَ الظَّنِّ ، وَإِنْ اجْتَمَعَتْ صَدَعُ
 فِعْلِكَ مُلْتَبَسَ الشَّكِّ ؛ فَاعْزِمِ يَهْدِ اللَّهُ إِلَى الصَّوَابِ
 قَلْبَكَ ، وَقُلْ يَنْطِقُ اللَّهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ ، فَإِنَّ
 جُنُودَكَ جَمَّةٌ ، وَخَزَائِنُكَ عَامِرَةٌ ، وَنَفْسُكَ سَخِيَّةٌ ،
 وَأَمْرُكَ نَافِذٌ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ الْمُشَاوَرَةَ وَالْمُنَاطَرَةَ بَابَا
 رَحْمَةٍ ، وَمِفْتَاحَا بَرَكَاتٍ ؛ لَا يَهْلِكُ عَلَيْهِمَا رَأْيٌ ،
 وَلَا يَتَغَيَّلُ ^(٢) مَعَهُمَا حَزْمٌ فَاشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ وَقُولُوا

(١) المنّة : القوة (٢) لا يتغيّل : لا يضعف

بِمَا يَحْضُرُكُمْ ، فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَتَوَفِّقُ اللَّهُ
مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ .

قَالَ الرَّيِّعُ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ تَصَارِيفَ وُجُوهِ الرَّاْيِ كَثِيرَةٌ
وَإِنَّ الْإِشَارَةَ بِيَعْضِ مَعَارِيضِ ^(١) الْقَوْلِ يَسِيرَةٌ وَلَكِنَّ
خُرَاسَانَ أَرْضٌ بَعِيدَةٌ الْمَسَافَةِ ، مُتَرَاخِيَةٌ الشُّقَّةِ ،
مُتَفَاوِتَةٌ السَّبِيلِ ، فَإِذَا ارْتَأَيْتُ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْبِيرِ
وَمُبْرَمِ التَّقْدِيرِ ، وَلُبَابِ الصَّوَابِ رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ
نَظْرُكَ ، وَقَلْبُهُ تَدْبِيرُكَ ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ
طَاعِنٌ وَلَا دُونَهُ مَعْلَقٌ لِخُصُومَةٍ عَائِبٍ ، ثُمَّ أَجَبْتَ
الْبُرْدَ بِهِ ، وَانْطَوَتْ الرُّسُلُ عَلَيْهِ ، كَانَ بِالْحَرَى

(١) معارِض الكلام: ما عارض به ولم يصرح به التورية بالشئ عن الشئ

أَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُهُ إِلَّا وَقَدْ حَدَثَ مِنْهُمْ مَا
 يَنْقُضُهُ، فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرُّسُلُ، وَتَرُدَّ عَلَيْكَ
 الْكُتُبُ بِحَقَائِقِ أَخْبَارِهِمْ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ،
 وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ، فَتُحَدِّثَ رَأْيًا غَيْرَهُ وَتَبْتَدِعَ
 تَذِيرًا سِوَاهُ، وَقَدْ انْفَرَجَتِ الْحَلَقُ، وَتَحَلَّلَتِ الْعُقَدُ،
 وَاسْتَرَخَى الْحَقَابُ^(١)، وَامْتَدَّ الزَّمَانُ، ثُمَّ لَعَلَّامَا مَوْقِعُ
 الْآخِرَةِ كَمَصْدَرِ الْأُولَى؛ وَلَكِنَّ الرَّأْيَ لَكَ أَيُّهَا
 الْمَهْدِيُّ - وَفَقَّكَ اللَّهُ - أَنْ تَصْرِفَ إِجَالََةَ النَّظَرِ،
 وَتَقْلِبَ الْفِكْرَ، فِيمَا جَمَعْتَنَا لَهُ، وَاسْتَشَرْتَنَا فِيهِ
 مِنَ التَّذِيرِ لِحَرْبِهِمْ، وَالْحِيلِ فِي أَمْرِهِمْ، إِلَى الطَّلَبِ
 لِرَجُلٍ ذِي دِينٍ فَاضِلٍ، وَعَقْلٍ كَامِلٍ، وَوَرَعٍ وَاسِعٍ،

(١) الحقاب: شيء تتخذ المرأة تعلق به معاليق الحلي تشده على وسطها

لَيْسَ مَوْصُوفًا بِهَوَىٰ فِي سِوَاكَ ، وَلَا مُهِتَمًا فِي أَثَرَةٍ
 عَلَيْكَ وَلَا ظَنِينًا^(١) عَلَى دُخْلَةٍ مَكْرُوهَةٍ ، وَلَا مَنَسُوبًا
 إِلَىٰ بِدْعَةٍ مَّحْذُورَةٍ ، فَيَقْدَحَ فِي مُلْكِكَ ، وَيُرْبِضَ^(٢)
 الْأُمُورَ لِعَيْرِكَ ، ثُمَّ تُسْنِدَ إِلَيْهِ أُمُورَهُمْ ، وَتَفُوضَ
 إِلَيْهِ حَرْبَهُمْ ، وَتَأْمُرَهُ فِي عَهْدِكَ وَوَصِيَّتِكَ إِيَّاهُ
 بِلِزُومِ أَمْرِكَ مَا لَزِمَهُ الْحَزْمُ ، وَخِلَافِ نَهْيِكَ إِذَا
 خَالَفَهُ الرَّأْيُ عِنْدَ اسْتِحَالَةِ الْأُمُورِ ، وَاشْتِدَادِ
 الْأَحْوَالِ ، الَّتِي يُنْقَضُ أَمْرُ الْغَائِبِ عَنْهَا ، وَيَثْبُتُ
 رَأْيُ الشَّاهِدِ لَهَا ، فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَوَاثِبَ أَمْرُهُمْ
 مِنْ قَرِيبٍ وَسَقَطَ عَنْهُ مَا يَأْتِي مِنْ بَعِيدٍ ، تَمَّتْ

(١) ظنينا : متهما ودخلة مكروهة : أى نية سيئة (٢) ويربض :

ربضة : أى أثبتته

الْحِيلَةُ وَقَوِيَّتِ الْمَكِيدَةُ، وَنَفَذَ الْعَمَلُ وَاحِدَ النَّظَرِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قَالَ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ وَلِيَّ الْأُمُورِ وَسَائِسَ الْحُرُوبِ
رُبَّمَا نَحَى جُنُودَهُ ، وَفَرَّقَ أَمْوَالَهُ فِي غَيْرِ مَا ضِيقٍ
أَمْرٍ حَزَبُهُ ، وَلَا ضَغْطَةِ حَالٍ اضْطَرَّتْهُ ، فَيَقْعُدُ عِنْدَ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، وَبَعْدَ التَّفْرِقَةِ لَهَا عَدِيماً مِنْهَا فَاقِدًا
لَهَا ، لَا يَثِقُ بِقُوَّةٍ ، وَلَا يَصُولُ بِعُدَّةٍ ، وَلَا يَفْزَعُ
إِلَى ثِقَةٍ ، فَالرَّأْيُ لَكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّكَ اللَّهُ —
إِنْ تُعْنِي خَزَائِنُكَ مِنَ الْإِتِّفَاقِ لِلْأَمْوَالِ وَجُنُودِكَ مِنْ
مُكَابَدَةِ الْأَسْفَارِ ، وَمُقَارَعَةِ الْأَخْطَارِ ، وَتَغْرِيرِ الْقِتَالِ ،
وَلَا تُسْرِعْ لِلْقَوْمِ فِي الْإِجَابَةِ إِلَى مَا يَطْلُبُونَ ،

وَالْعَطَاءِ لِمَا يَسْأَلُونَ ، فَيَفْسُدَ عَلَيْكَ أَدْبُهُمْ ، وَتُجْرِي
 مِنْ رَعِيَّتِكَ غَيْرُهُمْ ؛ وَلَكِنْ اغْزُهُمْ بِالْحِيلَةِ ، وَقَاتِلْهُمْ
 بِالْمَكِيدَةِ ، وَصَارِعْهُمْ بِاللِّينِ ، وَخَاتِلْهُمْ بِالرِّفْقِ ،
 وَأَبْرِقْ^(١) لَهُمْ بِالْقَوْلِ ، وَأَرْعِدْ^(٢) نَحْوَهُمْ بِالْفِعْلِ ،
 وَأَبْعَثِ الْبُعُوثَ^(٢) ، وَجَنِّدِ الْجُنُودَ ، وَكُتِّبِ الْكِتَابَ ،
 وَاعْقِدِ الْأَلْوِيَةَ ، وَأَنْصِبِ الرَّايَاتِ ، وَأَظْهِرْ أَنَّكَ
 مُوجَّهٌ إِلَيْهِمْ الْجِيُوشَ مَعَ أَحَقِّ قَوَادِكَ عَلَيْهِمْ ،
 وَأَسْوَأِهِمْ أَثَرًا فِيهِمْ . ثُمَّ أَدْسِسِ الرُّسُلَ ، وَابْنُثِ
 الْكُتُبَ ، وَضَعْ بَعْضَهُمْ عَلَى طَمَعٍ مِنْ وَعْدِكَ ،
 وَبَعْضًا عَلَى خَوْفٍ مِنْ وَعِيدِكَ ، وَأَوْقِدْ بِذَلِكَ
 وَأَشْبَاهَهُ نِيرَانَ التَّحَاسُدِ فِيهِمْ ، وَاغْرِسْ أَشْجَارَ

(١) أبرق وأرعد بمعنى تهدد وتوعد . (٢) البعوث : الجيوش .

التَّنَافُسِ بَيْنَهُمْ ، حَتَّى تَمَلَأَ الْقُلُوبُ مِنَ الْوَحْشَةِ ،
 وَتَنْطَوِيَ الصُّدُورُ عَلَى الْبَغْضَةِ ، وَيَدْخُلَ كَلَامٌ مِنْ
 كُلِّ الْحَذَرِ وَالْهَيْبَةِ ، فَإِنَّ مَرَامَ الظَّفَرِ بِالْغِيْلَةِ ،
 وَاقْتِتَالَ بِالْحِيلَةِ ، وَالْمُنَاصَبَةَ بِالْكُتُبِ ، وَالْمَكَايِدَةَ
 بِالرُّسُلِ ، وَالْمُقَارَعَةَ بِالْكَلَامِ اللَّطِيفِ الْمُدْخَلِ فِي
 الْقُلُوبِ ، الْقَوَى الْمَوْقِعِ مِنَ النُّفُوسِ ، الْمَعْقُودِ
 بِالْحُجَجِ ، الْمَوْصُولِ بِالْحِيلِ ، الْمُبْنِي عَلَى اللَّيْنِ الَّذِي
 يَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ ، وَيَسْتَرْقُ الْعُقُولَ وَالْآرَاءَ ،
 وَيَسْتَمِيلُ الْأَهْوَاءَ ، وَيَسْتَدْعِي الْمَوَاتَاةَ ، أَنْفَذُ
 مِنَ الْقِتَالِ بِضَبَاتِ السُّيُوفِ وَأَسِنَّةِ الرِّمَاحِ ؛ كَمَا أَنَّ
 الْوَالِيَّ الَّذِي يَسْتَنْزِلُ طَاعَةَ رَعِيَّتِهِ بِالْحِيلِ ، وَيُفَرِّقُ
 كَلِمَةَ عَدُوِّهِ بِالْمَكَايِدَةِ ، أَحْكَمُ عَمَلًا وَالْأَطْفُ

مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُ سِيَاسَةً مِنَ الَّذِي لَا يَنَالُ ذَلِكَ إِلَّا
بِالْقِتَالِ ، وَالْإِتْلَافِ لِلْأَمْوَالِ وَالتَّغْرِيرِ وَالْخُطَارِ^(١) .
وَلْيَعْلَمْ الْمَهْدِيُّ أَنَّهُ إِنْ وَجَّهَ لِقِتَالِهِمْ رَجُلًا لَمْ
يَسِرْ لِقِتَالِهِمْ إِلَّا بِجُنُودٍ كَثِيفَةٍ ، تَخْرُجُ عَنْ حَالٍ
شَدِيدَةٍ ، وَتُقَدِّمُ عَلَى أَسْفَارٍ ضَيِّقَةٍ ، وَأَمْوَالٍ مُتَفَرِّقَةٍ ،
وَقُودٍ غَشَشَةٍ ؛ إِنْ ائْتَمَنَهُمْ اسْتَنْفَدُوا مَالَهُ ،
وَإِنْ اسْتَنْصَحَهُمْ كَانُوا عَلَيْهِ لَا لَهُ .

قَالَ الْمَهْدِيُّ : هَذَا رَأْيٌ قَدْ أَسْفَرَ نُورَهُ ،
وَأَبْرَقَ ضَوْؤَهُ ، وَتَمَثَّلَ صَوَابُهُ لِلْعُيُونِ ، وَحُجِدَ حَقُّهُ
فِي الْقُلُوبِ ، وَلَكِنْ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ،
ثُمَّ نَظَرَ إِلَى ابْنِهِ عَلِيٍّ فَقَالَ : مَا تَقُولُ ؟

(١) الخطار: الأشراف على هلكة

قَالَ عَلِيٌّ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ : إِنَّ أَهْلَ خُرَّاسَانَ لَمْ يَخْلَعُوا عَنْ طَاعَتِكَ ، وَلَمْ يَنْصِبُوا مِنْ دُونِكَ أَحَدًا يَقْدَحُ فِي تَغْيِيرِ مُلْكِكَ ، وَيُرَبِّضُ الْأُمُورَ لِفَسَادِ دَوْلَتِكَ ، وَلَوْ فَعَلُوا لَكَانَ الْخَطْبُ أَيْسَرَ ، وَالشَّأْنُ أَصْغَرَ وَالْحَالُ أَدَلَّ ، لِأَنَّ اللَّهَ مَعَ حَقِّهِ الَّذِي لَا يَخْذُلُهُ ، وَعِنْدَ مَوْعِدِهِ الَّذِي لَا يُخْلِفُهُ ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَطَائِفَةٌ مِنْ شِيعَتِكَ ، الَّذِينَ جَعَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَالِيًّا ، وَجَعَلَ الْعَدْلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حَاكِمًا ، طَلَبُوا حَقًّا ، وَسَلَّوْا إِنْصَافًا ، فَإِنْ أَجَبْتَ إِلَى دَعْوَتِهِمْ وَنَفَسْتَ^(١) عَنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَلَاَحَمَ مِنْهُمْ حَالٌ ،

(١) نفست عنهم : فرجت عنهم .

أَوْ يَحْدُثَ مِنْ عِنْدِهِمْ فَتَقُ ، أَطَعْتَ أَمْرَ الرَّبِّ ،
 وَأَطَفَاتَ نَائِرَةً^(١) الْحَرْبِ ، وَوَفَّرْتَ خَزَائِنَ الْمَالِ ،
 وَطَرَحْتَ تَغْرِيرَ الْقِتَالِ ، وَحَمَلَ النَّاسُ مَحْمَلَ ذَلِكَ عَلَى
 طَبِيعَةِ جُودِكَ ، وَسَجِيَّةِ حِلْمِكَ ، وَإِسْجَاحِ^(٢) خَلِيقَتِكَ ،
 وَمَعْدَلَةِ نَظَرِكَ ، فَأَمِنْتَ أَنْ تُنْسَبَ إِلَى ضَعْفٍ ،
 وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِيمَا بَقِيَ دُرْبَةً ، وَإِنْ مَنَعْتَهُمْ مَا طَلَبُوا
 وَلَمْ تُجِبْنِهِمْ إِلَى مَا سَأَلُوا ، اعْتَدَلَتْ بِكَ وَبِهِمُ الْحَالُ ،
 وَسَاوَيْتَهُمْ فِي مَيْدَانِ الْخُطَابِ ؛ فَمَا أَرَبُ الْمَهْدِيَّ
 أَنْ يَعْمِدَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ ، مُقَرَّرِينَ بِمَمْلَكَتِهِ ،
 مُذْعِنِينَ لِطَاعَتِهِ ، لَا يُخْرِجُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ قُدْرَتِهِ ،
 وَلَا يُبَرِّئُونَهَا مِنْ عُيُودِيَّتِهِ ، فَيَمْلِكُهُمْ أَنْفُسُهُمْ

(١) نائرة الحرب : ما اشتعل وانقد منها (٢) الاسجاح مصدر
 أسجح الوالى : إذا أحسن العفو

وَيَخْلَعُ نَفْسَهُ عَنْهُمْ ، وَيَقِفُ عَلَى الْحِيلِ مَعَهُمْ ، ثُمَّ
يُجَازِيهِمُ السُّوءَ فِي حَدِّ الْمَنَازَعَةِ وَمُضْمَارِ الْمُخَاطَرَةِ ؛
أَيُرِيدُ الْمَهْدِيُّ — وَفَقَهُ اللَّهُ — الْأَمْوَالَ ؟ فَلَعَمْرِي
لَا يَنَالُهَا وَلَا يَظْفَرُ بِهَا إِلَّا بِإِنْفَاقٍ أَكْثَرَ مِنْهَا مِمَّا
يُطْلَبُ مِنْهُمْ وَأَضْعَافٍ مَا يُدْعَى قَبْلَهُمْ ، وَلَوْ نَالَهَا
فَحُمِلَتْ إِلَيْهِ ، أَوْ وُضِعَتْ بِخَرَائِطِهَا ^(١) بَيْنَ يَدَيْهِ ،
ثُمَّ تَجَافَى لَهُمْ عَنْهَا وَطَالَ عَلَيْهِمْ بِهَا ، لَكَانَ مِمَّا إِلَيْهِ
يُنْسَبُ وَبِهِ يُعْرَفُ مِنَ الْجُودِ الَّذِي طَبَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ،
وَجَعَلَ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَنَهْمَةَ نَفْسِهِ فِيهِ ؛ فَإِنْ قَالَ الْمَهْدِيُّ :
هَذَا رَأْيٌ مُسْتَقِيمٌ سَدِيدٌ فِي أَهْلِ الْخُرَاجِ الَّذِينَ شَكَّوْا
ظُلْمَ عُمَّالِنَا ، وَتَحَامَلُوا وَلَاتِنَا ، فَأَمَّا الْجُنُودُ الَّذِينَ

(١) الخريطة : وعاء من آدم وغيره

تَقْضُوا مَوَاقِيقَ الْعُهُودِ ، وَأَنْطَقُوا لِسَانَ الْإِرْجَافِ^(١) ،
وَفَتَحُوا بَابَ الْمَعْصِيَةِ ، وَكَسَرُوا قَيْدَ الْفِتْنَةِ ، فَقَدْ
يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ أَجْعَلَهُمْ نِكَالًا لِّغَيْرِهِمْ ، وَعِظَةً لِّسَوَاهُمْ ،
فَيَعْلَمَ الْمَهْدِيُّ أَنَّهُ لَوْ أُتِيَ بِهِمْ مَغُولِينَ فِي الْحَدِيدِ ،
مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ ؛ ثُمَّ اتَّسَعَ لِحْقَنِ دِمَائِهِمْ عَفْوُهُ ،
وَلِإِقَالَةِ عَثَرَتِهِمْ صَفْحُهُ ؛ وَاسْتَبْقَاهُمْ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ
حِزْبِهِ ، أَوْ لِمَنْ يَأْزَأُهُمْ مِنْ عَدُوِّهِ ، لَمَّا كَانَ بَدْءًا
مِنْ رَأْيِهِ وَلَا مُسْتَنْكَرًا مِنْ نَظَرِهِ ، لَقَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ
أَنَّهُ أَعْظَمُ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ عَفْوًا ، وَأَشَدُّهَا وَقْعًا ،
وَأَصْدَقُهَا صَوْلَةً ، وَأَنَّهُ لَا يَتَعَاطَمُهُ عَفْوٌ ، وَلَا

(١) الأرجاف : مصدر أرجف القوم إذا خاضوا في أخبار الفتن على
أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شيء

يَتَكَأَدُهُ^(١) صَفْحٌ ، وَإِنْ عَظُمَ الذَّنْبُ وَجَلَّ الْخَطْبُ ،
فَلَرَأَى لِمَهْدَى - وَفَقَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَنْ يَحُلَّ عُقْدَةَ
الْغَيْظِ بِالرَّجَاءِ لِحُسْنِ ثَوَابِ اللَّهِ فِي الْعَفْوِ عَنْهُمْ ،
وَأَنْ يَذْكُرَ أُولَى حَالَاتِهِمْ ، وَضِيعَةَ عِيَالَتِهِمْ ،
بِرَّاءِ بِهِمْ وَتَوَسُّعًا لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ إِخْوَانُ دَوْلَتِهِ وَأَرْكَانُ
دَعْوَتِهِ وَأَسَاسُ حَقِّهِ الَّذِينَ بَعِزَّتِهِمْ يَصُولُ ، وَبُحِجَّتِهِمْ
يَقُولُ ؛ وَإِنَّمَا مَثَلُهُمْ فِيمَا دَخَلُوا فِيهِ مِنْ مَسَاخِطِهِ ،
وَتَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ مَعَاصِيهِ ، وَانْطَوَوْا فِيهِ عَنْ إِجَابَتِهِ ،
وَمَثَلُهُ فِي قِلَّةِ مَا غَيَّرَ ذَلِكَ مِنْ رَأْيِهِ فِيهِمْ ، أَوْ نُقِلَ
مِنْ حَالِهِ لَهُمْ ، أَوْ تَغَيَّرَ مِنْ نِعْمَتِهِ بِهِمْ ، كَمَثَلِ
رَجُلَيْنِ أَخَوَيْنِ مُتَنَاصِرَيْنِ مُتَآزِرَيْنِ ، أَصَابَ أَحَدُهُمَا

(١) لا يتكأده : لا يشق عليه

خَبَلٌ عَارِضٌ ، وَلَهُوَ حَادِثٌ ، فَهَضَّ إِلَى أَخِيهِ
بِالْأَذَى ، وَتَحَامَلَ عَلَيْهِ بِالْمَكْرُوهِ ، فَلَمْ يَزِدْ أَخُوهُ
إِلَّا رِقَّةً لَهُ وَلُطْفًا بِهِ ، وَاحْتِيَالًا لِمُدَاوَاةِ مَرَضِهِ ،
وَمُرَاجَعَةِ حَالِهِ ، عَظْفًا عَلَيْهِ ، وَبِرًّا بِهِ ، وَمَرْحَمَةً لَهُ .
فَقَالَ الْمَهْدِيُّ : أَمَّا عَلِيٌّ فَقَدْ كَوَى سَمْتَ اللَّبَانِ
وَفَضَّ الْقُلُوبَ فِي أَهْلِ خُرَاسَانَ ، وَلِكُلِّ نَبَاٍ
مُسْتَقَرٍّ . ثُمَّ قَالَ : مَا تَرَى يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ يَعْنِي
مُوسَى ابْنَهُ .

فَقَالَ مُوسَى :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، لَا تَسْكُنْ إِلَى حَلَاوَةِ مَا يَجْرِي
مِنَ الْقَوْلِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَأَنْتَ تَرَى الدَّمَاءَ تَسِيلُ
مِنْ خَلَلِ فِعْلِهِمْ ، الْحَالُ مِنَ الْقَوْمِ يُنَادِي بِمُضْمَرَةٍ

شَرٍّ ، وَخَفِيَّةٍ حَقْدٍ ، قَدْ جَعَلُوا الْمَعَاذِيرَ عَلَيْهَا سِتْرًا ،
 وَاتَّخَذُوا الْعِلَلَ مِنْ دُونِهَا حِجَابًا ، رَجَاءً أَنْ يُدَافِعُوا
 الْأَيَّامَ بِالتَّأْخِيرِ ، وَالْأُمُورَ بِالتَّطْوِيلِ ، فَيَكْسِرُوا
 حِيلَ الْمَهْدِيِّ فِيهِمْ ، وَيُفْنُوا جُنُودَهُ عَنْهُمْ حَتَّى
 يَتَلَاَحَمَ أَمْرُهُمْ ، وَتَتَلَاَحَقَ مَادَتُهُمْ وَيَسْتَفْجِلَ حَرْبُهُمْ ،
 وَتَسْتَمِرَّ الْأُمُورُ بِهِمْ ، وَالْمَهْدِيُّ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي
 حَالِ غِرَّةٍ ، وَلِبَاسِ أَمْنَةٍ ، وَقَدْ فَتَرَ لَهَا ، وَأَنَسَ بِهَا
 وَسَكَنَ إِلَيْهَا ، وَلَوْلَا مَا اجْتَمَعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ،
 وَبَرَدَتْ عَلَيْهِ جُلُودُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَبَةِ بِالْقِتَالِ ، وَالْإِضْمَارِ
 لِلْقِرَاعِ عَنْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، أَوْ شَيْطَانِ فَسَادٍ ، لَرَهَبُوا
 عَوَاقِبَ أَخْبَارِ الْوَلَاةِ ، وَغَبَّ سُكُونِ الْأُمُورِ ،
 فَلْيَشْدُدِ الْمَهْدِيُّ — وَفَقَهُ اللَّهُ — أَرْزَهُ لَهُمْ ، وَيَكْتَبَ

كِتَابُهُ نَحْوَهُمْ ، وَلِيَضَعَ الْأَمْرَ عَلَى أَشَدِّ مَا يَحْضُرُهُ
 فِيهِمْ ، وَلِيُوقِنَ أَنَّهُ لَا يُعْطِيهِمْ خُطَّةً يُرِيدُ بِهَا
 صَلَاحَهُمْ إِلَّا كَانَتْ دُرْبَةً إِلَى فَسَادِهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى
 مَعْصِيَتِهِمْ ، وَدَاعِيَةً إِلَى عَوْدَتِهِمْ ؛ وَسَبَبًا لِفَسَادِ
 مَنْ بِحَضْرَتِهِ مِنَ الْجُنُودِ ، وَمَنْ بِيَابِهِ مِنَ الْوُفُودِ ،
 الَّذِينَ إِنْ أَقْرَهُمْ وَتَلَكَ الْعَادَةُ ، وَأَجْرَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ
 الْأَرْبِ ، وَلَمْ يَبْرَحْ فِي فَتَقِ حَادِثٍ وَخِلَافِ حَاضِرٍ ،
 لَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ دِينٌ ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ دُنْيَا ، وَإِنْ
 طَلَبَ تَغْيِيرَهُ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعَادَةِ ، وَاسْتِمْرَارِ
 الدَّرْبَةِ ، لَمْ يَصِلْ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْعُقُوبَةِ الْمُفْرِطَةِ ،
 وَالْمُؤْوَنَةِ الشَّدِيدَةِ ، وَالرَّأْيِ لِلْمَهْدِيِّ — وَفَقَهُ اللَّهُ —
 أَلَّا يُقِيلَ عَثَرَتَهُمْ ، وَلَا يَقْبَلَ مَعْذِرَتَهُمْ ، حَتَّى تَطَافُهُمْ

الْجُيُوشُ وَتَأْخُذْهُمْ السُّيُوفُ ، وَيَسْتَحِرُّ^(١) بِهِمُ الْقَتْلُ ،
وَيُحْدِقُ بِهِمُ الْمَوْتُ ، وَيُحِيطُ بِهِمُ الْبَلَاءُ ، وَيُطْبِقُ
عَلَيْهِمُ الذُّلُّ ، فَإِنْ فَعَلَ الْمَهْدِيُّ بِهِمْ ذَلِكَ كَانَ
مَقْطَعَةً لِكُلِّ عَادَةٍ سُوءٍ فِيهِمْ ، وَهَزِيمَةً لِكُلِّ
بَادِرَةٍ ، شَرٍّ مِنْهُمْ ، وَاحْتِمَالُ الْمَهْدِيِّ مَوْؤَنَةً غَزَوْتِهِمْ
هَذِهِ يَضَعُ عَنْهُ غَزَوَاتٍ كَثِيرَةً ، وَنَفَقَاتٍ عَظِيمَةً .
قَالَ الْمَهْدِيُّ : قَدْ قَالَ الْقَوْمُ فَاحْكُمْ يَا أَبَا الْفَضْلِ
فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مُحَمَّدٍ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ

أَمَّا الْمَوَالِي فَأَخْذُوا بِفُرُوعِ الرَّأْيِ ، وَسَلَكُوا
جَنَابَاتِ الصَّوَابِ ، وَتَعَدَّوْا أُمُورًا قَصَرَ بِنَظَرِهِمْ

عَنْهَا أَنَّهُ لَمْ تَأْتِ تِجَارِيَهُمْ عَلَيْهَا .
وَأَمَّا الْفَضْلُ فَأَشَارَ بِالْأَمْوَالِ أَلَّا تُنْفَقَ ،
وَالْجُنُودِ أَلَّا تُفَرَّقَ ، وَبِالْأَلَا يُعْطَى الْقَوْمَ مَا طَلَبُوا ،
وَلَا يُبْذَلْ لَهُمْ مَا سَأَلُوا ، وَجَاءَ بِأَمْرِ يَبْنِي ذَلِكَ
اسْتِصْفَارًا لِأَمْرِهِمْ ، وَاسْتِهَانَةً بِحَرْبِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَهِيْجُ
جَسِيَمَاتِ الْأُمُورِ صِغَارُهَا .

وَأَمَّا عَلَيَّ فَأَشَارَ بِاللِّينِ وَإِفْرَاطِ الرِّفْقِ . وَإِذَا
جَرَّدَ الْوَالِي لِمَنْ غَمَطَ^(١) أَمْرُهُ وَسَفِهَ حَقَّهُ ، اللَّيْنُ
بَحْتًا ، وَالْخَيْرُ مُحْضًا ، لَمْ يَخْلُطْهُمَا بِشِدَّةٍ تُعْطِفُ
الْقُلُوبَ عَنْ لَيْنِهِ ، وَلَا بِشَرٍّ يَحْبِسُهُمْ إِلَى خَيْرِهِ ،
فَقَدْ مَلَكَهُمْ الْخُلْعُ لِعُذْرِهِمْ ، وَوَسَّعَ لَهُمُ الْفُرْجَةُ

(١) غمط الأمر : ازدراه . وسفه حقه . امتننه وبخسه

لَتَنِي أَعْنَقِيهِمْ ، فَإِنْ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ وَقَبِلُوا لِيَنَّهُ مِنْ
غَيْرِ خَوْفٍ اضْطَرَّ لَهُمْ وَلَا شِدَّةٍ قَزَوَتْ^(١) فِي رُؤُوسِهِمْ
يَسْتَدْعُونَ بِهَا الْبَلَاءَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَيَسْتَصْرِخُونَ
بِهَا رَأَى الْمَهْدَى فِيهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلُوا دَعْوَتَهُ
وَيَسْرِعُوا لِإِجَابَتِهِ بِاللَّيْلِ الْمَحْضِ وَالْخَيْرِ الصُّرَاحِ ،
فَذَلِكَ مَا عَلَيْهِ الظَّنُّ بِهِمْ ، وَالرَّأْيُ فِيهِمْ ، وَمَا قَدْ
يُشْبِهُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مِثْلِهِمْ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ
الْجَنَّةَ وَجَعَلَ فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ وَالْمَلِكِ الْكَبِيرِ
مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْفِكْرُ ،
وَلَا تُعَامَهُ نَفْسٌ ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا وَرَغَّبَهُمْ
فِيهَا فَلَوْ لَا أَنَّهُ خَلَقَ نَارًا جَعَلَهَا لَهُمْ رَحْمَةً يَسْوِقُهُمْ

بِهَا إِلَى الْجَنَّةِ ، لَمَّا أَجَابُوا وَلَا قَبِلُوا .

وَأَمَّا مُوسَى فَأَشَارَ بِأَنْ تُعْصَبُوا^(١) بِشِدَّةٍ لَا لَيْنَ فِيهَا ، وَأَنْ يُرْمَوْا بِشَرٍّ لَا خَيْرَ مَعَهُ ، وَإِذَا أَضْمَرَ الْوَالِي لِمَنْ فَارَقَ طَاعَتَهُ ، وَخَالَفَ جَمَاعَتَهُ ، الْخَوْفَ مُفْرَدًا ، وَالشَّرَّ مُجَرَّدًا ، لَيْسَ مَعَهُمَا صَمْعٌ وَلَا لَيْنٌ يَنْبِيهِمْ ، اشْتَدَّتِ الْأُمُورُ بِهِمْ وَانْقَطَعَتْ الْحَالُ مِنْهُمْ إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَدْخُلَهُمُ الْحِمِيَّةُ مِنَ الشَّدَّةِ ، وَالْأَنَفَةُ مِنَ الذَّلَّةِ ، وَالْإِمْتِعَاضُ مِنَ الْقَهْرِ ، فَيَدْعُوهُمْ ذَلِكَ إِلَى التَّمَادِي فِي الْخِلَافِ ، وَالِاسْتِئْسَالِ فِي الْقِتَالِ ، وَالِاسْتِئْسْلَامِ لِلْمَوْتِ ، وَإِمَّا أَنْ يَنْقَادُوا بِالْكَرِهَةِ ، وَيَدْعُوا بِالْقَهْرِ عَلَى بُغْضَةٍ لَازِمَةٍ ،

(١) عصب الشيء : لواه وشده

وَعَدَاوَةٍ بَاقِيَةٍ ، تُورِثُ النِّفَاقَ ، وَتُعْقِبُ الشَّقَاقَ ،
فَإِذَا أَمَكَّنْتَهُمْ فُرْصَةً ، أَوْ ثَابَتَ لَهُمْ قُدْرَةٌ ، أَوْ
قَوِيَتْ لَهُمْ حَالٌ ، عَادَ أَمْرُهُمْ إِلَى أَصْعَبَ وَأَغْلَظَ
وَأَشَدَّ مِمَّا كَانَ

وَقَالَ فِي قَوْلِ الْفَضْلِ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، أَكْفَى دَلِيلٍ ، وَأَوْضَحُ بُرْهَانٍ
وَأَبِينُ خَبَرٍ بَانَ ، قَدْ أَجْمَعَ رَأْيُهُ ، وَحَزَمَ نَظَرُهُ ،
عَلَى الْإِرْشَادِ بَبِيعَةِ الْجُيُوشِ إِلَيْهِمْ ، وَتَوَجَّيْهِهِ الْبُعُوثِ
نَحْوَهُمْ ، مَعَ إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا مِنَ الْحَقِّ ، وَإِجَابَتِهِمْ
إِلَى مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْعَدْلِ .

قَالَ الْمَهْدِيُّ ذَلِكَ رَأْيٌ :

قَالَ هَارُونُ :

مَا خُلِطَتِ الشَّدَّةُ أَهْيَا الْمَهْدِيُّ بِاللِّينِ ، وَانْتَضَمَ
أَمْرُ الدُّنْيَا بِاللِّينِ ، فَصَارَتِ الشَّدَّةُ أَمْرًا فِطَامًا^(١)
لِمَا تَكَرَّهُ ، وَعَادَ اللَّيْنُ أَهْدَى قَائِدٍ إِلَى مَا يُحِبُّ ،
وَلَكِنْ أَرَى غَيْرَ ذَلِكَ .

قَالَ الْمَهْدِيُّ :

لَقَدْ قُلْتُ قَوْلًا بَدِيعًا ، خَالَفْتَ فِيهِ أَهْلَ يَتِّكَ
جَمِيعًا ، وَالْمَرْءُ مُؤْتَمِنٌ بِمَا قَالَ ، وَظَنِينَ^(٢) بِمَا ادَّعَى
حَتَّى يَأْتِيَ بَيِّنَةٌ عَادِلَةٌ ، وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ ، فَاخْرُجْ
عَمَّا قُلْتَ .

قَالَ هَارُونُ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ ، وَالْأَعَاجِمَ

(١) الفطام هنا : القطع والاستئصال (٢) ظنين بما ادعى : متهم بدعواه

قَوْمٌ مَكْرَةٌ، وَرُبَّمَا اغْتَدَلَتْ الْحَالُ بِهِمْ، وَاتَّقَتْ
 الْأَهْوَاءَ مِنْهُمْ، فَكَانَ بَاطِنُ مَا يُسِرُّونَ عَلَى ظَاهِرِ
 مَا يُعْلِنُونَ، وَرُبَّمَا افْتَرَقَتْ الْحَالَانِ، وَخَالَفَ الْقَلْبُ
 اللِّسَانُ، فَانْطَوَى الْقَلْبُ عَلَى مَحْجُوبَةٍ تُبْطِنُ،
 وَاسْتَسَرَّ بِمَدْخُولَةٍ لَا تُعْلَنُ، وَالطَّيِّبُ الرَّافِقُ
 بِطَبِّهِ، الْبَصِيرُ بِأَمْرِهِ، الْعَالِمُ بِمُقَدِّمِ يَدِهِ وَمَوْضِعِ
 مِيسَمِهِ^(١)، لَا يَتَعَجَّلُ بِالدَّوَاءِ حَتَّى يَقَعَ عَلَى مَعْرِفَةِ
 الدَّاءِ، فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ - وَفَقَهُ اللَّهِ - أَنْ يَفْرَّ بَاطِنُ
 أَمْرِهِمْ فَرَّ^(٢) الْمُسِنَّةُ، وَيَمْخُضُ^(٣) ظَاهِرُ حَالِهِمْ مَخْضَ
 السَّقَاءِ، بِمُتَابَعَةِ الْكُتُبِ وَمُظَاهَرَةِ الرُّسُلِ، وَمُؤَالَاةِ

(١) الميسم : المكواة . يوسم بها الحيوان (٢) فرّ الدابة : فتح
 فاهها وكشف عن أسنانها ينظر ما سنها . والمُسِنَّةُ من الدواب ما دخل في
 الثامنة (٣) يَمْخُضُ السَّقَاءُ : يحرك قربة اللبن ؛ يقصد الامعان في فحص حالهم

الْعُيُونِ ، حَتَّى تَهْتَكَ حُجْبُ عُيُونِهِمْ ، وَتُكْشَفَ
 أُغْطِيَةُ أُمُورِهِمْ ، فَإِنْ انْفَرَجَتْ الْحَالُ ، وَأَفْضَتْ
 الْأُمُورُ بِهِ إِلَى تَغْيِيرِ حَالٍ أَوْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، إِشْتَمَلَتْ
 الْأَهْوَاءُ عَلَيْهِ ، وَانْتَقَادَ الرِّجَالُ إِلَيْهِ ، وَامْتَدَّتْ الْأَعْنَاقُ
 نَحْوَهُ بِدِينٍ يَعْتَقِدُونَهُ ، وَإِثْمٍ يَسْتَحِلُّونَهُ ، عَصَبَهُمْ
 بِشِدَّةٍ لَا لِينَ فِيهَا ، وَرَمَاهُمْ بِعُقُوبَةٍ لَا عَفْوَ مَعَهَا ،
 وَإِنْ انْفَرَجَتْ الْعُيُونُ ، وَاهْتَصَرَتْ السُّتُورُ ، وَرُفِعَتْ
 الْحُجُبُ ، وَالْحَالُ فِيهِمْ مَرِيعَةٌ ، وَالْأُمُورُ بِهِمْ مُعْتَدَلَةٌ
 فِي أَرْزَاقٍ يَطْلُبُونَهَا ، وَأَعْمَالٍ يُنْكِرُونَهَا ، وَظُلَامَاتٍ
 يَدْعُونَهَا ، وَحُقُوقٍ يَسْأَلُونَهَا ، بِمَاتَةٍ (١) سَابَقَتْهُمْ ،
 وَدَالَّةٍ مُنَاصَحَتِهِمْ ؛ فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ — وَفَقَهُ اللَّهِ —

أَنْ يَتَّسِعَ لَهُمْ بِمَا طَلَبُوا ، وَيَتَجَانَى لَهُمْ عَمَّا كَرِهُوا ،
 وَيَشْعَبَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا ، وَيَرْتَقَ مِنْ فَتَقِهِمْ
 مَا قَطَعُوا ، وَيُؤَلَّى عَلَيْهِمْ مَنْ أَحْبَبُوا ، وَيُدَاوِي
 بِذَلِكَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ ، وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ . فَإِنَّمَا الْمَهْدِيُّ
 وَأُمَّتُهُ ، وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرَّفِيقِ ،
 وَالْوَالِدِ الشَّفِيقِ ، وَالرَّاعِي الْمَجْرَّبِ ، الَّذِي يَحْتَالُ
 لِمَرَابِضِ غَنَمِهِ ، وَضَوَالِ رَعِيَّتِهِ ، حَتَّى يُبْرِئَ الْمَرِيضَةَ
 مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا ، وَيَرُدَّ الصَّحِيحَةَ إِلَى أَنْسِ جَمَاعَتِهَا ؛
 ثُمَّ إِنَّ خُرَاسَانَ بِخَاصَّةِ الدِّينِ لَهُمْ دَلَّةٌ مَحْمُولَةٌ ،
 وَمَأْتَةٌ مَقْبُولَةٌ ، وَوَسِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَحَقُوقٌ وَاجِبَةٌ ،
 لِأَنَّهُمْ أَيْدِي دَوْلَتِهِ ، وَسُيُوفُ دَعْوَتِهِ ، وَأَنْصَارُ حَقِّهِ ،
 وَأَعْوَانُ عَدْلِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمَهْدِيِّ الاضْطِّغَانُ

عَلَيْهِمْ ، وَلَا الْمُؤَاخَذَةَ لَهُمْ ، وَلَا التَّوْغِيرُ^(١) بِهِمْ ،
وَلَا الْمَكَافَأَةَ بِإِسَاءَتِهِمْ ، لِأَنَّ مُبَادَرَةَ حَسَمِ الْأُمُورِ
ضَعِيفَةٌ قَبْلَ أَنْ تَقْوَى ، وَمُحَاوَلَةُ قَطْعِ الْأَصُولِ ضَائِلَةٌ
قَبْلَ أَنْ تَغْلُظَ ، أَحْزَمُ فِي الرَّأْيِ ، وَأَصَحُّ فِي التَّذْيِيرِ ،
مِنَ التَّأْخِيرِ لَهَا وَالتَّهَاوُنِ بِهَا ، حَتَّى يَلْتَسِمَ قَلِيلُهَا
بِكَثِيرِهَا ، وَتَجْتَمِعَ أَطْرَافُهَا إِلَى مُجْهُورِهَا .

قَالَ الْمَهْدِيُّ : مَا زَالَ هَارُونُ يَقَعُ وَقَعَ الْحَيَا حَتَّى
خَرَجَ خُرُوجَ الْقِدْحِ مِنَ الْمَاءِ ، وَانْسَلَّ انْسِلَالِ
السَّيْفِ فِيمَا ادَّعَى ، فَدَعُوا مَا سَبَقَ مُوسَى فِيهِ أَنَّهُ
هُوَ الرَّأْيُ ، وَثَبَّتْ بَعْدَهُ هَارُونُ ، وَلَكِنْ مَنْ لِأَعْنَةِ
الْخَيْلِ ، وَسِيَاسَةِ الْحَرْبِ ، وَقَادَةِ النَّاسِ إِنْ أَمَعْنَ بِهِمْ
اللَّجَاجُ ، وَأَفْرَطَتْ بِهِمُ الدَّالَّةُ .

(١) التَّوْغِيرُ بِهِمْ : التَّشْدِيدُ عَلَيْهِمْ

قَالَ صَالِحٌ :

لَسْنَا نَبْلُغُ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ بِدَوَامِ الْبَحْثِ ، وَطُولِ
 الْفِكْرِ ، أَذْنَى فِرَاسَةٍ رَأَيْكَ ، وَبَعْضَ لَحَظَاتِ
 نَظْرِكَ ، وَلَيْسَ يَنْفَضُّ عَنْكَ مِنْ يَبُوتَاتِ الْعَرَبِ
 وَرِجَالِ الْعَجَمِ ذُو دِينَ فَاضِلٍ ، وَرَأْيٍ كَامِلٍ ، وَتَدْبِيرٍ
 قَوِيٍّ ، تُقَلِّدُهُ حَرْبُكَ ، وَتَسْتَوِدُّعُهُ جُنْدُكَ ، مِمَّنْ
 يَحْتَمِلُ الْأَمَانَةَ الْعَظِيمَةَ وَيَضْطَلِعُ بِالْأَعْبَاءِ الشَّقِيَّةِ ،
 وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ مَيِّمُونَ النَّقِيبَةَ ^(١) ، مُبَارَكُ الْعَزِيمَةِ ،
 مَخْبُورُ التَّجَارِبِ ، مَحْمُودُ الْعَوَاقِبِ ، مَعْصُومُ الْعِزَمِ
 فَلَيْسَ يَقَعُ اخْتِيَارُكَ ، وَلَا يَقِفُ نَظْرُكَ عَلَى أَحَدٍ

(١) أى مبارك النفس ينجح فيما يحاول . ومخبور التجارب :

تَوَلَّيْهِ أَمْرَكَ ، وَتُسْنِدُ إِلَيْهِ ثَغْرَكَ ، إِلَّا أَرَاكَ اللَّهُ
مَا تُحِبُّ ، وَجَمَعَ لَكَ مِنْهُ مَا يُرِيدُ .

قَالَ الْمَهْدِيُّ : إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ لِقَدِيمِ عَادَةِ اللَّهِ
فِيهِ . وَحُسْنِ مَعُونَتِهِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ أُحِبُّ الْمُوَافَقَةَ
عَلَى الرَّأْيِ ، وَالْإِعْتِبَارَ لِلْمُشَاوَرَةِ فِي الْأَمْرِ الْمُهْمِّ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ اللَّيْثِ :

أَهْلُ خُرَاسَانَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، قَوْمٌ ذَوُو عِزَّةٍ
وَمَنْعَةٍ ، وَشَيَاطِينُ خَدَعَةٍ ، زُرُوعُ الْحِمِيَّةِ فِيهِمْ
نَابِتَةٌ ، وَمَلَابِسُ الْأَنَفَةِ عَلَيْهِمْ ظَاهِرَةٌ ، قَالَرَوِيَّةُ
عَنْهُمْ عَازِبَةٌ^(١) ، وَالْعَجَلَةُ فِيهِمْ حَاضِرَةٌ ، تَسْبِقُ

(١) العازب : الغائب

سُيُوفُهُمْ مَطَرُهُمْ ، وَسُيُوفُهُمْ عَذْلُهُمْ^(١) ، لَا بَيْنَ بَيْنَ
سِفْلَةٍ لَا يَعْدُو مَبْلَغَ عُقُولِهِمْ مَنَظَرَ عُيُونِهِمْ ، وَبَيْنَ
رُؤَسَاءَ لَا يُدْجَمُونَ إِلَّا بِشِدَّةٍ ، وَلَا يُفْطَمُونَ إِلَّا بِالْمَرِّ
وَإِنْ وَلَّى الْمَهْدِيُّ عَلَيْهِمْ وَضِعًا لَمْ تَنْقُدْ لَهُ
الْعُظَمَاءُ ، وَإِنْ وَلَّى أَمْرُهُمْ شَرِيفًا تَحَامَلَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ،
وَإِنْ أَخَّرَ الْمَهْدِيُّ أَمْرَهُمْ ، وَدَافَعَ حَرْبَهُمْ ، حَتَّى
يُصِيبَ لِنَفْسِهِ مِنْ حَشَمِهِ وَمَوَالِيهِ ، أَوْ بَنِي عَمِّهِ
أَوْ بَنِي أَيْيِهِ ، نَاصِحًا يَتَّفِقُ عَلَيْهِ أَمْرُهُمْ ، وَثِقَةً تَجْتَمِعُ
لَهُ أُمَلَاؤُهُمْ ، بَلَا أَفْقَةٍ تَلْزِمُهُمْ ، وَلَا حَمِيَّةٍ تَدْخُلُهُمْ ،
وَلَا مُصِيبَةٍ تُنْفِرُهُمْ ، تَنْفَسَتْ الْآيَامُ بِهِمْ ، وَتَرَاحَتْ

(١) العذل اسم مصدر من العذل بمعنى اللوم ومنه المثل « سبق السيف

العذل » يضرب لما قد فات

الْحَالُ بِأَمْرِهِمْ ، فَدَخَلَ بِذَلِكَ مِنَ الْفَسَادِ الْكَبِيرِ ،
وَالضِّيَاعِ الْعَظِيمِ ، مَا لَا يَتَلَفَاهُ صَاحِبُ هَذِهِ الصِّفَةِ
وَإِنْ جَدَّ ، وَلَا يَسْتَصْلِحُهُ وَإِنْ جَهَدَ ، إِلَّا بَعْدَ دَهْرِ
طَوِيلٍ ، وَشَرِّ كَبِيرٍ ؛ وَلَيْسَ الْمَهْدِيُّ — وَفَقَهُ اللَّهُ —
فَإِطْمَأَعَنَاتِهِمْ ، وَلَا قَارِعًا صَفَاتِهِمْ ، بِمِثْلِ أَحَدِ رَجُلَيْنِ
لَا ثَالِثَ لَهُمَا ، وَلَا عِدْلَ فِي ذَلِكَ بِهِمَا :

أَحَدُهُمَا لِسَانٌ نَاصِقٌ مَوْصُولٌ بِسَمْعِكَ ، وَيَدٌ
مُمَثِّلَةٌ لِعَيْنِكَ ، وَصَخْرَةٌ لَا تُزْعَزَعُ ، وَبُهْمَةٌ لَا يُشْنَى
وَبَازِلٌ لَا يُفْزَعُهُ صَوْتُ الْجُلْجُلِ ، نَقِيُّ الْعَرَضِ ،
نَزِيهُ النَّفْسِ ، جَلِيلُ الْخَطَرِ ، قَدْ اتَّضَعَتِ الدُّنْيَا
عَنْ قَدْرِهِ ، وَسَمَا نَحْوِ الْآخِرَةِ بِهِمَّتِهِ ، فَجَعَلَ
الْغَرَضَ الْأَقْصَى لِعَيْنِهِ نُصْبًا ، وَالْغَرَضَ الْأَدْنَى

لِقَدَمِهِ مَوْطِئًا ، فَلَيْسَ يَقْبَلُ عَمَلًا ، وَلَا يَتَعَدَّى
أَمَلًا ، وَهُوَ رَأْسُ مُوَالِيكَ ، وَأَنْصَحُ بَنِي أَيْيِكَ ،
رَجُلٌ قَدْ غُذِيَ بِلَطِيفِ كَرَامَتِكَ ، وَنَبَتَ فِي ظِلِّ
دَوْلَتِكَ ، وَنَشَأَ عَلَى قَوَائِمِ أَدَبِكَ ، فَإِنْ قَدَّرَتْهُ
أَمْرُهُمْ ، وَحَمَلَتْهُ ثِقَلُهُمْ ، وَأَسْنَدَتْ إِلَيْهِ ثَغَرَهُمْ ،
كَانَ قُفْلًا فَتَحَهُ أَمْرُكَ ، وَبَابًا أَغْلَقَهُ نَهْيُكَ ، فَجَعَلَ
الْعَدْلَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَمِيرًا ، وَالْإِنْصَافَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ
حَاكِمًا ، وَإِذَا حَكَّمَ النِّصْفَةَ وَسَلَكَ الْمَعْدِلَةَ ، فَأَعْطَاهُمْ
وَأَخَذَ مَا عَلَيْهِمْ ، غَرَسَ فِي النَّدَى لَكَ يَتْنٌ
صُدُورِهِمْ ، وَأَسْكَنَ لَكَ فِي السُّوَيْدَاءِ دَاخِلَ قُلُوبِهِمْ
طَاعَةً رَاسِخَةَ الْعُرُوقِ ، بَاسِقَةَ الْفُرُوعِ ، مُتَمَثِّلَةً
فِي حَوَاشِي عَوَامِهِمْ ، مُتَمَكِّنَةً مِنْ قُلُوبِ خَوَاصِّهِمْ

فَلَا يَبْقَى فِيهِمْ رَيْبٌ إِلَّا نَفَوْهُ ، وَلَا يَلْزَمُهُمْ حَقٌّ
إِلَّا أَدَّوْهُ وَهَذَا أَحَدُهُمَا .

وَالْآخِرُ عُودٌ مِنْ غَيْضَتِكَ ، وَنَبْعَةٌ مِنْ أَرْوَمَتِكَ
فَتَى السَّنِّ كَهْلُ الْحِلْمِ رَاجِعُ الْعَقْلِ مُحَمَّدُ الصَّرَامَةِ
مَأْمُونُ الْخِلَافِ ، يُجَرِّدُ فِيهِمْ سَيْفَهُ ، وَيَنْسُطُ
عَلَيْهِمْ خَيْرُهُ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّونَ ، وَعَلَى حَسَبِ
مَا يَسْتَوْجِبُونَ ، وَهُوَ فُلَانٌ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، فَسَلِّطْهُ
— أَعَزَّكَ اللَّهُ — عَلَيْهِمْ ، وَوَجَّهْهُ بِالْجُيُوشِ إِلَيْهِمْ
وَلَا تَمْنَعْكَ ضَرَاعَةٌ ^(١) سِنِّهِ ، وَحَدَاثَةٌ مَوْلِدِهِ ،
فَإِنَّ الْحِلْمَ وَالثَّقَّةَ مَعَ الْحَدَاثَةِ ، خَيْرٌ مِنَ الشَّكِّ
وَالْجَهْلِ مَعَ الْكُهُولَةِ ، وَإِنَّمَا أَحْدَاثُكُمْ أَهْلُ

(١) ضَرَاعَةُ سَنَةٍ : شَبَابُهُ وَحَدَاثَةُ سَنَةٍ

الْبَيْتِ فِيمَا طَبَعَكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَاخْتَصَّكُمْ بِهِ
 مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَحَامِدِ الْفِعَالِ ، وَمَحَاسِنِ
 الْأُمُورِ ، وَصَوَابِ التَّدْبِيرِ ، وَصَرَامَةِ الْأَنْفُسِ ،
 كَفِرَاحِ عِتَاقِ الطَّيْرِ الْمُحْكِمَةِ لِأَخْذِ الصَّيْدِ بِلَا
 تَدْرِيبٍ ، وَالْعَارِفَةِ بُوجُوهِ النِّفَعِ بِلَا تَأْدِيبٍ ،
 فَالْحِلْمِ وَالْعِلْمِ وَالْعَزْمِ وَالْحَزْمِ وَالْجُودِ وَالرِّفْقِ ثَابِتٌ
 فِي صُدُورِكُمْ ، مَزْرُوعٌ فِي قُلُوبِكُمْ ، مُسْتَحْكِمٌ
 لَكُمْ ، مُتَكَامِلٌ عِنْدَكُمْ ، بِطَبَائِعٍ لَازِمَةٍ ،
 وَغَرَائِزٍ ثَابِتَةٍ .

قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ :

اِفْتَاءَ أَهْلِ بَيْتِكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ فِي الْحِلْمِ عَلَى مَا
 ذَكَرَ ، وَأَهْلُ خُرَاسَانَ فِي حَالِ عِزٍّ عَلَى مَا وُصِفَ ،

وَلَكِنْ إِنْ وَلَّى الْمَهْدِيُّ عَلَيْهِمْ رَجُلًا لَيْسَ بِقَدِيمِ الذِّكْرِ
 فِي الْجُنُودِ ، وَلَا بِذَبِيهِ ، الصَّوْتِ فِي الْحُرُوبِ ،
 وَلَا بِطَوِيلِ التَّجَرُّبَةِ لِلْأُمُورِ ، وَلَا بِمَعْرِوْفِ السِّيَاسَةِ
 لِلْجُيُوشِ وَالْهَيْبَةِ فِي الْأَعْدَاءِ ، دَخَلَ ذَلِكَ أَمْرَانِ
 عَظِيمَانِ وَخَطَرَانِ مَهُولَانِ ، أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْأَعْدَاءَ
 يَغْتَمِزُونَهَا مِنْهُ وَيَحْتَقِرُّونَهَا فِيهِ ، وَيَحْتَرِثُونَ بِهَا عَلَيْهِ
 فِي النُّهْوضِ بِهِ وَالْمُقَارَعَةِ لَهُ ، وَالْخِلَافِ عَلَيْهِ قَبْلَ
 الْإِخْتِبَارِ لِأَمْرِهِ ، وَالتَّكْشُفِ لِحَالِهِ وَالْعِلْمِ بِطِبَاعِهِ .
 وَالْأَمْرُ الْآخَرُ : أَنَّ الْجُنُودَ الَّتِي يَقُودُ ، وَالْجُيُوشَ الَّتِي
 يَسُوسُ إِذَا لَمْ يَحْتَبِرُوا مِنْهُ الْبَأْسَ وَالنَّجْدَةَ ، وَلَمْ
 يَعْرِفُوهُ بِالصِّيتِ وَالْهَيْبَةِ ، انْكَسَرَتْ شَجَاعَتُهُمْ ،
 وَمَاتَتْ نَجْدَتُهُمْ ، وَاسْتَأْخَرَتْ طَاعَتُهُمْ إِلَى حِينٍ

اِخْتِبَارِهِمْ ، وَوُقُوعَ مَعْرِفَتِهِمْ ، وَرَبَّمَا وَقَعَ الْبَوَارُ
 قَبْلَ الْأُخْتِبَارِ ، وَبِبَابِ الْمَهْدِيِّ — وَفَقَّهُ اللَّهُ —
 رَجُلٌ مَهِيْبٌ نَبِيْهٌ حَنِِيْكَ صَيِّتٌ ، لَهُ نَسَبٌ زَاكٍ
 وَصَوْتُ عَالٍ ، قَدْ قَادَ الْجِيُوشَ وَسَاسَ الْحُرُوبَ ،
 وَتَأَلَّفَ أَهْلَ خُرَاسَانَ ، وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، بِالْمَقَّةِ ،
 وَوَثَقُوا بِهِ كُلَّ الشَّقَّةِ ، فَلَوْ وَلَّاهُ الْمَهْدِيُّ أَمْرَهُمْ ،
 لَكَفَاهُ اللَّهُ شَرَّهُمْ ، قَالَ الْمَهْدِيُّ : جَانِبَتْ قَصْدَ
 الرَّمِيَّةِ ، وَأَيَّنْتَ إِلَّا عَصَبِيَّةً ، إِذْ رَأَى الْحَدَثَ مِنْ
 أَهْلِ يَبْتَنَا كَرَأَى عَشْرَةَ حُكَمَاءَ مِنْ غَيْرِنَا ، وَلَكِنْ
 أَيْنَ تَرَكْتُمْ وَلِيَّ الْعَهْدِ .

قَالُوا :

لَمْ يَمْنَعْنَا مِنْ ذِكْرِهِ إِلَّا كَوْنُهُ شَبِيهَ جَدِّهِ ،

وَنَسِيحَ وَحْدِهِ ، وَمِنَ الدِّينِ وَأَهْلِهِ ، بِحَيْثُ يَقْصُرُ
الْقَوْلُ عَنْ أَذْنَى فَضْلِهِ ، وَلَكِنْ وَجَدْنَا اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ حَجَبَ عَنْ خَلْقِهِ ، وَسَتَرَ مِنْ دُونِ عِبَادِهِ عِلْمَ
مَا تَخْتَلِفُ بِهِ الْأَيَّامُ ، وَمَعْرِفَةَ مَا تَجْرِي عَلَيْهِ
الْمُقَادِيرُ ، مِنْ حَوَادِثِ الْأُمُورِ وَرَيْبِ الْمُنُونِ
الْمُحْتَرِمَةِ لِخَوَالِي الْقُرُونِ وَمَوَاضِي الْمُلُوكِ ، فَكَرِهْنَا
شُسُوعَهُ ^(١) عَنْ مَحَلَّةِ الْمُلْكِ وَدَارِ السُّلْطَانِ وَمَقَرِّ
الْإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ وَمَوْضِعِ الْمَدَائِنِ وَالْخَزَائِنِ وَمُسْتَقَرِّ
الْجُنُودِ وَمَعْدِنِ الْجُودِ ، وَمَجْمَعِ الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا
اللَّهُ قُطْبًا لِدَارِ الْمُلْكِ وَمِصْنَدَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ وَمَثَابَةً
لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ وَثَوَارِ الْفِتَنِ ، وَدَوَاعِيَ الْبِدْعِ

(١) شسوعه : ابتعاده

وَفُرْسَانِ الضَّلَالِ وَأَبْنَاءِ الْمَوْتِ . وَقُلْنَا : إِنَّ وَجْهَ
 الْمَهْدِيِّ وَلِيَ عَهْدِهِ فَحَدَّثَ فِي جُيُوشِهِ وَجُنُودِهِ
 مَا قَدْ حَدَّثَ بِجُنُودِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعْ
 الْمَهْدِيُّ أَنْ يُعَقِّبَهُمْ بِغَيْرِهِ إِلَّا أَنْ يَنْهَدَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ
 وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنَّ تَنَفَّسَتْ
 الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ ، وَاسْتَدَارَتْ الْحَالُ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى
 يَقَعَ عَوْضٌ لَا يُسْتَعْنَى عَنْهُ ، أَوْ يَحْدَثَ أَمْرٌ لَا بُدَّ
 مِنْهُ ، صَارَ مَا بَعْدَهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ هَوْلًا وَأَجَلُّ
 خَطَرًا لَهُ تَبَعًا وَبِهِ مُتَّصِلًا .

قال المهدي :

اخْطَبُ أَيْسَرُ مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِ
 مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ، نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ نَجْرِي

مِنْ أَسْبَابِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقِ
 مِنَ الْعِلْمِ وَمَحْتَوَمٍ مِنَ الْأَمْرِ ، قَدْ أَنْبَأَتْ بِهِ
 الْكُتُبُ ، وَنَبَّأَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ ، وَقَدْ تَنَاهَى ذَلِكَ
 بِأَجْمَعِهِ إِلَيْنَا ، وَتَكَامَلَ بِحِذَائِهِ عِنْدَنَا ، فِيهِ نُدَبِّرُ ،
 وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ . إِنَّهُ لَا بُدَّ لَوْلِيِّ عَهْدِي وَوَلِيِّ
 عَهْدِ عَقِي بَعْدِي أَنْ يَقُودَ إِلَى خُرَاسَانَ الْبُعُوثَ ،
 وَيَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ ، وَيُعْمَلُ
 فِيهِمْ حِيلَةٌ ، ثُمَّ يُخْرِجُ نَشِيطًا إِلَيْهِمْ حَقِيقًا عَلَيْهِمْ ،
 يُرِيدُ أَلَّا يَدَعَ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ الْفِتَنِ وَدَوَاعِي
 الْبِدْعِ وَفُرْسَانِ الضَّلَالِ ، إِلَّا تَوَطَّأَهُ بِحِرِّ الْقَتْلِ ،
 وَالْبَسَهُ قِنَاعَ الْقَهْرِ ، وَقَلَّدهُ طَوْقَ الذُّلِّ ، وَلَا أَحَدًا

مِنَ الَّذِينَ عَمِلُوا فِي قَصِّ جَنَاحِ الْفِتْنَةِ ، وَإِخْمَادِ نَارِ
 الْبِدْعَةِ ، وَنُصْرَةِ وُلَاةِ الْحَقِّ ، إِلَّا أُجْرِيَ عَلَيْهِمْ
 دِيمَ فَضْلِهِ ، وَجَدَاوِلَ نَهْلِهِ ، فَإِذَا خَرَجَ مُزْمِعًا بِهِ
 مُجْمِعًا عَلَيْهِ ، لَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَأْتِيَهُ أَنْ قَدْ
 عَمِلَتْ حِيلُهُ ، وَكَدَحَتْ ^(١) كُتْبُهُ وَنَفَذَتْ مَكَايِدُهُ ،
 فَهَدَّاتْ نَافِرَةُ الْقُلُوبِ ، وَوَقَعَتْ ^(٢) طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ ،
 وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْمُخْتَلِفُونَ بِالرِّضَا ، فَيَمِيلُ نَظَرًا لَهُمْ ،
 وَبِرًّا بِهِمْ ، وَتَعَطُّفًا عَلَيْهِمْ ، إِلَى عَدُوٍّ قَدْ أَخَافَ
 سَبِيلَهُمْ ، وَقَطَعَ طَرِيقَهُمْ ، وَمَنَعَ حُجَّاجَهُمْ يَتَ
 اللَّهُ الْحَرَامَ ، وَسَلَبَ ثُجَّارَهُمْ رِزْقَ اللَّهِ الْحَلَالَ .

(١) سعت ورأيت حتى أثرت (٢) وقعت طائفة الأهواء : خد
 غضبها وسكن روعها .

وَأَمَّا الْآخَرُ فَإِنَّهُ يُوجِبُهُ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تُعْتَقَدُ
لَهُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ، بِإِعْطَاءِ مَا يَطْلُبُونَ ، وَبَذَلِ
مَا يَسْأَلُونَ ، فَإِذَا سَمَحَتْ الْفِرْقُ لِقَرَابَاتِهَا لَهُ ،
وَجَنَحَ أَهْلُ النَّوَاحِي بِأَغْنَاهُمْ نَحْوَهُ ، فَاصْغَتْ
إِلَيْهِ الْأَفْنِدَةُ ، وَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْكَلِمَةُ ، وَقَدِمَتْ
عَلَيْهِ الْوُفُودُ قَصْدَ الْأَوَّلِ نَاحِيَةٍ نَجَعَتْ بِطَاعَتِهَا
وَأَلْقَتْ بِأَرْمَتِهَا ، فَأَلْبَسَهَا جَنَاحَ نِعْمَتِهِ ، وَأَنْزَلَهَا
ظِلَّ كَرَامَتِهِ ، وَخَصَّهَا بِعَظِيمِ حَبَائِهِ ، ثُمَّ عَمَّ
الْجُمَاعَةَ بِالْمُعْدَلَةِ ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ ، فَلَا
تَبْقَى فِيهِمْ نَاحِيَةٌ دَانِيَةٌ وَلَا فِرْقَةٌ قَاصِيَةٌ ، إِلَّا
دَخَلَتْ عَلَيْهَا بَرَكَتُهُ ، وَوَصَلَتْ إِلَيْهَا مَنَفَعَتُهُ ،
فَاغْنَى فَقِيرَهَا ، وَجَبَرَ كَسِيرَهَا ، وَرَفَعَ وَضِيعَهَا ،

وَزَادَ رَفِيعَهَا مَا خَلََا نَاحِيَتَيْنِ ، نَاحِيَةً يَغْلِبُ عَلَيْهَا
الشَّقَاءُ . وَتَسْتَمِيلُهُمُ الْأَهْوَاءُ ، فَتَسْتَخِفُّ بِدَعْوَتِهِ ،
وَتُبْطِئُ عَنْ إِجَابَتِهِ ، وَتَتَشَاوَلُ عَنْ حَقِّهِ ، فَتَكُونُ
آخِرَ مَنْ يَبْعَثُ وَأَبْطَأَ مَنْ يُوجِّهُ ، فَيَصْطَلِي عَلَيْهَا
مَوْجِدَةً ، وَيَبْتَغِي لَهَا عِلَّةً ، لَا يَلْبَثُ أَنْ يَجِدَّ
بِحَقِّ يَلْزَمُهُمْ وَأَمْرٍ يَحِبُّ عَلَيْهِمْ ، فَتَسْتَلْحِمُهُمُ
الْجُيُوشُ ، وَتَأْكُلُهُمُ السُّيُوفُ ، وَيَسْتَحِرُّ بِهِمُ
الْقَتْلُ ، وَيُحِيطُ بِهِمُ الْأَسْرُ ، وَيُفْنِيهِمُ التَّتَبُّعُ ،
حَتَّى يُخَرَّبَ الْبِلَادَ ، وَيُوتَمَ الْأَوْلَادَ ، وَنَاحِيَةَ
لَا يَنْسُطُ لَهُمْ أَمَانًا ، وَلَا يَقْبَلُ لَهُمْ عَهْدًا ،
وَلَا يَجْعَلُ لَهُمْ ذِمَّةً ، لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ فَتَحَ بَابَ
الْفُرْقَةِ ، وَتَدْرَعُ جِلْبَابَ الْفِتْنَةِ ، وَرَبَضَ فِي شَقِّ

الْعَصَا ، وَلَكِنَّهُ يَقْتُلُ أَغْلَامَهُمْ ، وَيَأْسِرُ قَوَادِمَهُمْ ،
وَيَطْلُبُ هُرَابَهُمْ فِي لُجَجِ الْبَحَارِ ، وَقُلَلِ الْجِبَالِ ،
وَحَمْلِ الْأَوْدِيَةِ ، وَبُطُونِ الْأَرْضِ ، تَقْتِيلًا وَتَغْلِيلًا
وَتَنْكِيلًا ، حَتَّى يَدَعَ الدِّيَارَ خَرَابًا وَالنِّسَاءَ أَيَامَى ،
وَهَذَا أَمْرٌ لَا نَعْرِفُ لَهُ فِي كُتُبِنَا وَقْتًا ، وَلَا نَصَحْحُ
مِنْهُ غَيْرَ مَا قُلْنَا تَفْسِيرًا .

وَأَمَّا مُوسَى وَلِيُّ عَهْدِي فَهَذَا أَوَانُ تَوَجُّهِهِ إِلَى
خُرَاسَانَ ، وَحُلُولِهِ بِجُرْجَانَ ، وَمَا قَضَى اللَّهُ لَهُ مِنْ
الشُّخُوصِ إِلَيْهَا ، وَالْمُقَامِ فِيهَا ، خَيْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ مَغَبَّةً ،
وَلَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَاقِبَةٌ مِنَ الْمُقَامِ ، بِحَيْثُ يُعْمَرُ فِي لُجَجِ
بُحُورِنَا ، وَمَدَافِعِ سَيُولِنَا ، وَمَجَامِعِ أَمْوَاجِنَا ، فَيَتَصَاغَرُ

عَظِيمُ فَضْلِهِ ، وَيَتَذَابُ^(١) مَشْرِقُ نُورِهِ ، وَيَتَقَلَّلُ
كَثِيرُ مَا هُوَ كَانَتْ مِنْهُ ، فَمَنْ يَصْحَبُهُ مِنْ الْوُزَرَاءِ
وَيُخْتَارُ لَهُ مِنَ النَّاسِ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ اللَّيْثِ :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ : إِنَّ وَلِيَّ عَهْدِكَ أَصْبَحَ لِأُمَّتِكَ وَأَهْلِ
بَيْتِكَ عِلْمًا ، قَدْ تَشَتَّتْ نَحْوُهُ أَعْنَاقُهَا وَمَدَّتْ سَمَتُهُ
أَبْصَارُهَا ، وَقَدْ كَانَ لِقُرْبِ دَارِهِ مِنْكَ ، وَمَحَلِّ
جَوَارِهِ لَكَ ، عُطِلَ الْحَالِ غُفْلَ الْأَمْرِ وَاسِعِ الْعُذْرِ ،
فَأَمَّا إِذَا انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ وَخَلَا بِنَظَرِهِ وَصَارَ إِلَى تَدْيِيرِهِ ،
فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْعَامَّةِ أَنْ تَتَفَقَّدَ^(٢) مَخَارِجَ رَأْيِهِ ،
وَتَسْتَنْصِتَ لِمَوَاقِعِ آثَارِهِ ، وَتَسْأَلَ عَنْ حَوَادِثِ

(١) يَتَذَابُ : يَجِبُثُ (٢) تَتَفَقَّدُ مَخَارِجَ رَأْيِهِ : أَيْ تَفْحَصُ عَنْ

وَجُوهَ رَأْيِهِ وَتَدْيِيرِهِ

أَحْوَالِهِ فِي بَرِّهِ وَمَرْحَمَتِهِ ، وَإِقْسَاطِهِ وَمَعْدَلَتِهِ ، وَتَدْبِيرِهِ
وَسِيَاسَتِهِ ، وَوُزَرَاءِهِ وَأَصْحَابِهِ ، ثُمَّ يَكُونُ مَا سَبَقَ
إِلَيْهِمْ أَغْلَبُ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْلَكُ ^(١) الْأُمُورِ بِهِمْ ،
وَالزُّمُّهَا لِقُلُوبِهِمْ ، وَأَشَدُّهَا اسْتِمَالَةً لِرَأْيِهِمْ وَعَظْفًا
لِأَهْوَائِهِمْ ، فَلَا يَفْتَأُ الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّهُ اللَّهُ — نَظْرًا
لَهُ فِيمَا يُقَوِّي عُمْدَ مَمْلَكَتِهِ ، وَيُسَدِّدُ أَرْكَانَ وَلَايَتِهِ ،
وَيَسْتَجْمَعُ رِضَا أُمَّتِهِ بِأَمْرِ هُوَ أَزِينُ حَالِهِ وَأَظْهَرُ
لِجَمَالِهِ ، وَأَفْضَلُ مَغَبَّةٍ لِأَمْرِهِ ، وَأَجَلُّ مَوْقِعًا فِي قُلُوبِ
رَعِيَّتِهِ ، وَأَحْمَدُ حَالًا فِي نُفُوسِ أَهْلِ مِلَّتِهِ ، وَلَا أَدْفَعُ
مَعَ ذَلِكَ بِاسْتِجْمَاعِ الْأَهْوَاءِ لَهُ ، وَأَبْلَغُ فِي اسْتِعْطَافِ
الْقُلُوبِ عَلَيْهِ ، مِنْ مَرْحَمَةٍ تَظْهَرُ مِنْ فِعْلِهِ ، وَمَعْدَلَةٍ

(١) أَمْلَكُ الْأُمُورِ : أَضْبَطُهَا

تَنْتَشِرُ عَنْ أَثَرِهِ وَحُبَّةٍ لِلْخَيْرِ وَأَهْلِهِ ، وَأَنْ يَخْتَارَ
 الْمَهْدِيُّ — وَفَقَهُ اللَّهُ — مِنْ خِيَارِ أَهْلِ كُلِّ بَلَدَةٍ ،
 وَفُقَهَاءِ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَقْوَامًا تَسْكُنُ إِلَيْهِمُ الْعَامَّةُ
 إِذَا ذُكِرُوا ، وَتَأْنَسُ الرَّعِيَّةُ بِهِمْ إِذَا وُصِفُوا ، ثُمَّ
 تُسَهِّلُ لَهُمْ عِمَارَةَ سُبُلِ الْإِحْسَانِ وَفَتْحُ بَابِ
 الْمَعْرُوفِ ، كَمَا قَدْ كَانَ فُتِحَ لَهُ وَسُهِّلَ عَلَيْهِ .

قَالَ الْمَهْدِيُّ : صَدَقْتَ وَلَصَحْتَ ثُمَّ بَعَثَ فِي ابْنِهِ
 مُوسَى فَقَالَ :

أَيُّ مُبْنَى ، إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ لِسَمْتٍ ^(١) وَجُوهِ
 الْعَامَّةِ نُسْبًا ، وَلَمَتْنِي أَعْطَافٍ ^(٢) الرَّعِيَّةِ غَايَةً ،

(١) السمت : المذهب والتقصيد (٢) الأعطاف : جمع عطف وهو الجانب

فَحَسَنَتُكَ شَامِلَةٌ ، وَإِسَاءَتُكَ نَائِيَةٌ ، وَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ ،
فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، فَاحْتَمِلْ سُخْطَ النَّاسِ
فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبْ رِضَاهُمُ بِخِلَافِهِمَا ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ كَافِيكَ مَنْ أَسْخَطَهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَاهُ ،
وَلَيْسَ بِكَافِيكَ مَنْ يُسْخِطُهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَا
مَنْ سِوَاهُ ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ
فِتْرَةً مِنْ رُسُلِهِ ، وَبَقَايَا مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ وَخَبَايَا
لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يُجَدِّدُ حَبْلَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ،
وَيُشِيدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِنُصْرَتِهِمْ ، وَيَتَّخِذُ لِأَوْلِيَائِهِ
دِينِهِ أَنْصَارًا ، وَعَلَى إِقَامَةِ عَدْلِهِ أَعْوَانًا ، يَسُدُّونَ
الْخَلَلَ وَيُقِيمُونَ الْمِيزَانَ ، وَيَدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ
الْفَسَادَ ، وَإِنَّ أَهْلَ خُرَاسَانَ أَصْبَحُوا أَيْدِي دَوْلَتِنَا ،

وَسُيُوفَ دَعْوَتِنَا الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمَكَارَةَ بِطَاعَتِهِمْ ،
وَنَسْتَصْرِفُ نُزُولَ الْعَظَائِمِ بِمُنَاصَحَتِهِمْ ، وَنُدَافِعُ رَيْبَ
الزَّمَانِ بِعَزَائِمِهِمْ ، وَنُزَاحِمُ رُكْنَ الدَّهْرِ بِبَصَائِرِهِمْ ،
فَهُمْ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أُرْجِفَتْ كُنْفُهَا ^(١) ، وَخَوْفُ
الْأَعْدَاءِ إِذَا بَرَزَتْ صَفْحَتُهَا ، وَحُصُونُ الرَّعِيَّةِ إِذَا
تَضَايَقَتِ الْحَالُ بِهَا ، قَدْ مَضَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ
صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ، أَخَذَتْ نِيرَانَ الْفِتَنِ
وَقَسَمَتْ دَوَاعِيَ الْبِدْعِ ، وَأَزَلَّتْ رِقَابَ الْجَبَّارِينَ ،
وَلَمْ يَنْفَكُوا كَذَلِكَ مَا جَرَوْا مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ،
وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِجِبْلِ طَاعَتِنَا ،
الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا ذِلَّتَهُمْ وَرَفَعَ بِهَا ضَعْفَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ

(١) الكنف جمع كنف وهو الجانب . وأرجفت : زلزلت

بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ
 الْعَالَمِينَ بَعْدَ لِبَاسِ الذُّلِّ ، وَقِنَاعِ الْخَوْفِ ، وَإِطْبَاقِ
 الْبَلَاءِ وَمُخَالَفَةِ الْأَسَى ، وَجَهْدِ الْبَأْسِ وَالضَّرِّ ،
 فَظَاهِرٍ عَلَيْهِمْ لِبَاسَ كَرَامَتِكَ ، وَأَنْزِلُهُمْ فِي حَدَائِقِ
 نِعْمَتِكَ ، ثُمَّ اعْرِفْ لَهُمْ حَقَّ طَاعَتِهِمْ ، وَوَسِيلَةَ
 دَلَّتِهِمْ ، وَمَاتَةَ سَابِقَتِهِمْ ، وَحُرْمَةَ مُنَاصَحَتِهِمْ ،
 بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِثَابَةِ
 لِمُحْسِنِهِمْ ، وَالْإِقَالَةِ لِمُسِيئِهِمْ .

أَيُّ مُبْنَى ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَامَّةَ فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا
 بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا بِالْإِنْصَافِ لَهَا ،
 وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَثَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ،
 وَاجْعَلْ عُمَالَ الْعُذْرِ وَوُلَاةَ الْحُجَجِ مُقَدِّمَةً بَيْنَ عَمَلِكَ ،

وَلَصَفَةً مِنْكَ لِرِعِيَّتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاضِيَ كُلِّ
بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ
رَجُلًا تَوَلَّيْهِ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلَ الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُ
وَبَيْنَهُمْ ، فَإِنْ أَحْسَنَ حُدُثَ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذِرَتْ ،
هُوَئِلَاءَ عُمَالُ الْعُذْرِ وَوُلاَةُ الْحَجَجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ
عَلَيْكَ مَا فِي ذَلِكَ إِذَا انْتَشَرَ فِي الْآفَاقِ ، وَسَبَقَ
إِلَى الْأَسْمَاعِ ، مِنْ انْعِقَادِ السِّنَةِ الْمُرْجِفِينَ ، وَكَبَتْ
قُلُوبُ الْحَاسِدِينَ ، وَإِطْفَاءُ نِيرَانِ الْحُرُوبِ ، وَسَلَامَةُ
عَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَلَا يَنْفَكَنَّ فِي ظِلِّ كَرَامَتِكَ نَازِلًا ،
وَبِعُرَا حَبْلِكَ مُتَعَلِّقًا رَجُلَانِ : أَحَدُهُمَا كَرِيمَةٌ ^(١)
مِنْ كَرَامَتِ رِجَالِ الْعَرَبِ ، وَأَعْلَامُ يُيُوتَاتِ

(١) الكريمة : صاحب الكرم . وكرائم الرجال : أخايرُ رجال
العرب وأحسنهم

الشَّرَفُ ، لَهُ أَدَبٌ فَاضِلٌ ، وَحِلْمٌ رَاجِحٌ ، وَدِينٌ صَحِيحٌ ،
وَالْآخِرُ لَهُ دِينٌ غَيْرُ مَغْمُوزٍ ^(١) ، وَمَوْضِعٌ غَيْرُ مَدْخُولٍ ،
بَصِيرَةٌ بِتَقْلِيدِ الْكَلَامِ وَتَصْرِيفِ الرَّأْيِ وَأَنْحَاءِ
الْعَرَبِ وَوَضْعِ الْكُتُبِ ، عَالِمٌ بِحَالَاتِ الْحُرُوبِ
وَتَصَارِيفِ الْخُطُوبِ ، يَضَعُ آدَابًا نَافِعَةً وَآثَارًا بَاقِيَةً ،
مِنْ مُحَاسِنِكَ وَتَحْسِينِ أَمْرِكَ وَتَحْلِيَةِ ذِكْرِكَ ، فَتَسْتَشِيرُهُ
فِي حَرْبِكَ ، وَتُدْخِلُهُ فِي أَمْرِكَ ، فَرَجُلٌ أَصَبَتْهُ كَذَلِكَ
فَهُوَ يَأْوِي إِلَى مَحَلَّتِي ، وَيَرْعَى فِي خُضْرَةِ جَنَانِي ،
وَلَا تَدْعُ أَنْ تَخْتَارَ لَكَ مِنْ فُقَهَاءِ الْبُلْدَانِ ، وَخِيَارِ
الْأَمْصَارِ ، أَقْوَامًا يَكُونُونَ جِيرَانَكَ وَسَمَّارَكَ ، وَأَهْلَ
مُشَاوَرَتِكَ فِيمَا تُورِدُ ، وَأَصْحَابَ مُنَاطَرَتِكَ فِيمَا

(١) غير مغموز : غير مطعون . وغير مدخول : لا يداخله فساد

تُصَدِّرُ . فِيسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ، أَصْحَبَكَ اللَّهُ مِنْ عَوْنِهِ
وَتَوْفِيقِهِ دَلِيلًا يَهْدِي إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ ، وَهَادِيًا
يُنْطِقُ بِالْخَيْرِ لِسَانَكَ .



وَإِلَيْكَ عَهْدَ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ ، وَيَحْذَرُ بِكَ
أَنْ تُقَارِنَهُ بِمَا سَبَقَهُ مِنْ عُهْدٍ ، وَأَنْ يُمَثَّلَ لَكَ
النَّشْرُ الْعَرَبِيُّ فِي أَزْهَى الْعُصُورِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَمَبْلَغِ
عِلْمِ الْقَوْمِ بِالثَّقَافَاتِ الْأُخْرَى ، وَاطَّلَاعِهِمْ عَلَى
الْمَدَنِيَّاتِ الْمُتَفَاوِتَةِ :

قَالَ ابْنُ طَيْفُورٍ : وَلَمَّا عَهْدَ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ
إِلَى عَبْدِ اللَّهِ ابْنِهِ هَذَا الْعَهْدَ ، تَنَازَعَهُ النَّاسُ وَكَتَبُوهُ
وَتَدَارَسُوهُ ، وَشَاعَ أَمْرُهُ ، حَتَّى بَلَغَ الْمَأْمُونُ ،
فَدَعَا بِهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : مَا أَبْقَى أَبُو الطَّيِّبِ

شَيْئًا مِنَ الدِّينِ وَالْدُنْيَا ، وَالتَّذْيِيرِ وَالرَّأْيِ ، وَإِصْلَاحِ
 الْمُلْكِ وَالرَّعِيَّةِ ، وَحِفْظِ الْبَيْعَةِ ، وَطَاعَةِ الْخُلَفَاءِ ،
 وَتَقْوِيمِ الْخِلَافَةِ : إِلَّا وَقَدْ أَحْكَمَهُ ، وَأَوْصَى بِهِ ،
 وَتَقَدَّمَ فِيهِ ؛ وَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ بِذَلِكَ إِلَى جَمِيعِ
 الْعُمَلَاءِ فِي نَوَاحِي الْأَعْمَالِ ، وَهَآكِهِ :

« عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَخَشْيَتِهِ
 وَمُرَاقَبَتِهِ وَمُزَايَلَةَ سَخَطِهِ ، وَحِفْظِ رَعِيَّتِكَ ؛ وَالزَّمْ
 مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ فِي الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ ، وَمَا أَنْتَ
 صَائِرٌ إِلَيْهِ ، وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ ، وَمَسْئُولٌ عَنْهُ ، وَالْعَمَلِ
 فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ اللَّهُ وَيُنْجِيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 مِنْ عَذَابِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ ،
 وَأَوْجَبَ عَلَيْكَ الرَّأْفَةَ بِمَنْ اسْتَرْعَاكَ أَمْرُهُمْ مِنْ

عِبَادِهِ ، وَأَلْزَمَكَ الْعَدْلَ عَلَيْهِمْ ، وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ
 وَخُدُودِهِ فِيهِمْ ، وَالذَّبَّ عَنْهُمْ ، وَالِدَفْعَ عَنْ حَرِيمِهِمْ
 وَيَيْضَتِهِمْ ، وَالْحَقْنَ لِدِمَائِهِمْ ، وَالْأَمْنَ لِسَبِيلِهِمْ ،
 وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ ، وَمُؤَاخِذَكَ بِمَا
 فَرَضَ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ ، وَمُؤَقِّفَكَ عَلَيْهِ ، وَمُسَائِلَكَ
 عَنْهُ ، وَمُثِيبَكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ؛ فَفَرَّغْ
 لَذَلِكَ فِكْرَكَ وَعَقْلَكَ وَبَصْرَكَ وَرَوِيَّتَكَ ، وَلَا يَذْهَبْكَ
 عَنْهُ ذَهَلٌ ، وَلَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شُغْلٌ ، فَإِنَّهُ رَأْسُ
 أَمْرِكَ ، وَمِلَاكُ شَأْنِكَ ، وَأَوَّلُ مَا يُؤَقِّفُكَ اللَّهُ بِهِ
 لِرَشْدِكَ ؛ وَلَيْكُنْ أَوَّلَ مَا تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ ، وَتُنَسِّبُ
 إِلَيْهِ فِعَالَكَ : الْمُوَاطَّأَةَ عَلَى مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ
 الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ قِبَلَكَ

فِي مَوَاقِيَتِهَا عَلَى سُنَنِهَا فِي إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ لَهَا وَافْتِتَاحِ
 ذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا ، وَتَرْتَلٍّ فِي قِرَاءَتِكَ ، وَتَمَكُّنٍ فِي
 رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشْهَدِكَ ، وَلِتَصْدُقَ فِيهَا لِرَبِّكَ
 نَيْتُكَ ، وَأُحْضُضَ عَلَيْهَا جَمَاعَةٌ مِّنْ مَّعَكَ وَتَحْتَ
 يَدِكَ ، وَادَّابُ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ : « تَأْمُرُونَ
 بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، ثُمَّ أُتْبِعَ ذَلِكَ
 الْأَخْذَ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْمُشَابَرَةَ
 عَلَى خَلَائِقِهِ ، وَاقْتِفَاءَ آثَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ
 وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ ، فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ
 وَتَقْوَاهُ ، وَلُزُومِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، مِنْ أَمْرِهِ
 وَنَهْيِهِ ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، وَاتِّمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ
 الْآثَارُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قُمْ فِيهِ

بِمَا يَحِقُّ لِلَّهِ عَلَيْكَ ، وَلَا تَمَلْ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ
أَوْ كَرِهْتَ ، لِقَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعِيدٍ ؛ وَآثِرِ
الْفَقْهَ وَأَهْلَهُ ، وَالِدِينَ وَحَمَلَتَهُ ، وَكِتَابَ اللَّهِ وَالْعَامِلِينَ
بِهِ ، فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا تَزَيَّنَ بِهِ الْمَرْءُ : الْفَقْهُ فِي دِينِ
اللَّهِ ، وَالطَّلَبُ لَهُ ، وَالْحَثُّ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا
يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ ،
وَالْقَائِدُ لَهُ ، وَالْأَمْرُ بِهِ ، وَالنَّاهِي عَنِ الْمَعَاصِي
وَالْمُوبِقَاتِ كُلِّهَا ، وَبِهَا مَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ تَزْدَادُ الْعِبَادُ
مَعْرِفَةً بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِجْلَالًا لَهُ وَدَرَكًا لِلدَّرَجَاتِ
الْعُلَى فِي الْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ
لَأَمْرِكَ ، وَالْهُيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ ، وَالْأَنَسَةِ بِكَ ؛ وَالثَّقَةِ
بِعَدْلِكَ ، وَعَلَيْكَ بِالْاِقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، فَلَيْسَ

شَيْءٍ أَبْيَنَ نَفْعًا ، وَلَا أَحْضَرَ أَمْنًا ، وَلَا أَجْمَعَ فَضْلًا
 مِنْ الْقَصْدِ ، وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرُّشْدِ ، وَالرُّشْدُ
 دَلِيلٌ عَلَى التَّوْفِيقِ ، وَالتَّوْفِيقُ مُنْقَادٌ إِلَى السَّعَادَةِ ،
 وَقَوَامُ الدِّينِ وَالسَّنَنِ الْمَهَادِيَةِ بِالْاِقْتِصَادِ ، فَآثَرُهُ فِي
 دُنْيَاكَ كُلِّهَا ، وَلَا تُقْصِرْ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَالْأَجْرِ
 وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَالسَّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ وَمَعَالِمِ الرُّشْدِ ،
 فَلَا غَايَةَ لِلِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْبِرِّ وَالسَّعْيِ لَهُ ، إِذَا كَانَ
 يُطَلَّبُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ وَمَرْضَاتُهُ ، وَمُرَاقَقَةُ أَوْلِيَائِهِ ،
 فِي دَارِ كَرَامَتِهِ .

وَاعْلَمْ : أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا يُورِثُ الْعِزَّ
 وَيُحَصِّنُ مِنَ الذُّنُوبِ ؛ وَأَنَّكَ لَنْ تَحُوطَ نَفْسَكَ
 وَمَنْ يَلِيكَ ، وَلَا تَسْتَصْلِحَ أُمُورَكَ ، بِأَفْضَلِ مِنْهُ

فَاتِهِ ، وَاهْتَدِ بِهِ ، تَتِمُّ أُمُورُكَ ، وَتَزِدُ مَقْدِرَتَكَ
وَتَصْلُحُ خَاصَّتُكَ ، وَعَامَّتُكَ ؛ وَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ ، تَسْتَقِمَّ لَكَ رَعِيَّتُكَ ، وَالتَّمَسِ الْوَسِيلَةَ
إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، تَسْتَدِمَّ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ ،
وَلَا تُنْهَضْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تُؤَلِّيهِ مِنْ عَمَلِكَ ،
قَبْلَ تَكْشِفِ أَمْرِهِ بِالشُّمَّةِ ، فَإِنَّ إِيقَاعَ التَّهَمِ
بِالْبُرَاءِ وَالظُّنُونِ السَّيِّئَةِ بِهِمْ مَأْثَمٌ ، وَاجْعَلْ مِنْ
شَأْنِكَ ، حُسْنَ الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ وَاطْرُدْ عَنْكَ سُوءَ
الظَّنِّ بِهِمْ ، وَارْفُضْهُ عَنْهُمْ يُعْنِكَ ذَلِكَ عَلَى اصْطِنَاعِهِمْ
وَرِيَاضَتِهِمْ ، وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الشَّيْطَانُ فِي أَمْرِكَ
مَغْمَزًا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ مِنْ وَهْنِكَ ،
فَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ ، فِي سُوءِ الظَّنِّ ، مَا يُنْغِصُ

عَلَيْكَ لَذَاذَةُ عَيْشِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَجِدُ بِحُسْنِ الظَّنِّ
 قُوَّةَ وَرَاحَةً ، وَتَكْفِي بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ
 أُمُورِكَ ، وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ ، وَالِاسْتِقَامَةِ
 فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا لَكَ ، وَلَا يَمْنَعُكَ حُسْنُ الظَّنِّ
 بِأَصْحَابِكَ ، وَالرَّأْفَةُ بِرَعِيَّتِكَ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْمَسْأَلَةَ
 وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ ،
 وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ ؛ وَالنَّظَرَ فِيمَا يُقِيمُهَا وَيُصْلِحُهَا ؛
 بَلْ لَتَكُنِ الْمُبَاشَرَةُ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَالْحَيَاطَةُ
 لِلرَّعِيَّةِ ، وَالنَّظَرُ فِي حَوَائِجِهِمْ ، وَحَمْلُ
 مَوْؤَنَاتِهِمْ : آثَرٌ عِنْدَكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ أَقْوَمُ
 لِلدِّينِ وَأَحْيَا لِلسُّنَّةِ ؛ وَأَخْلَصُ نِيَّتِكَ فِي جَمِيعِ هَذَا ،
 وَتَفَرَّدَ بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ ، تَفَرَّدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ

عَمَّا صَنَعَ ، وَمَجْزَىٰ بِمَا أَحْسَنَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدِّينَ
حِرْزًا وَعِزًّا ، وَرَفَعَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَزَّزَهُ ، فَاسْلُكْ
بَيْنَ تَسْوِسِهِ وَتَرْعَاهُ ، نَهْجَ الدِّينِ ، وَطَرِيقَةَ الْهُدَى ،
وَأَقِمْ حُدُودَ اللَّهِ فِي أَصْحَابِ الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ ،
وَمَا اسْتَحَقُّوهُ ، وَلَا تُعْطِلْ ذَلِكَ وَلَا تَهَآوِنْ بِهِ ،
وَلَا تُؤَخِّرْ عُقُوبَةَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ ، فَإِنَّ فِي تَقْرِيطِكَ
فِي ذَلِكَ ، لَمَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حُسْنَ ظَنِّكَ ، وَاعْزِمْ عَلَى
أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسَّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَجَانِبِ الشُّبْهَةِ
وَالْبِدْعَاتِ ، يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ ، وَتَقُمْ لَكَ مُرُوءَتُكَ ،
وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا فَفِ بِهِ ، وَإِذَا وَعَدْتَ الْخَيْرَ
فَأَنْجِزْهُ ، وَاقْبَلِ الْحَسَنَةَ ، وَادْفَعْ بِهَا ، وَأَغْمِضْ عَنْ
عَيْبِ كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَاشْدُدْ لِسَانَكَ

عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ ، وَأَبْغَضُ أَهْلَهُ ، وَأَقْصَى
 أَهْلَ النَّمِيمَةِ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أَمْرِكَ فِي عَاجِلِ
 الْأُمُورِ وَآجِلِهَا ، تَقْرِيبُ الْكَذُوبِ ، وَالْجُرْأَةُ عَلَى
 الْكَذِبِ لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَآثِمِ ، وَالزُّورَ
 وَالنَّمِيمَةَ خَاتِمَتِهَا ، لِأَنَّ النَّمِيمَةَ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا ،
 وَقَائِلُهَا لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبٌ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ لِمُطِيعِهَا
 أَمْرٌ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالصَّلَاحِ ، وَأَعِنِ
 الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ ، وَوَاصِلِ الضُّعَفَاءَ ، وَصِلِ الرَّحِمَ ،
 وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَعِزَّةَ أَمْرِهِ وَالتَّمَسُّ فِيهِ
 ثَوَابَهُ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَاجْتَنِبِ سُوءَ الْأَهْوَاءِ
 وَالْجُورِ ، وَاصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ ، وَاطْهَرِ مِنْ ذَلِكَ
 لِرَعِيَّتِكَ ، وَأَنْعِمْ بِالْعَدْلِ سِيَاسَتَهُمْ ، وَقُمْ بِالْحَقِّ

فِيهِمْ ، وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ
 الْهُدَى ، وَامْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَآثِرِ
 الْوَقَارَ وَالْحِلْمَ ، وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيْشَ وَالْعُرُورَ
 فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ : إِنِّي مُسَلِّطٌ
 أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ فَيْكَ إِلَى تَقْصِ
 الرَّأْيِ ، وَقِلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،
 وَأَخْلَصَ لِلَّهِ وَحَدَهُ النِّيَّةَ فِيهِ ، وَالْيَقِينَ بِهِ ، وَاعْلَمْ
 أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ ، يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ
 يَشَاءُ ، وَلَنْ تَجِدَ تَغْيِيرَ النِّعْمَةِ ، وَحُلُولَ النِّقْمَةِ ، إِلَى
 أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ ، إِلَى حَمَلَةِ النِّعْمَةِ ، مِنْ أَصْحَابِ
 السُّلْطَانِ ، وَالْمُبْسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ ، إِذَا كَفَرُوا
 بِنِعَمِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَطَالُوا بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ ، وَدَعَّ عَنْكَ شَرَّهَ نَفْسِكَ ، وَلِتَكُنْ ذَخَائِرُكَ
وَكُنُوزُكَ الَّتِي تَدَّخِرُ وَتَكْنِزُ ، الْبِرَّ وَالتَّقْوَى ،
وَالْمَعْدَلَةَ ، وَاسْتِصْلَاحَ الرَّعِيَّةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمْ ،
وَالْتَفَقُّدَ لِأُمُورِهِمْ ، وَالْحِفْظَ لِدِمَائِهِمْ ، وَالْإِغَاثَةَ
لِمَلْهُوفِهِمْ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا كَثُرَتْ وَذُخِرَتْ
فِي الْخَزَائِنِ ، لَا تُثْمِرُ ، وَإِذَا كَانَتْ فِي إِصْلَاحِ
الرَّعِيَّةِ ، وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ الْمَوْؤُونَةِ عَنْهُمْ ،
نَمَتْ وَرَبَّتْ ، وَصَلَحَتْ بِهِيَ الْعَامَّةُ ، وَتَرَيْنَتْ بِهِ
الْوِلَاةَ ، وَطَابَ بِهِ الزَّمَانُ ، وَاعْتَقِدَ فِيهِ الْعِزُّ وَالْمَنْفَعَةُ ،
فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ
الْأَسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَوَفْرٍ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
قَبْلَكَ حُقُوقَهُمْ ، وَأَوْفِ رَعِيَّتَكَ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ ،

وَتَعَهَّدَ بِمَا يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشِهِمْ ، فَإِنَّكَ إِذَا
فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّرْتَ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ ، وَاسْتَوْجَبْتَ
الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ ، وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جَبَايَةِ خَرَاكِ ،
وَجَمَعَ أَمْوَالَ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ ، وَكَانَ الْجَمِيعُ
لِمَا شِئْتُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لِبَطَاعَتِكَ ،
وَاطْيَبَ نَفْسًا بِكُلِّ مَا أَرَدْتَ ، فَاجْهَدْ نَفْسَكَ ،
فِيمَا حَدَدْتُ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَلْتَعْظُمَ حِسْبَتُكَ
فِيهِ ، فَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ ، مَا انْفَقَ فِي سَبِيلِ حَقِّهِ ،
وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ شُكْرَهُمْ ، وَأَثْبِتْهُمْ عَلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ
أَنْ تُنْسِيكَ ، الدُّنْيَا ، وَغُرُورُهَا هَوْلَ الْآخِرَةِ ،
فَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ التَّهَاوُنَ يُوجِبُ
التَّفْرِيطَ ، وَالتَّفْرِيطَ يُورِثُ الْبَوَارَ ، وَلَيْسَ كُنْ عَمَلُكَ

لِلَّهِ ، وَفِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَارْجُ الثَّوَابَ ، فَإِنَّ اللَّهَ
 قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَظْهَرَ لَدَيْكَ
 فَضْلَهُ ، فَأَعْتَصِمْ بِالشُّكْرِ ، وَعَلَيْهِ فَاعْتِمِدْ ، يَزِدُّكَ
 اللَّهُ خَيْرًا وَإِحْسَانًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ
 الشَّاكِرِينَ ، وَسِيرَةِ الْمُحْسِنِينَ وَقَضَاءِ الْحَقِّ فِيمَا حَمَلَ
 مِنْ النِّعَمِ ، وَالْبَسْ مِنْ الْعَافِيَةِ وَالْكَرَامَةِ ،
 وَلَا تَحْتَقِرَنَّ ذَنْبًا ، وَلَا تُمَالِئَنَّ حَاسِدًا ، وَلَا تَرْحَمَنَّ
 فَاجِرًا ، وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا ، وَلَا تُدَاهِنَنَّ عَدُوًّا ،
 وَلَا تُصَدِّقَنَّ نَمَامًا ، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تُوَالِيَنَّ
 فَاسِقًا وَلَا تَتَّبِعَنَّ غَاوِيًا ، وَلَا تَحْمَدَنَّ مُرَائِيًا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ
 إِنْسَانًا ، وَلَا تَرُدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا ، وَلَا تُجِيبَنَّ بَاطِلًا ،
 وَلَا تَلَا حِظَنَّ مُضْحِكًا ، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تُذْهِبَنَّ

فَخَرًّا وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا ، وَلَا تَأْتِيَنَّ بَذَخًا ، وَلَا تَمْشِيَنَّ
مَرَحًا ، وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا ، وَلَا تُفَرِّطَنَّ فِي طَلَبِ
الْآخِرَةِ ، وَلَا تَدْفِعِ الْأَيَّامَ عِيَانًا ، وَلَا تُغْمِضَنَّ عَنِ
الظَّالِمِ رَهْبَةً مِنْهُ ، أَوْ مَخَافَةً ، وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ
الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَكْثِرْ مُشَاوَرَةَ الْفُقَهَاءِ ،
وَاسْتَعْمِلْ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ ، وَخُذْ عَنْ أَهْلِ التَّجَارِبِ
وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي
مَشُورَتِكَ أَهْلَ الدَّقَّةِ وَالْبُخْلِ ، وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ
قَوْلًا ، فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ مَنَفَعَتِهِمْ ، وَلَيْسَ
شَيْءٌ أَسْرَعَ فُسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلْتَ فِي أَمْرِ رَعِيَّتِكَ
مِنَ الشُّحِّ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا ، كُنْتَ
كَثِيرَ الْأَخْذِ ، قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ

لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا
تَعْتَقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِالْكَفِّ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ
الْجُورِ عَلَيْهِمْ ، وَيَدُومُ صَفَاءُ أَوْلِيَائِكَ لَكَ بِالْإِفْضَالِ
عَلَيْهِمْ وَحُسْنِ الْعِطْيَةِ لَهُمْ ، فَاجْتَنِبِ الشُّحَّ ، وَاعْلَمْ
أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ، وَأَنَّ الْعَاصِيَ
بِمَنْزِلَةِ خِزْيٍ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَمَنْ يُوقِ
شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فَسَهِّلْ طَرِيقَ
الْجُودِ بِالْحَقِّ وَاجْعَلْ لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ نِيَّتِكَ حَظًّا
وَنَصِيبًا ، وَابْتَغِ أَنْ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ
فَاعْدِدْهُ لِنَفْسِكَ خُلُقًا ، وَارْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا ،
وَتَفَقَّدْ أُمُورَ الْجُنْدِ فِي دَوَائِنِهِمْ ، وَمَكَاتِبِهِمْ ،
وَادْرِزْ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ

لِيُذْهِبَ بِذَلِكَ اللَّهُ فَاقْتَهُمْ ، وَيُقَوِّمَ لَكَ أَمْرَهُمْ ،
وَيَزِيدَ بِهِ قُلُوبَهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ ، خُلُوصًا
وَأَنْشِرَاحًا ، وَحَسْبُ ذِي سُلْطَانٍ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ
يَكُونَ عَلَى جُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، رَحْمَةً فِي عَدْلِهِ وَحَيْطَةً
وَأِنْصَافِهِ وَعِنَايَتِهِ ، وَشَفَقَتِهِ وَبِرِّهِ وَتَوْسِعَتِهِ ، فَزَايِلُ
مَكْرُوهَةٍ إِحْدَى الْبَلِيَّتَيْنِ ، بِاسْتِشْعَارِ تَكْمِلَةِ الْبَابِ
الْآخِرِ وَلِزُومِ الْعَمَلِ بِهِ تَلَقَّ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ نَجَاحًا
وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ ، بِالْمَسْكَانِ الَّذِي لَيْسَ
مِثْلَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ ، لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي
تَعْتَدِلُ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ فِي الْأَرْضِ ، وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ
فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلُحُ الرِّعْيَةُ ، وَتَوْمَنُّ السُّبُلُ ،

وَيَنْتَصِفُ الْمَظْلُومَ ، وَيَأْخُذُ النَّاسَ حُقُوقَهُمْ ،
وَيَحْسُنُ الْمَعِيشَةَ ، وَيُؤَدِّي حَقَّ الطَّاعَةِ وَيَرْزُقُ
اللَّهُ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ ، وَيَقُومُ الدِّينَ ، وَتَجْرِي
السُّنَنُ وَالشَّرَائِعُ ، وَعَلَى مَجَارِيهَا يُنْتَجَزُ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ
فِي الْقَضَاءِ ، وَاشْتَدَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، وَتَوَرَّعَ عَنِ النَّظْفِ
وَأَمَضَ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ ، وَأَقْلَلَ الْعَجَلَةَ ، وَابْعَدَ مِنَ
الضَّجْرِ وَالْقَلْقِ ، وَاقْنَعَ بِالْقِسَمِ ، وَلَتَسْكُنَ رِيحُكَ ،
وَيَقْرُ جَدُّكَ ، وَانْتَفَعَ بِتَجَرِبَتِكَ ، وَانْتَبَهَ فِي صَمَّتِكَ ،
وَاسْتَدَّ فِي مَنْطِقِكَ ، وَأَنْصَفَ الْخَصَمَ ، وَقَفَّ عِنْدَ
الشُّبْهَةِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْحُجَّةِ ، وَلَا يَأْخُذُكَ فِي أَحَدٍ
مِنْ رَعِيَّتِكَ مُحَابَاةً وَلَا مُجَامَلَةً ، وَلَا لَوْمَ لَائِمٍ ،
وَتَثَبَّتْ وَتَأَنَّ ، وَرَاقِبْ وَانْظُرْ ، وَتَدَبَّرْ وَتَفَكَّرْ ،

واعتبر وتواضع لرَّبِّكَ ، وازأف بجميع الرّعيّة ،
وسلّط الحقّ على نفسك ولا تُسرّعنّ إلى سفك
دَمٍ فَإِنَّ الدَّمَاءَ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ انتَهَاكَ لَهَا
بغيرِ حقّها ، وانظرْ هذا الخُراجَ الَّذِي اسْتَقَامَتْ
عَلَيْهِ الرّعيّةُ ، وجعله الله للإسلام عِزًّا وَرِفْعَةً
وَلِأَهْلِهِ سَعَةً وَمَنْعَةً ، وَلِعُدُوِّهِ وَعَدُوِّهِمْ كِتَابًا وَغِيْطًا ،
وَلِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ مُعَاهَدَتِهِمْ ذُلًّا وَصَغَارًا فَوزَّعَهُ
بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ ، وَالْعُمُومِ
فِيهِ ، وَلَا تَدْفَعَنَّ مِنْهُ شَيْئًا عَنْ شَرِيفٍ لِشَرَفِهِ ،
وَعَنْ غَنِيِّ لِيْغْنَاهُ ، وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ ، وَلَا أَحَدٍ
مِنْ خَاصَّتِكَ ، فَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ ، فَوْقَ الْإِحْتِمَالِ
لَهُ ، وَلَا تُكَلِّفَنَّ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ . وَاحْمِلِ النَّاسَ

كُلَّهُمْ عَلَى مُرِّ الْحَقِّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِأَلْفَتِهِمْ ،
 وَالزَّمُ لِرِضَى الْعَامَّةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ جُعِلْتَ بِيُولَايَتِكَ
 خَازِنًا وَحَافِظًا ، وَرَاعِيًا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ
 رَعِيَّتَكَ ، لِأَنَّكَ رَاعِيهِمْ ، وَقَيِّمُهُمْ ، تَأْخُذُ مِنْهُمْ
 مَا أَعْطَوْكَ ، مِنْ عَفْوِهِمْ وَمَقْدِرَتِهِمْ ، وَتُنْفِقُهُ فِي
 قَوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ ، وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِمْ ، فَاسْتَعْمِلْ
 عَلَيْهِمْ فِي كَوْرِ عَمَلِكَ ، ذَوِي الرَّأْيِ وَالتَّجْدِيرِ وَالتَّجَرِبَةِ
 وَالْخُبْرَةِ بِالْعَمَلِ ، وَالْعِلْمِ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعَفَافِ ، وَوَسَّعْ
 عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ اللَّازِمَةِ لَكَ
 فِيمَا تَقَلَّدْتَ ، وَأُسْنِدَ إِلَيْكَ ، وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُ
 شَاغِلٌ ، وَلَا يَصْرِفَنَّكَ عَنْهُ صَارِفٌ ، فَإِنَّكَ مَتَى
 آثَرْتَهُ ، وَقَمْتَ فِيهِ بِالْوَاجِبِ ، اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ

النِّعْمَةُ مِنْ رَبِّكَ ، وَحُسْنَ الْأَحْدُوثَةِ فِي عَمَلِكَ ،
 وَاسْتَجْرَرْتَ بِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَعْنَتْ عَلَى
 الصَّلَاحِ ، فَدَرَّتْ الْخَيْرَاتُ بِبِلَدِكَ ، وَفَشَتْ الْعِمَارَةُ
 بِنَاحِيَّتِكَ ، وَظَهَرَ الْخُصْبُ فِي كُورِكَ ، وَكَثُرَ خَرَاكُكَ ،
 وَتَوَفَّرَتْ أَمْوَالُكَ ، وَقَوِيَتْ بِذَلِكَ عَلَى ارْتِبَاطِ
 جُنْدِكَ ، وَإِرْضَاءِ الْعَامَّةِ ، بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ
 نَفْسِكَ وَكَُنْتَ مَحْمُودَ السِّيَاسَةِ ، مَرْضَى الْعَدْلِ فِي
 ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ ، وَكَُنْتَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا
 عَدْلٍ وَقُوَّةٍ ، وَآلَةٍ وَعُدَّةٍ ، فَنَافَسَ فِي هَذَا ،
 وَلَا تُقَدِّمُ عَلَيْهِ شَيْئًا ، تَحْمَدُ مَغَبَّةَ أَمْرِكَ ،
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا ،
 يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عَمَّا لَكَ ، وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيرَتِهِمْ

وَأَعْمَالِهِمْ ، حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ ،
مُعَيْنٌ لِأَمْرِهِ كُلِّهِ ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُ بِأَمْرٍ ،
فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ
السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ حُسْنَ الدَّفَاعِ
وَالنُّصْحِ وَالصَّنْعِ فَأْمُضِهِ ، وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ ، وَرَاجِعْ
أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ ، ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا
نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرٍ مِنْ أَمْرِهِ ، قَدْ وَاتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى ،
فَقَوَّاهُ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ
أَهْلَكَهُ ، وَتُقِضَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، فَاسْتَعْمِلِ الْحَزْمَ فِي
كُلِّ مَا أَرَدْتَ وَبَاشِرْهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ بِالْقُوَّةِ ، وَأَكْثِرْ
اسْتِخَارَةَ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، وَافْرَغْ مِنْ عَمَلٍ
يَوْمَكَ ، وَلَا تُؤَخِّرْهُ لِعَدِكَ ، وَأَكْثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ

فَإِنَّ لِعِدِّ أُمُورًا وَحَوَادِثَ تُلْهِيكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ
الَّذِي أُخِّرْتَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ
بِمَا فِيهِ ، وَإِذَا أُخِّرْتَ عَمَلَهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَمْرُ يَوْمَيْنِ
فَشَغَلَكَ ذَلِكَ حَتَّى تُعْرِضَ عَنْهُ ، فَإِذَا أَمْضَيْتَ
لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ، أَرَحْتَ نَفْسَكَ وَبَدَنَكَ ،
وَأَحْكَمْتَ أُمُورَ سُلْطَانِكَ ، وَانْظُرْ أَخْرَارَ النَّاسِ
وَذَوِي الشَّرَفِ مِنْهُمْ ، ثُمَّ اسْتَيْقِنْ صَفَاءَ طَوَيِّتِهِمْ
وَتَهْذِيبَ مَوَدَّتِهِمْ لَكَ ، وَمُظَاهَرَتِهِمْ بِالنُّصْحِ ،
وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَمْرِكَ ، فَاسْتَخْلِصْهُمْ ، وَأَحْسِنْ إِلَيْهِمْ ،
وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبُيُوتَاتِ مِمَّنْ قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ ؛
فَاحْتَمِلْ مَوْؤَنَتَهُمْ وَأَصْلِحْ حَالَهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا
خَلَّتَهُمْ مَسًّا ؛ وَأَفْرِدْ نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ

وَالْمَسَاكِينَ ؛ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَةٍ إِلَيْكَ
وَالْمُحْتَقَرُ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ ، فَاسْأَلْ
عَنْهُ أَحْفَى مَسْأَلَةٍ وَوَكِّلْ بِأَمثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ
رَعِيَّتِكَ ، وَمُرْهُمْ بِرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ وَحَالَاتِهِمْ إِلَيْكَ ،
لِتَنْتَظِرَ فِيهَا بِمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ ، وَتَعَاهِدَ
دَوَى الْبُؤْسَاءِ وَيَتِمَّأَمُّهُمْ وَأَرَامِلَهُمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا
مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ فِي
الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصَّلَةِ لَهُمْ ، لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ
عَيْشَهُمْ ، وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَاتٍ وَزِيَادَةً ، وَاجْرِ لِلْأَمْرَاءِ
مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَقَدِّمَ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ ، وَالْحَافِظِينَ
لَا كَثْرَتِهِ فِي الْجَرَايَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَانْصُبْ لِمَرْضَى
الْمُسْلِمِينَ دُورًا تُؤْوِيهِمْ ، وَقَوَّامًا يَرْفُقُونَ بِهِمْ ،

وَأَطِبَّاءَ يُعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ ، وَأَسْعِفُهُمْ بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ
يُودَّ ذَلِكَ إِلَى سَرَفٍ فِي يَنْتِ الْمَالِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ
إِذَا أُعْطُوا حُقُوقَهُمْ ، وَأَفْضَلَ أَمَانِيهِمْ ، لَمْ يُرْضِهِمْ
ذَلِكَ ، وَلَمْ تَطِبْ أَنْفُسُهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَى
وُلائِهِمْ ، طَمَعًا فِي نَيْلِ الزِّيَادَةِ ، وَفَضْلِ الرِّفْقِ مِنْهُمْ ،
وَرُبَّمَا بَرِمَ الْمُتَصَفِّحُ لِأُمُورِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ
وَيَشْغَلُ فِكْرَهُ وَذِهْنَهُ ، وَمِنْهَا مَا يَنَالُهُ بِهِ مَوْؤَنَةٌ
وَمَشَقَّةٌ ، وَلَيْسَ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْعَدْلِ وَيَعْرِفُ مُحَاسِنَ
أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ ، وَفَضْلَ ثَوَابِ الْآجِلِ ، كَالَّذِي
يَسْتَقْبِلُ مَا يُقَرَّبُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَيَلْتَمِسُ رَحْمَتَهُ بِهِ ،
وَأَكْثَرَ الْإِذْنِ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ ، وَأَبْرَزَ لَهُمْ وَجْهَكَ ،

وَسَكَنَ لَهُمْ أَحْرَاسَكَ ، وَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ،
وَأُظْهِرْ لَهُمْ بِشْرَكَ ، وَلِنِ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالْمَنْطِقِ
وَأَعْطِفْ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ ، وَإِذَا أُعْطِيتَ
فَأَعْطِ بِسَمَاحَةٍ وَطِيبِ نَفْسٍ ، وَالتَّمَسِ الصَّنِيعَةَ
وَالْأَجَرَ ، غَيْرَ مُكْدِرٍ وَلَا مَنَّانٍ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى
ذَلِكَ تِجَارَةٌ مُرَبِّحَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى
مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ مَضَى مِنْ قَبْلِكَ مِنْ أَهْلِ
السُّلْطَانِ وَالرِّيَّاسَةِ ، فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأُمَمِ
الْبَائِدَةِ ، ثُمَّ اغْتَصِمْ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِأَمْرِ اللَّهِ ،
وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مُحَبَّتِهِ ، وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ ،
وِإِقَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ، وَاجْتَنِبْ مَا فَارَقَ ذَلِكَ
وَخَالَفَهُ ، وَدَعَا إِلَى سَخَطِ اللَّهِ ، وَاعْرِفْ مَا تَجْمَعُ

عَمَّا لَكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَيُنْفِقُونَ مِنْهَا ، وَلَا تَجْمَعُ
حَرَامًا ، وَلَا تُنْفِقُ إِسْرَافًا ، وَأَكْثَرُ مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ
وَمُشَاوَرَتِهِمْ وَخَالَطَتِهِمْ ، وَلَيْكُنْ هَوَاكَ اتِّبَاعَ السُّنَنِ
وَإِقَامَتِهَا ، وَإِثَارَ مَكَارِمِ الْأُمُورِ وَمَعَالِيهَا ، وَلَيْكُنْ
أَكْرَمُ دُخْلَانِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى عِيًّا
فِيكَ لَمْ تَمْنَعْهُ هَيْبَتِكَ مِنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ إِلَيْكَ ،
فِي سِرٍّ ، وَإِعْلَامِكَ مَا فِيهِ مِنَ النِّقْصِ ، فَإِنَّ
أَوْلِيكَ أَنْصَحَ أَوْلِيَائِكَ وَمُظَاهِرِيكَ ، وَانْظُرْ عَمَّا لَكَ
الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ ، وَكُتَابَكَ فَوْقَ كُلِّ رَجُلٍ
مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا يَدْخُلُ عَلَيْكَ فِيهِ بِكُتُبِهِ
وَمُؤَامَرَتِهِ ، وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ عَمَّا لَكَ وَأَمْرٍ
كُورِكَ وَرَعِيَّتِكَ ، ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورِدُهُ عَلَيْكَ مِنْ

ذَلِكَ سَمِعَكَ وَبَصَرَكَ وَفَهَمَكَ وَعَقَلَكَ ، وَكَرَّرَ
 النَّظَرَ إِلَيْهِ ، وَالتَّذْيِيرَ لَهُ ، فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَزْمِ
 وَالْحَقِّ ، فَأَمُضِيهِ وَاسْتَخِرِ اللَّهَ فِيهِ ، وَمَا كَانَ مُخَالَفًا
 لَذَلِكَ فَاصْرِفْهُ إِلَى التَّثَبُّتِ فِيهِ ، وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهُمْ ،
 وَلَا تَمْنُنْ عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا عَلَى غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفٍ
 تَأْتِيهِ إِلَيْهِمْ ، وَلَا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ
 وَالِاسْتِقَامَةَ وَالْعَوْنَ فِي أُمُورِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا
 تَضَعَنَّ الْمَعْرُوفَ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ ، وَتَفْهَمَنَّ كِتَابِي إِلَيْكَ
 وَأَكْثَرَ النَّظَرِ فِيهِ ، وَالْعَمَلَ بِهِ ، وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ عَلَى
 جَمِيعِ أُمُورِكَ وَاسْتَخِرْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّالِحِ
 وَأَهْلِهِ ، وَلَيْسَ كُنْ أَعْظَمُ سِيرَتِكَ ، وَأَفْضَلُ رَغْبَتِكَ ،
 مَا كَانَ لِلَّهِ رِضًا ، وَلِدِينِهِ نِظَامًا ، وَلِأَهْلِهِ عِزًّا

وَتَمَكِّنَا ، وَلِلذِّمَّةِ وَالْمِلَّةِ عَدْلًا وَصَلَاحًا ، وَأَنَا أَسْأَلُ
 اللَّهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ ، وَرُشْدَكَ وَكَلَاءَكَ ،
 وَأَنْ يُنْزِلَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ وَرَحْمَتَهُ بِتَمَامِ فَضْلِهِ
 عَلَيْكَ ، وَكَرَامَتِهِ لَكَ ، حَتَّى يَجْعَلَكَ أَفْضَلَ أَمْثَالِكَ
 نَصِيبًا ، وَأَوْفَرَهُمْ حَظًّا ، وَأَسْنَاهُمْ ذِكْرًا وَأَمْرًا ،
 وَأَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكَ وَمَنْ نَاوَأَكَ ، وَبَغَى عَلَيْكَ ،
 وَيَرْزُقَكَ مِنْ رَعِيَّتِكَ الْعَافِيَةَ ، وَيَحْجُزَ الشَّيْطَانَ
 عَنْكَ وَوَسَاوِسَهُ ، حَتَّى يَسْتَعْلِيَ أَمْرُكَ بِالْعِزِّ وَالْقُوَّةِ
 وَالتَّوْفِيقِ ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ .



وَإِلَيْكَ مَا كَتَبَهُ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ فِي الْبُخْلِ
وَهِيَ مِنْ عَيُونِ كِتَابَاتِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الزَّاهِرِ ،
قَالَ : —

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَصْلَحَ اللَّهُ أَمْرَكُمْ ،
وَجَمَعَ شَمْلَكُمْ ، وَعَلَّمَكُمْ الْخَيْرَ ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
أَهْلِهِ . قَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ : يَا مَعْشَرَ بَنِي تَمِيمٍ ،
لَا تُسْرِعُوا إِلَى الْفِتْنَةِ ، فَإِنَّ أَسْرَعَ النَّاسِ إِلَى الْقِتَالِ
أَقْلَهُمْ حَيَاءً مِنَ الْفِرَارِ . وَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ : إِذَا
أَرَدْتَ أَنْ تَرَى الْعُيُوبَ جَمَّةً فَتَأَمَّلْ عَيَّابًا فَإِنَّهُ إِنَّمَا
يَعِيبُ النَّاسَ بِفَضْلِ مَا فِيهِ مِنَ الْعَيْبِ ، وَمِنْ أَعْيَبِ
الْعَيْبِ أَنْ تَعِيبَ مَا لَيْسَ بِعَيْبٍ . وَقَيِّحُ أَنْ تَنْهَى
مُرْشِدًا وَأَنْ تُغْرِى بِمُشْفِقٍ . وَمَا أَرَدْنَا بِمَا قُلْنَا إِلَّا

هَدَايَتِكُمْ ، وَتَقْوِيَتِكُمْ ، وَإِصْلَاحَ فَاسِدِكُمْ ، وَإِبْقَاءَ
النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ . وَمَا أَخْطَأْنَا سَبِيلَ حُسْنِ النِّيَّةِ فِيْمَا
يَبْنِيْنَا وَيَبْنِيْنَاكُمْ . وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّا مَا أَوْصَيْنَاكُمْ إِلَّا
بِمَا اخْتَرْنَاهُ لَكُمْ ، وَلِأَنفُسِنَا قَبْلَكُمْ ، وَشَهْرِنَا بِهِ
فِي الْآفَاقِ دُونَكُمْ .

ثُمَّ تَقُولُ فِي ذَلِكَ مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ لِقَوْمِهِ :
(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ
أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا
بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) . فَمَا كَانَ أَحَقَّنَا
مِنْكُمْ فِي حُرْمَتِنَا بِكُمْ أَنْ تَرْعَوْا حَقَّ قَصْدِنَا بِذَلِكَ
إِلَيْكُمْ ! عَلَى مَا رَعَيْنَاهُ مِنْ وَاجِبِ حَقِّكُمْ ! فَلَا
الْعُذْرَ الْمُبْسُوطَ بَلَّغْتُمْ ، وَلَا بَوَاجِبِ الْحُرْمَةِ قُتِمُ .

وَلَوْ كَانَ ذِكْرُ الْعُيُوبِ يُرَادُّ بِهِ فَخْرٌ لَرَأَيْنَا فِي أَنْفُسِنَا
مِنْ ذَلِكَ شُغْلًا .

عَبْتُمُونِي بِقَوْلِي لِخَادِي : أَجِيدِي الْعَجِينَ فَهُوَ أَطْيَبُ
لِطَعْمِهِ وَأَزِيدُ فِي رَيْعِهِ ^(١) . وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمْلِكُوا ^(٢) الْعَجِينَ فَإِنَّهُ أَحَدُ
الرَّيَعِينَ .

وَعَبْتُمُونِي حِينَ خَتَمْتُ عَلَى مَا فِيهِ شَيْءٌ ثَمِينٌ
مِنْ فَاكِهِ رَطْبَةٍ تَقِيَّةٍ وَمِنْ رَطْبَةٍ غَرِيْبَةٍ عَلَى عَبْدٍ
نِهِمٍ وَصِيٍّ جَشِعٍ وَأَمَةٍ لَكَعَاءٍ ^(٣) وَزَوْجَةٍ مُضِيعَةٍ .
وَعَبْتُمُونِي بِالْخَتَمِ وَقَدْ خَتَمَ بَعْضُ الْأُمَمَةِ عَلَى

(١) الرِّيع : النَّماء والزيادة (٢) أَمْلَكُ الْعَجِينَ إِنْعَامُ عَجْنِهِ

(٣) الْكَعَاء : الْحَقَاء

مَزُودٍ سَوِيقٍ^(١) وَعَلَى كَيْسٍ فَارِغٍ . وَقَالَ : طِينَةٌ
خَيْرٌ مِنْ طِيَّةٍ ، فَأَمْسَكْتُمْ عَمَّنْ خَتَمَ عَلَى لَا شَيْءٍ ،
وَعَبَّيْتُمْ مَنْ خَتَمَ عَلَى شَيْءٍ . وَعَبَّيْتُمُونِي أَنْ قُلْتُ
لِلْغُلَامِ : إِذَا زِدْتَ فِي الْمَرْقِ فَرِدْ فِي الْإِنْضَاجِ
لِيَجْتَمَعَ مَعَ التَّادِيمِ بِاللَّحْمِ طِيبُ الْمَرْقِ

وَعَبَّيْتُمُونِي بِخَصْفِ^(٢) النَّعْلِ وَبِتَصْدِيرِ^(٣) الْقَمِيصِ
وَحِينَ زَعَمْتُ أَنَّ الْمَخْصُوفَةَ مِنَ النَّعْلِ أَبْقَى وَأَقْوَى
وَأَشْبَهُ بِالشَّدِّ ، وَأَنَّ التَّرْقِيعَ مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّفْرِيطِ
مِنَ التَّضْيِيعِ . وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيُرْقِعُ ثَوْبَهُ ، وَيَقُولُ : لَوْ

(١) المزود : وعاء الزاد والسويق : طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير

(٢) خصف النعل : خرزها (٣) تصدير القميص : أن يجعل

أَهْدَى إِلَى ذِرَاعٍ لَقَبْتُ ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ
لَأَجَبْتُ . وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ : لَا جَدِيدَ لِمَنْ لَمْ
يَلْبَسِ الْخَلْقَ . وَبَعَثَ زِيَادُ رَجُلًا يَرْتَادُ لَهُ مُحَدَّثًا
وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا فَاتَّاهُ بِهِ مُوَافِقًا .
فَقَالَ لَهُ : أَكُنْتَ بِهِ ذَا مَعْرِفَةٍ ؟ قَالَ : لَا ،
وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي يَوْمٍ قَائِظٍ يَلْبَسُ خَلْقًا وَيَلْبَسُ
النَّاسُ جَدِيدًا ، فَتَفَرَّسْتُ فِيهِ الْعَقْلَ وَالْأَدَبَ . وَقَدْ
عَلِمْتُ أَنَّ الْخَلْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلُ الْجَدِيدِ فِي مَوْضِعِهِ .
وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . وَسَمَّا بِهِ مَوْضِعًا
كَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ زَمَانٍ رَجَالًا ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ
مَقَالًا . وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ بِالسُّمِّ وَأَمَاتَ بِالْذَّوَاءِ وَأَغَصَّ
بِالْمَاءِ . وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْإِصْلَاحَ أَحَدُ الْكَاسِبِينَ ،

كَمَا زَعَمُوا أَنَّ قِلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينِ . وَقَدْ جَبَرَ
 الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ يَدَ عَنَزٍ وَأَمَرَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ
 بِفَرْكِ النَّعْلِ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
 مَنْ أَكَلَ بَيْضَةً فَقَدْ أَكَلَ دَجَاجَةً . وَلَبَسَ سَالِمُ
 بْنُ عَبْدِ اللَّهِ جِلْدَ أُضْحِيَّةٍ . وَقَالَ رَجُلًا لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ :
 أَرِيدُ أَنْ أَهْدِيَ إِلَيْكَ دَجَاجَةً . فَقَالَ : إِنْ كَانَ
 لَا بُدَّ فَاجْعَلْهَا يَبُوضًا .

وَعَبَّيْتُمُونِي حِينَ قُلْتُ : مَنْ لَمْ يَعْرِفْ
 مَوَاضِعَ السَّرَفِ فِي الْمَوْجُودِ الرَّخِيسِ لَمْ يَعْرِفْ
 مَوَاضِعَ الْاِقْتِصَادِ فِي الْمُتَمَنِّعِ الْعَالِي . وَلَقَدْ أُوتِيتُ
 بِمَاءٍ لِلْوُضُوءِ عَلَى مَبْلَغِ الْكِفَايَةِ . وَأَشَدَّ مِنْ
 الْكِفَايَةِ ، فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى تَقْرِيقِ أَجْزَائِهِ عَلَى

الْأَعْضَاءَ وَإِلَى التَّوْفِيرِ عَلَيْهَا مِنْ وَضِيعَةٍ ^(١) الْمَاءِ :
 وَجَدْتُ فِي الْأَعْضَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمَاءِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ
 لَوْ كُنْتُ سَلَكْتُ الْاِقْتِصَادَ فِي أَوَائِلِهِ نَخْرَجَ آخِرُهُ
 عَلَى كِفَايَةِ أَوَّلِهِ ، وَلَكَانَ نَصِيبُ الْأَوَّلِ كَنَصِيبِ
 الْآخِرِ ، فَعَبِئْتُمُونِي بِذَاكَ وَشَنَعْتُمْ عَلَيَّ ؛ وَقَدْ قَالَ
 الْحَسَنُ وَذَكَرَ السَّرَفَ : أَمَّا إِنَّهُ لَيَكُونُ فِي الْمَاءِ
 وَالْكَلَاءِ فَلَمْ يَرْضَ بِذِكْرِ الْمَاءِ حَتَّى أَرْدَفَهُ الْكَلَاءُ .
 وَعَبِئْتُمُونِي . أَنَّنِي قُلْتُ : لَا يَغْتَرَنَّ أَحَدُكُمْ بِطُولِ
 عُمُرِهِ وَتَقْوِيَسِ ظَهْرِهِ وَرِقَّةِ عَظْمِهِ وَوَهْنِ قُوَّتِهِ ،
 وَأَنْ يَرَى نَحْوَهُ أَكْثَرَ ذُرِّيَّتِهِ فَيَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى
 إِخْرَاجِ مَالِهِ مِنْ يَدِهِ وَتَحْوِيلِهِ إِلَى مَلِكٍ غَيْرِهِ ، وَإِلَى

(١) الوضعية هنا : النقص

تَحْكِيمِ السَّرَفِ فِيهِ ، وَتَسْلِيطِ الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِ ،
 فَلَعَلَّهُ يَكُونُ مُعَمَّرًا وَهُوَ لَا يَدْرِي ، وَمَمْدُودًا لَهُ
 فِي السِّنِّ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يُرْزَقَ الْوَلَدَ
 عَلَى الْيَأْسِ وَيَحْدُثَ عَلَيْهِ مِنْ آفَاتِ الدَّهْرِ مَا لَا يَخْطُرُ
 عَلَى بَالٍ وَلَا يُذَرِّكُهُ عَقْلٌ ، فَيَسْتَرِدَّهُ مِمَّنْ لَا يَرُدُّهُ
 وَيُظْهِرَ الشَّكْوَى إِلَى مَا لَا يَرْحُمُهُ أَصْعَبَ مَا كَانَ
 عَلَيْهِ الطَّلَبُ وَأَقْبَحَ مَا كَانَ بِهِ يَطْلُبُ ، فَعِبْتُمُونِي
 بِذَلِكَ ؛ وَقَدْ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : « إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ
 كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا ، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ
 تَمُوتُ غَدًا » .

وَعِبْتُمُونِي بِأَنْ قُلْتُ : بِأَنَّ السَّرَفَ وَالتَّبَذِيرَ إِلَى
 مَالِ الْمَوَارِيثِ وَأَمْوَالِ الْمُلُوكِ ، وَأَنَّ الْحِفْظَ لِلْمَالِ

الْمُكْتَسَبِ ، وَالْغِنَى الْمُجْتَلَبِ وَإِلَى مَنْ لَا يُعَرِّضُ فِيهِ
 بِذَهَابُ الدِّينِ ، وَاهْتِضَامُ الْعَرِضِ ، وَنَصَبُ الْبَدَنِ ،
 وَاهْتِمَامُ الْقَلْبِ أَسْرَعُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْسِبْ نَفَقَتَهُ لَمْ
 يَحْسِبْ دَخْلَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْسِبِ الدَّخْلَ فَقَدْ أَضَاعَ
 الْأَصْلَ . وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لِلْغِنَى قَدْرَهُ فَقَدْ أُوزِنَ
 بِالْفَقْرِ ، وَطَابَ نَفْسًا بِالذَّلِّ .

وَعِبْتُمُونِي بِأَنْ قُلْتُ : إِنَّ كَسْبَ الْحَلَالِ يَضْمَنُ
 الْإِتْفَاقَ فِي الْحَلَالِ . وَإِنَّ الْخَلِيثَ يَنْزِعُ إِلَى الْخَلِيثِ ،
 وَإِنَّ الطَّيِّبَ يَدْعُو إِلَى الطَّيِّبِ . وَإِنَّ الْإِتْفَاقَ فِي
 الْهَوَى حِجَابٌ دُونَ الْهُدَى ، فَعِبْتُمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ .
 وَقَدْ قَالَ مُعَاوِيَةُ : لَمْ أَرْ تَبْذِيرًا قَطُّ إِلَّا وَإِلَى جَنْبِهِ
 حَقٌّ مُضِيعٌ . وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ : إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَعْرِفُوا

مِنْ أَيْنَ أَصَابَ الرَّجُلُ مَالَهُ فَانْظُرُوا فِيمَاذَا يُنْفِقُهُ ، فَإِنَّ
 الْحَيْثَ إِنَّمَا يُنْفِقُ فِي السَّرَفِ . وَقُلْتُ لَكُمْ بِالشَّفَقَةِ
 عَلَيْكُمْ وَحُسْنِ النَّظَرِ مِنِّي لَكُمْ وَأَنْتُمْ فِي دَارِ
 الْآفَاتِ ، وَالْحَوَائِجِ غَيْرِ مَأْمُونَاتٍ : فَإِنْ أَحَاطَتْ بِمَالِ
 أَحَدِكُمْ آفَةٌ لَمْ يَرْجِعْ إِلَّا إِلَى نَفْسِهِ . فَاحْذَرُوا النِّقَمَ
 بِاخْتِلَافِ الْأَمَكِنَةِ فَإِنَّ الْبَلِيَّةَ لَا تَجْرِي فِي الْجَمِيعِ
 إِلَّا بِمَوْتِ الْجَمِيعِ .

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْعَبْدِ
 وَالْأَمَةِ وَالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ : فَرِّقُوا بَيْنَ الْمَنَايَا . وَقَالَ ابْنُ
 سِيرِينَ لِبَعْضِ الْبَحْرِيِّينَ : كَيْفَ تَصْنَعُونَ بِأَمْوَالِكُمْ ؟
 قَالُوا نَفَرِّقُهَا فِي السُّفُنِ فَإِنْ عَطَبَ بَعْضُ سِلْمَ بَعْضٌ .
 وَلَوْ لَا أَنَّ السَّلَامَةَ أَكْثَرَ مَا حَمَلْنَا أَمْوَالَنَا فِي الْبَحْرِ .

قَالَ ابْنُ سِيرِينَ : « تَحَسَّبُهَا خَرَقَاءُ وَهِيَ صَنَاعٌ ^(١) » .

وَعِبَسْتُمُونِي بِأَنْ قُلْتُ لَكُمْ عِنْدَ إِشْفَاقِي عَلَيْكُمْ :
 إِنَّ لِلْغَنَى لُسْكَرًا وَلِلْمَالِ لَنَزْوَةً ^(٢) فَمَنْ لَمْ يَحْفَظِ
 الْغِنَى مِنْ سُكْرِهِ فَقَدْ أَضَاعَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَرْتَبِطِ الْمَالُ
 بِخَوْفِ الْفَقْرِ فَقَدْ أَهْمَلَهُ .

فَعِبَسْتُمُونِي بِذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ زَيْدُ بْنُ جَبَلَةَ : لَيْسَ
 أَحَدٌ أَقْصَرَ عَقْلًا مِنْ غَنِيٍّ أَمِنَ الْفَقْرَ ، وَسُكْرُ الْغِنَى
 أَكْثَرُ مِنْ سُكْرِ الْخَمْرِ . وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ فِي يَحْيَى
 ابْنِ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ :

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن يقظ

(٢) النزوة : الثورة أو الوثبة

وَهُوبُ تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَنْوِبُهُ

مَنْوَعٌ إِذَا مَا مَنَعُهُ كَانَ أَحْزَمًا

وَعَبَسُونِي حِينَ زَعَمْتُمْ أَنِّي أَقْدَمُ الْمَالِ عَلَى الْعِلْمِ ،
لَإِنَّ الْمَالَ بِهِ يُفَادُ الْعِلْمُ وَبِهِ تَقُومُ النَّفْسُ قَبْلَ أَنْ
تَعْرِفَ فَضْلَ الْعِلْمِ فَهُوَ أَصْلُ وَالْأَصْلُ أَحَقُّ بِالتَّفْضِيلِ
مِنَ الْفَرْعِ ، فَقُلْتُمْ : كَيْفَ هَذَا ؟ وَقَدْ قِيلَ لِرَّئِيسِ
الْحُكَمَاءِ : الْأَغْنِيَاءُ أَفْضَلُ أَمِ الْعُلَمَاءُ ؟ قَالَ : الْعُلَمَاءُ
قِيلَ لَهُ : فَمَا بَالُ الْعُلَمَاءِ يَأْتُونَ أَبْوَابَ الْأَغْنِيَاءِ
أَكْثَرَ مَا يَأْتِي الْأَغْنِيَاءُ أَبْوَابَ الْعُلَمَاءِ ؟ قَالَ : ذَلِكَ
لِمَعْرِفَةِ الْعُلَمَاءِ بِفَضْلِ الْمَالِ وَجَهْلِ الْأَغْنِيَاءِ بِحَقِّ الْعِلْمِ .
فَقُلْتُ : حَالُهُمَا هِيَ الْقَاضِيَةُ بَيْنَهُمَا . وَكَيْفَ يَسْتَوِي
شَيْءٌ حَاجَةٌ الْعَامَّةِ إِلَيْهِ وَشَيْءٌ يَغْنَى فِيهِ بَعْضُهُمْ عَنْ

بَعْضٍ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ الْأَغْنِيَاءَ
بِاتِّخَاذِ الْغَنَمِ وَالْفُقَرَاءَ بِاتِّخَاذِ الدَّجَاجِ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنِّي لَا أَبْغِضُ أَهْلَ
بَيْتٍ يُنْفِقُونَ نَفَقَةَ الْأَيَّامِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ . وَكَانَ
أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوَلِيُّ يَقُولُ لَوْلَدِهِ : إِذَا بَسَطَ اللَّهُ لَكَ
الرِّزْقَ فَلَبْسُطْ وَإِذَا قَبَضَ فَاقْبِضْ .

وَعَبَّئُمُونِي حِينَ قُلْتُ : فَضْلُ الْغِنَى عَلَى الْقُوَّةِ
إِنَّمَا هُوَ كَفَضْلِ آلَةٍ تَكُونُ فِي الْبَيْتِ إِذَا احْتِيَجَ
إِلَيْهَا اسْتُعْمِلَتْ وَإِنْ اسْتُغْنِيَ عَنْهَا كَانَتْ عُدَّةً وَقَدْ
قَالَ الْحَصِينُ بْنُ الْمُنْذِرِ وَدِدْتُ أَنْ لِي مِثْلُ أَحَدِ ذَهَبًا
لَا أَنْتَفِعُ مِنْهُ بِشَيْءٍ قِيلَ لَهُ : فَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِهِ ؟
قَالَ : لِكثْرَةِ مَنْ كَانَ يَخْدُمُنِي عَلَيْهِ لِأَنَّ الْمَالَ مَخْدُومٌ

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ عَلَيْكَ بِطَلَبِ الْغِنَى فَلَوْ لَمْ
يَكُنْ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ عِزٌّ فِي قَلْبِكَ وَذُلٌّ فِي قَلْبِ
عَدُوِّكَ لَكَانَ الْحُظُّ فِيهِ جَسِماً وَالنَّفْعُ فِيهِ عَظِماً .

وَلَسْنَا نَدْعُ سِيرَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَتَعْلِيمَ الْخُلَفَاءِ
وَتَأْدِيبَ الْحُكَمَاءِ لِأَصْحَابِ اللَّهِ ، وَلَسْتُمْ عَلَى
تَرَدُّونَ وَلَا رَأْيِي تُفَنِّدُونَ فَقَدِّمُوا النَّظَرَ قَبْلَ الْعَزْمِ
وَأَذْرِكُوا مَا لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكُوا مَا لَكُمْ وَالسَّلَامَ
عَلَيْكُمْ .



وَمِنْ شَيْقِ الرِّسَائِلِ الْعَبَّاسِيَّةِ الْمُخْتَارَةِ ، الَّتِي
سَمَتْ مَرْتَبَةً بِلَاغَتِهَا ، وَرَقَّتْ مَائِيَّةُ أَفْظَاهَا ،
وَالَّتِي هِيَ آيَةٌ فِي الْفَصَاحَةِ وَالرَّجَاحَةِ ، وَالْجَلَالِ

وَالْمَلَا حَة ، وَآلَتِي تُذَكِّرُ بِسَجْبَانَ وَائِلٍ ، وَأَبْلَغَ
 قَائِلٍ ، رِسَالَةُ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّابِي كَاتِبِ الْخُلَفَاءِ ،
 وَأَمِينِ أَسْرَارِهِمْ ، وَعَمِيدِ دِيْوَانِهِمْ ، كَتَبَهَا وَهُوَ
 الْوَقُورُ النَّفْسِ الْمُشْتَطُّ مَدَى الْهَمَّةِ رَحْبُ الصَّدْرِ
 وَالْعَطَنِ ، رَاجِحُ الْخُصَاةِ وَالْفِطَنِ إِلَى الصَّاحِبِ
 أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ عَبَّادٍ - وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ نَضَعَ لَكَ
 فِيهِ كِتَابًا نُفَرِّدُهُ لِتَحْلِيلِ شَخْصِهِ وَدِرَاسَةِ عَصْرِهِ .

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي :

« أَنَا أَعْتَذِرُ إِلَى سَيِّدِي أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ مِنْ
 تَأَخَّرِ كُتُبِي عَنْ حَضْرَتِهِ الْجَلِيلَةِ ، بَعْدُ إِذَا تَأَمَّلَهُ
 حَقَّ تَأَمَّلَهُ وَعَرَضَهُ عَلَى تَقْدِهِ وَتَمْيِيزِهِ ، وَعَرَفَ صِدْقَ
 مَنْطِقِهِ وَخُلُوصَ مَصْدَرِهِ ، عَلِمَ أَنَّي مُوَاصِلٌ بَيَاطِنِ

مُرَادِي وَإِنْ صَرَمْتُ بِظَاهِرِ فِعْلِي ، وَمُلَازِمٌ بِخَافِي
 مَقْصِدِي وَإِنْ أَخْلَلْتُ بِيَادِي مَسَلَكِي ، وَهُوَ أَنَّنِي
 جَرَبْتُ مَكَاتِبَتَهُ أَيَّدَهُ اللَّهُ مُوَاطِبًا عَلَيْهَا مُكَبًّا ،
 وَمُرَاحِيًا بَيْنَ أَوْقَاتِهَا مُغَبًّا ، لِاتَّبِعَ أَحَبَّ الْأَمْرَيْنِ
 إِلَيْهِ ، وَأَوْقَعَهُمَا لَدَيْهِ ، فَلَمَّا لَاحَ لِي أَنَّ الْإِجْمَامَ^(١)
 أَنْفَقُ ، وَالتَّرْفِيَةَ أَوْفَقُ ، وَوَثِقْتُ بِأَنَّ رَأْيَهُ عَلَى فِي
 الْحَالَيْنِ مُحْرُوسُ النَّوَاحِي وَالْجَوَانِبِ ، مَحْمِي الشَّرَائِعِ^(٢)
 وَالْمَشَارِبِ ، اقْتَصَرْتُ عَلَى أَنْ أَتَعَرَّفَ أَخْبَارَهُ وَأَسْرَرَ
 بِاسْتِقَامَتِهَا ، وَانْتِظَامِهَا ، وَأَتَنَسَّمَ أَحْوَالَهَا ، وَأَسْكُنَ
 إِلَى اطْرَادِهَا وَالتَّسَامِيهَا ، وَابْتَهَجَ بِمَا يَصِيرُ أَيَّدَهُ اللَّهُ
 مِنْ ذِرْوَةِ مَرْتَبَةٍ يَعْتَلِيهَا ، وَغَارِبِ مَرْقَبَةٍ يَمْتَطِيهَا ،

وَأَنَّ أَدْلَ الْمُتَحَدِّثِينَ عَنْهُمَا وَالسَّامِعِينَ بِهِمَا ، عَلَى
 أَنَّهُ لَمْ يَسْتَوْفِ بَعْدَ حَظِّهِ ، وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ قِسْطَهُ ،
 فَإِنَّ لِلدُّنْيَا مَوَاعِيدَ فِيهِ ، لَا بُدَّ أَنْ يُنْجِزَهَا
 بِمَسَاعِيهِ ، وَمَا أَخَافُ فِي هَذَا الْقَوْلِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
 مِنْ غَلَطِ الْفِرَاسَةِ وَكَذِبِ الْمَخِيلَةِ ، وَلَا بِمُعَارَضَةِ
 الْمُعَارِضِ ، وَمُنَاقَضَةِ الْمُنَاقِضِ ، وَلَا أَعْدَمُ صِحَّةَ
 الشَّهَادَةِ وَقِيَامَ الدَّلَالَةِ ، وَقَبُولَ الْمُسْتَمِعِ ، وَتَشْيِيعَ
 الْمُتَّبِعِ ، وَكَفَى بِعِلْمِ اللَّهِ أَنِّي أَغْتَبِطُ بِنِعَمِهِ جَلَّ وَعَزَّ
 عِنْدَهُ ، إِغْتِبَاطِي بِهَا إِذَا كَانَتْ عِنْدِي ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهَا
 فِي فَنَائِهِ عَمَرُهُ اللَّهُ مُسْتَقَرَّةُ الْوَطَنِ قَاطِنَةٌ ، وَفِي كَثِيرٍ
 مِنَ الْأَفْنِيَةِ قَلَقَةُ الرِّكَابِ ظَاعِنَةٌ ، لِبُعْدِ فُضْلَاءِ الزَّمَانِ
 عَنْ مُسَاوَاتِهِ فِي اسْتِحْقَاقِهَا ، وَمُدَانَاتِهِ فِي اسْتِجَابِهَا ،

وَاسْتَبْدَادِهِ عَلَيْهِمْ بِحَيَاةٍ مَا يَتَفَرَّقُ فِيهِمْ ، وَاسْتِكْمَالِ
 مَا يَتَقَسَّمُ يَنْتَهَمُ مِنْ أَصْلِ رَاسِخٍ ، وَفَرَعٍ شَامِخٍ ،
 وَحِلْمٍ رَاجِحٍ ، وَقَدَرٍ طَامِخٍ ، وَأَدَبٍ جَزَلٍ ، وَمَنْطِقٍ
 فَضْلٍ ، وَقَرِيحَةٍ ثَاقِبَةٍ ، وَدِرَايَةٍ صَائِبَةٍ ، وَنَفْسٍ
 سَامِيَةٍ ، وَكَفٍّ هَامِيَةٍ ، وَأَوْصَافٍ لَا تُعْبَرُ عَنْهَا بِلَاغَةُ
 الْفُصَحَاءِ ، وَلَا يُحِيطُ بِهَا اسْتِحْفَازُ الْخُطَبَاءِ ، وَلَا تِجَارِيهِ
 فِيهَا أَقْدَامُ النُّظَرَاءِ ، وَلَا تَزَاجُهُ عَلَيْهَا مَنَاقِبُ
 الْأَكْفَاءِ ، بَلْ هِيَ مُسَلَّمَةٌ إِلَيْهِ إِذَا نُوزِعَ مُدَّعَوْهَا ،
 وَمُقَرَّرٌ لَهُ بِهَا إِذَا دُوفِعَ مُنْتَحِلُهَا ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ
 أَعْطَى قَوْسَ السِّيَادَةِ مِنْهُ بَارِيهَا ^(١) ، وَأَضَافَهَا إِلَى كُفِّهَا
 وَكَافِيَهَا ، وَفَسَخَ بِهِ شَرْطَ الدُّنْيَا الْفَاسِدَ فِي إِهْدَاءِ

(١) الماهر فيها ومسدها

حُظُوْظَهَا إِلَى أَوْغَادِهَا^(١) ، وَتَقَضَّ لَهُ حُكْمُهَا الْجَائِرُ
 فِي الْعُدُولِ بِهَا عَنْ نُجْبَاءِ أَوْلَادِهَا ، وَإِيَّاهُ أَسْأَلُ سُؤَالَ
 الضَّارِعِ إِلَيْهِ ، الطَّالِبِ لَدَيْهِ ، أَنْ يُطِيلَ بَقَاءَ سَيِّدِي
 الْإِطَالَةَ الْمُتَرَامِيَةَ^(٢) ، وَيُوفِّيَهُ أَقْصَى الْمَدَدِ الْمُتِمَادِيَةِ ،
 وَلَا يَعْدِمَهُ التَّوَعُّلُ فِي هَضْبَاتِهِ عَلَى رَفَاعَةٍ مِنْ مَعَاشِهِ ،
 وَالْارْتِقَاءِ إِلَى دَرَجَاتِهِ ، فِي سُكُونٍ مِنْ جَأْشِهِ ، وَلَا
 يَنْتَلِيهِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا بَعَثَرَةٌ وَلَا هَفْوَةٌ وَأَنْ يُبْلَغَهُ
 مَدَى هِمَّتِهِ الْعَالِيَةِ الْمُشْتَطَّةِ ، وَأُمْنِيَّتِي لَهُ الْمُنْبَسِطَةِ ،
 فَلَا مَزِيدَ عَلَيْهِ أَيْدَهُ اللَّهُ لِمُفْرِطٍ مُسْرِفٍ . وَلَا
 عَلَى فِي هَذَا لِمُتَطَلِّعٍ مُتَشَوِّفٍ .

وَأَمَّا بَعْدُ أَيْدَ اللَّهُ سَيِّدِي الصَّاحِبَ فَإِنَّ نُوبَ

الدَّهْرُ تَرَدَّدُ مِنْذُ سِنِينَ عَلَى وَعَلَى أَهْلِ صِنَاعَتِنَا
 الْمُنْحُوسَةِ بِالْعِرَاقِ ، مُنِيخَةً بِنَوَازِلِهَا ، مُلْقِيَةً
 بِكَلَالِهَا ، كَالِحَةً بِوُجُوهِهَا ، كَاشِرَةً عَنْ أَنْيَابِهَا ،
 لَتَعَاقِبِ الْأَيْدِي الْوَالِيَةَ عَلَيْنَا ، وَتَدْرُجُهَا فِي الْإِسَاءَةِ
 إِلَيْنَا ، وَتَزَايِدُهَا فِي الْفُظَاظَةِ بِنَا ، وَتَجَاوُزُهَا الْمَنْزِلَةَ
 إِلَى الْمَنْزِلَةِ فِي الْأَسْتِصَالِ لِأَحْوَالِنَا ، وَقَدْ تَوَفَّرَ
 قِسْطِي فِي تَأْثِيرِهَا ، بِحَسَبِ ضَنْئِي بِعَرْضِي وَصَوْنِي
 نَفْسِي وَبَذْلِي دُونَهَا مَالِي ، وَوَقَايَتِي إِيَّاهُمَا بِمَا مَلَكَتْ
 يَدِي ، حَيْثُ لَمْ أَسْأَلِ الْمَعُونَةَ أَحَدًا ، وَلَا سَمَحْتُ
 أَنْ أَسْتَمِيحَ مُسَوِّدًا وَلَا سَيِّدًا ، رَاجِعًا إِلَى شَيْءٍ مِمَّا
 يَرْجِعُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ مَوْرُوثٍ تَالِدٍ ، وَمُكْتَسَبٍ
 طَارِفٍ ، حَتَّى انْتَهَتْ مَغَارِمِي إِلَى نَحْوِ خَمْسِمِائَةِ أَلْفٍ

دِرْهِمٌ ، لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَهَا صَيْعَةٌ ، وَلَا مَنْزِلَةٌ ،
 وَلَا بَاطِنٌ وَلَا ظَاهِرٌ ، فَلَمَّا صَارَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ
 تَتَوَعَّلُ بَعْدَ التَّطَرُّفِ ، وَتَجَحُّفُ بَعْدَ التَّحْيِيفِ ،
 وَصَادَفَ مَا تَجَدَّدَ عَلَى مِنْهَا فِي الْوَقْتِ أَشْلَاءٌ مِنْهُوَكَةٌ ،
 وَأَعْظَمًا مَبْرِيَّةً ، وَحُشَاشَةً مَشْفِيَّةً ، وَبَقِيَّةً مُؤَدِيَةً ،
 فَارَقْتُ الْإِثَارَ وَأَطَعْتُ دَوَاعِيَ الْإِضْطِرَارِ وَجَعَلْتُ
 اخْتَارُ الْجِهَاتِ ، وَأَعْتَمْتُ^(١) الْجَنَبَاتِ ، لِأَنَّهُوَ مِنْهَا مَا لَا يُعَابُ
 سَأَلُهُ إِذَا سَأَلَ ، وَلَا يُخَيِّبُ أَمَلُهُ إِذَا أَمَلَ ، فَكَانَ
 سَيِّدِي أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ أَوْلَاهَا إِذَا عَدَدْتُ ، وَأَوْلَاهَا
 إِذَا اعْتَمَدْتُ .

وَكَتَبْتُ كِتَابِي هَذَا بِيَدٍ يَكَادُ وَجْهِي يَتَظَلَّمُ مِنْهَا

إِذْ تَحُطُّهُ ، إِشْفَاقًا عَلَى مَائِهِ مِمَّا يَهْرِيقُهُ ^(١) لَوْلَا الثَّقَّةُ
بِأَنَّهُ أَيْدَهُ اللَّهُ يَحْقِنُ مِيَاهَ الْوُجُوهِ وَيَحْمِيهَا وَيَجْمَعُهَا
وَلَا يَقْذِفُهَا ^(٢) وَخَاصَّةً مَنْ كَانَتْ لَهُ فِي نَفْسِهِ الْمَرْيَّةُ
الَّتِي لِيَ عَلَى غَيْرِي مِمَّنْ شَحَطَتْ ^(٣) دَارُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ
وَأَوْدَائِهِ بِمُشَاهَدَتِي شَخْصَهُ الشَّرِيفَ وَاعْتِلَاقِي حَبْلَهُ
الْحَصِيفَ وَكَوْنِي تَحْتَ ظِلِّ الدَّوْلَةِ وَالْجُمْلَةِ وَعِصْمَتِهَا ،
وَفِي ذِمَامِ الْمُمَالَحَةِ وَالْمُرَاضَعَةِ وَحُرْمَتَيْهَا ، وَالْأَسْبَابِ الَّتِي
هُوَ لَهَا بِكَرَمِ عَهْدِهِ حَافِظٌ ، وَبِعَيْنِ رِعَايَتِهِ مُلَاحِظٌ ،
وَانْفَذْتُ دَرَجَتَهُ كِتَابًا إِلَى مَوْلَانَا الْأَمِيرِ مُوَيِّدِ الدَّوْلَةِ
سَلَكْتُ فِيهِ سَبِيلَ الْعَبْدِ اللَّائِدِ بِمَوْلَاهُ ، وَالْخَادِمِ
الْمُحْتَاجِ إِلَى نَدَاهُ ، وَأَشْرْتُ إِلَى مَا كَانَ سَيِّدِي أَيْدَهُ

(١) يريقه (٢) يدها ويضميها (٣) بعدت : شحطت الدار

اللَّهُ قَدَمَهُ قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ مِنْ ذِكْرِي ، وَمَا تَفَضَّلَ
 وَمَهَّدَهُ مِنْ أَمْرِي ، وَرَجَوْتُ اسْتِثْمَارَ تِلْكَ الْمُقَدَّمَةِ
 عَلَى يَدِهِ وَبَرَكَتِهِ ، وَاسْتِنْجَاحَهَا يَمِنْ طَائِرِهِ وَتَقْيِيَّتِهِ ^(١)
 وَكُلُّ مَا يَتَأَتَّى مِنَ الْجَمِيعِ مُحْسُوبٌ مِنْ جَمَالِهِ ،
 وَمَعْدُودٌ فِي إِفْضَالِهِ ، وَزَائِدٌ فِي أَيَادِيهِ الْبَيْضِ ، الزُّهْرِ ،
 وَعَوَارِفِهِ الْمُحَجَّلَةِ الْغُرِّ ، وَسَيِّدِي الصَّاحِبِ أَطَالَ
 اللَّهُ بَقَاءَهُ وَلِيَّ مَا يَرَاهُ فِيمَا سَأَلْتُ وَافْتَرَحْتُ ،
 وَاشْتَطَطْتُ ^(٢) وَاحْتَكَمْتُ ، جَامِعًا لِي مِنْ جَاهِهِ
 وَمَالِهِ ، فَإِنَّ تَضَاعُفَ هَذِهِ الْمِحْنِ يَقْتَضِي مُضَاعَفَةَ
 مَا يُطَوَّقِيهِ مِنَ الْمِنَّةِ ، لَا كُونَ مَا عِشْتُ طَلِيقَهُ
 مِنْ حَبَائِلِهَا وَإِسَارِهَا ، وَعَتِيقَهُ مِنْ مَخَالِبِهَا وَأَظْفَارِهَا ،

وَالْإِعَازُ بِإِجَابَتِي بِمَا ابْتَهَجُ لَهُ مِنْ طِيبِ خُبْرِهِ ،
وَحَالِهِ ، وَأَمْتِثْلُهُ مِنْ عَالِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .



وَمِنْ طَرِيفِ الْأَدَبِ الْأَنْدَلُسِيِّ الْقُرْطُوبِيِّ الْمَلِيِّ
بِلَاغَةِ سَامِيَّةٍ ، وَرَقَّةٍ وَحَلَاوَةٍ ، وَفَرَاهَةِ وَطَلَاوَةٍ ،
مَعَ شَيْقِ اقْتِبَاسٍ ، وَمَأْثُورِ أَمْثَالٍ ، وَمَتِينِ تَرَكَيبٍ ،
وَبَلِيغِ أَسَالِيبٍ ، مَا كَتَبَهُ أَبُو الْوَلِيدِ أَحْمَدُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ زَيْدُونَ الْمَخْزُومِيِّ
وَهَذِهِ رِسَالَةُ ابْنِ زَيْدُونَ نُثْبِتُهَا بِنَصِّهَا :

يَا مَوْلَايَ ^(١) وَسَيِّدِي ، الَّذِي وَدَّادِي لَهُ وَاعْتِمَادِي
عَلَيْهِ ، وَاعْتِدَادِي بِهِ وَامْتِدَادِي مِنْهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ

(١) المولى السيد ويطلق على العبد

اللَّهُ مَاضِي^(١) حَدَّ الْعَزْمِ ، وَارِي^(٢) زَنْدِ الْأَمَلِ
 ثَابِت^(٣) عَهْدِ النِّعْمَةِ . إِنْ سَلَبْتَنِي — أَعَزَّكَ اللَّهُ —
 لِبَاسَ نِعْمَاتِكَ وَعَطَّلْتَنِي مِنْ حُلِي إِيْنَاْسِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِي
 إِلَى بَرُودِ^(٤) إِسْعَافِكَ ، وَنَقَضْتَ^(٥) بِي كِفِّ
 حَيَاطَتِكَ ، وَغَضَضْتَ عَنِّي طَرْفَ^(٦) حِمَايَتِكَ . بَعْدَ
 أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى^(٧) إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ ، وَسَمِعَ الْأَصْمُ
 ثَنَائِي عَلَيْكَ ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِحْمَادِي إِلَيْكَ . فَلَا
 غَرَوْ قَدْ يَغْصُ الْمَاءُ شَارِبَهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفَى

- (١) ما مضى حد العزم أى أن عزم ينفد كما ينفد السيف الماضى
 (٢) أى أمله مشرق كالزند الذى قدح فظهرت ناره (٣) ثابت
 عهد النعمة أى أن نعمته خالدة لا تزول (٤) وتركتنى ظمآن الى برد
 نجدتك (٥) وطرحتنى من رحمة يدك (٦) أهملتني وتحافى بى ظلك
 (٧) مبالغة فى هذه الجملة واللتين بعدها ومعنى الثلاث تغاضيت عنى بعد
 أن أصبح رجائى فيك يكاد يبصره الأعمى وثنائى يسمعه الأصم وحمدى لك
 يحسه الجمد

بِهِ ، وَيُؤْتَى الْحَذِرُ^(١) مِنْ مَأْمَنِهِ . وَتَكُونُ مَنِيَّةُ
الْمُسْتَمْنَى فِي أَمْنِيَّتِهِ . وَالْحَيْنُ^(٢) قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ
الْخَرِيصِ .

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمَرُّ عَلَى الْفَتَى
وَتَهْوُنُ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْحَسَادِ
وَإِنِّي لَا تَجَلَّدُ وَأَرَى لِلشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ
لَا أَتَضَعُّعُ . فَأَقُولُ : هَلْ أَنَا إِلَّا يَدٌ أَدْمَاهَا
سِوَارُهَا ، وَجَبِينَ عَضَّ بِهِ إِكْلِيلُهُ ، وَمَشْرِفِي^(٣)
الْصَّقَّةُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ ، وَسَمْهَرِي^(٤) عَرْضُهُ عَلَى النَّارِ
مُثَقَّفُهُ ، وَعَبْدُهُ ذَهَبَ بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الَّذِي يَقُولُ :

(١) مثل مشهور معناه يصاب المرء من الناحية التي يأمن شرها والجملة
التي تلي لها هذا المعنى (٢) الموت (٣) سيف (٤) رمح

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا
فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ
هَذَا الْعُتْبُ مُحَمَّدٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهَذِهِ النَّبُوءَةُ^(١)
غَمْرَةٌ^(٢) ثُمَّ تَنْجَلِي ، وَهَذِهِ التَّكْبَةُ سَحَابَةٌ صَيْفٌ
عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ . وَلَنْ يَرِيَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ أَبْطَأَ
سَيِّبُهُ^(٣) أَوْ تَأَخَّرَ غَيْرَ ضَنِينٍ غَنَاؤُهُ . فَأَبْطَأُ الدَّلَاءَ
فِيضًا أَمْلَأُهَا ، وَأَثْقَلُ السَّحَابِ مَشْيًا أَحْفَلُهَا^(٤) ،
وَأَنْفَعُ الْحَيَا^(٥) مَا صَادَفَ جَذْبًا ، وَالَّذُ الشَّرَابِ
مَا أَصَابَ غَلِيلًا ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٍ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ
كِتَابٌ . لَهُ الْحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ^(٦) ، وَلَا عُتْبَ
عَلَيْهِ فِي اغْتِفَالِهِ^(٧)

(١) نبوة السيف عدم قطعه (٢) شدة (٣) سحابة
(٤) أكثرها مطراً (٥) المطر (٦) اغتنامه واحتياله (٧) تركه

فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا
فَأَفْعَالُهُ اللَّاتِي سَرَرْتُ الْوَفَّ
وَأَعُوذُ فَأَقُولُ : مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسَعَهُ
عَفْوُكَ ، وَالْجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ
وَالْتَّطَاوُلُ ^(١) الَّذِي لَمْ يَسْتَغْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ ^(٢) ،
وَالْتَّحَامُلُ الَّذِي لَمْ يَفِ بِهِ احْتِمَالُكَ ؟ وَلَا أَخْلُو أَنْ
أَكُونَ بَرِيئًا فَأَيْنَ الْعَدْلُ أَوْ مُسِيئًا فَأَيْنَ الْفَضْلُ ؟ !
إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ
أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ
فَهَبْنِي مُسِيئًا كَالَّذِي قُلْتَ طَالِبًا
قِصَاصًا فَأَيْنَ الْأَخْذُ يَا عَزُّ بِالْفَضْلِ

حَنَانِيكَ قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبِّي^(١) ، وَنَالَني مَا حَسِبِي
 بِهِ وَكَفَى . وَمَا أَرَانِي^(٢) إِلَّا لَوْ أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ
 فَأَيُّتُ وَاسْتَكْبَرْتُ ، وَقَالَ لِي نُوحٌ ارْكَبْ مَعَنَا
 فَقُلْتُ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، وَأُمِرْتُ
 بَيْنَاءٍ صَرَحَ لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى ، وَعَكَفْتُ
 عَلَى الْعِجْلِ وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ ، وَتَعَايَيْتُ فَعَقَرْتُ ،
 وَشَرِبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ جُيُوشُ طَالُوتَ ،
 وَقُدْتُ الْفِيلَ لِأَبْرَهَةَ ، وَعَاهَدْتُ قُرَيْشًا عَلَى مَا فِي
 الصَّحِيفَةِ ، وَتَأَوَّلْتُ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ ، وَنَقَرْتُ إِلَى
 الْعِيرِ بَيْدَرٍ ، وَانْخَزَلْتُ بِثُلُثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ ،

(١) جمع زبية وهي حفيرة تحفر لاقتناص الأسد (٢) من قوله
 وما أَرَانِي إلى قوله لَسْكَانٍ فيما جرى يفرض ابن زيدون ارتكابه هذه الآثام
 التي ندد بها التاريخ ومظانها كتب التاريخ

وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَجِئْتُ
 بِالْإِفْكِ عَلَى عَائِشَةَ الصِّدِّيقِيَّةِ ، وَأَنْفَتُ عَنْ إِمَارَةِ
 أُسَامَةَ ، وَزَعَمْتُ أَنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً ،
 وَرَوَيْتُ رُحْمِي مِنْ كِتَابَةِ خَالِدٍ ، وَمَزَّقْتُ الْأَدِيمَ الَّذِي
 بَارَكْتَ يَدَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِأَشْمَطَ غُؤْوَانِ السُّجُودِ
 بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامِ

ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدٌ وَقَيْنَةٌ

وَضَرَبْتُ عَلِيَّ بِالْحُسَامِ الْمُسَمِّ
 وَكَتَبْتُ إِلَى عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ أَنْ جَعَجَعَ بِالْحُسَيْنِ
 وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَ مَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ :
 لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْذِرُ شَهْدُوا
 جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلِ

وَرَجَمْتُ الْكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِدَ عَلَى الثَّانِيَةِ :
لَكَانَ فِيمَا جَرَى عَلَى مَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَكَالًا ^(١) ،
وَيُدْعَى وَلَوْ عَلَى الْمَجَازِ عِقَابًا .

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِأَمْرِي
تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَ
فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نِيمَةً أَهْدَاهَا كَاشِحٌ ^(٢) ،
وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ وَهُمْ الْهَمَّازُونَ الْمَشَّاءُونَ بِنَمِيمٍ ،
وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبِثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا ^(٣) الْعَصَا ،
وَالْغَوَاةُ الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا ، وَالسُّعَاةُ الَّذِينَ
ذَكَرَهُمُ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ بِقَوْمِ
الصَّدَقِ مُحَمَّدٍ إِلَّا مِنْهُمْ .

(١) النكال الاصابة بنازلة (٢) الذي يضمم العداوة (٣) يشير

الى قول كثير عزه

ولا لبث الواشون أن يصدعوا العصا إذا هي لم يصلب على البرى عودها

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً
وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ
وَاللَّهُ مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلَا انْحَرَفْتُ
عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ ^(١) إِلَيْكَ ، وَلَا نَصَبْتُ ^(٢) لَكَ بَعْدَ
التَّشْيِيعِ فِيكَ ، وَلَا أَزْمَعْتُ يَأْسًا مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ
تَكَفَّلْتُ بِهِ الثَّقَةَ عَنْكَ ، وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ
عَلَيْكَ . فَفِيمَ عَبَثَ الْجَفَاءِ بِأَذِمَّتِي ^(٣) ، وَعَاثَ الْعُقُوقِ
فِي مَوَاتِي ^(٤) ، وَتَمَكَّنَ الضِّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ !
وَلَمْ صَاقَتْ مَذَاهِبِي ، وَأَكْدَتْ ^(٥) مَطَالِبِي ؟ وَعَلَامَ
رَضِيتُ مِنَ الْمَرْكَبِ ^(٦) بِالتَّعْلِيقِ ، بَلْ مِنَ الْغَنِيمَةِ

(١) الصاعية الميل (٢) أى ما كنت ناصبياً عدوك والناصبي كل
من خرج على كرم الله وجهه (٣) جمع ذمام وهو الحرمة (٤) جمع
مأته وهى الوسيلة (٥) تعطلت (٦) رضى من الركب بالتعليق ومن
الغنيمة بالاياب مثلاً يراد منهما أى أرى من عظيم الأمر بتأفهي

بِالْإِيَابِ ؟ وَأَنْتَى غَلَبَنِى الْمَغْلَبُ^(١) ، وَجَرَ عَلَى الْعَاجِزِ
الضَّعِيفِ ، وَلَطَمْتَنِى غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ ؟ وَمَالِكَ لَمْ تَمْنَعْ
مَنِى قَبْلَ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وَتُدْرِكَنِى وَلَمَّا أُمِرَقِ ؟ أَمْ كَيْفَ
لَا تَتَضَرَّمُ^(٢) جَوَانِحِ^(٣) الْأَكْفَاءِ حَسَدًا لِي عَلَى
الْخُصُوصِ^(٤) بِكَ ، وَتَتَقَطَّعُ أَنْفَاسُ النُّظَرَاءِ مُنَافَسَةً
فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ ؟ وَقَدْ زَانَنِى رَسْمُ خِدْمَتِكَ ،
وَزَهَّأَنِى^(٥) اسْمُ نِعْمَتِكَ ، وَأُبْلَيْتُ الْبَلَاءَ الْجَمِيلَ
فِي سِمَاطِكَ^(٦) ، وَفُتُّ الْمَقَامَ الْمُحْمُودَ فِي بَسَاطِكَ
أَلَسْتُ الْمُوَالِيَ فِيكَ غُرَّ قَصَائِدِي

هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمًا

(١) غلبني المغلب وجر على الضعيف ولطمتني الخ يراد منها أني استهدفت
لنيل الضعفاء مني (٢) تتقد (٣) الأضلاع التي تحت الترائب
(٤) شدة الصلابة (٥) جعلني أزهي على الناس وأعظم (٦) السباط
يطلق على ما يحمله على الطعام والسماطان الصفان من الناس

ثَنَاءٍ يُظَنُّ الرَّوْضُ مِنْهُ مُنَوَّرًا^(١)

ضَحَى وَيُخَالُ الْوَشْيُ^(٢) فِيهِ مُنَمَّنًا^(٣)

وَهَلْ لَبَسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَزَتْهُ بِفَضَائِلِكَ ،
وَتَقَلَّدَتْ الْجُوزَاءُ إِلَّا عِقْدًا فَصَّلَتْهُ بِمَآثِرِكَ ، وَاسْتَمَلَى
الرَّيْبِعُ إِلَّا ثَنَاءً مَلَأَتْهُ فِي مُحَاسِنِكَ ، وَبَتَّ الْمِسْكُ
إِلَّا حَدِيثًا أَدْعَتْهُ فِي مُحَامِدِكَ . مَا يَوْمَ حَلِيمَةٍ بِسِرٍّ
وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَكْسُكَ سَلِيبًا^(٤) ، وَلَا حَلِيَّتُكَ
عُطْلًا^(٥) ، وَلَا وَسَمْتُكَ غُفْلًا^(٦) . بَلْ وَجَدْتُ آجُرًا
وَجِصًّا فَبَنَيْتُ ، وَمَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ :
حَاشَا لَكَ أَنْ أَعِدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ^(٧) ، وَأَكُونَ

(١) مزدهرا (٢) ضرب من حلل الحرير (٣) موشى

(٤) مسلوبا وكل ثوب على البدن سلب (٥) ما تعطلت منه

(٦) أرض غفل لا علم بها (٧) عيون اليهود والنصارى

كَالذُّبَالَةِ الْمَنْصُوبَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ ، فَلَاكَ
 الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ بِي وَبِكَ أُولَى . وَلَعَمْرُكَ مَا جَهِلْتُ
 أَنْ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ ، إِذَا بَلَغْتَنِي الشَّمْسُ وَنَبَأِي
 الْمَنْزِلُ ، وَأَصْفَحَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تُقَطِّعُ أَغْنَاكَ
 الرِّجَالِ . فَلَا أَسْتَوْطِي الْعَجْزَ وَلَا أَطْمَئِنُّ إِلَى الْغُرُورِ .
 وَمِنْ الْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ « خَامِرِي ^(١) أُمَّ عَامِرٍ »
 وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ الْجَلَاءَ ^(٢) سِبَاءَ ^(٣) وَالنَّقْلَةَ ^(٤) مُثَلَّةً
 وَمَنْ يَغْتَرِبُ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى
 مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرًا وَمَسْحَبًا
 وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ وَإِنْ يُسِيءُ
 يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا ^(٥)

(١) خامري استتري وهو مثل يضرب لمن يعرف الدنيا ولا تنفعه تجارها

(٢) الخروج عن الوطن (٣) سباء اسم من سبية العدو (٤) الانتقال

والمثلة التنكيل (٥) اسم جبل

عَافُ أَنْ الْأَدَبَ الْوَطَنُ لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ ،
 وَالْخَلِيطُ لَا يَتَوَقَّعُ زِيَالَهُ^(١) وَالنَّسِيبُ لَا يَخْفَى ،
 وَالْجَمَالُ لَا يُجْنَى . ثُمَّ مَا قِرَانُ السَّعْدِ لِلْكَوَاكِبِ
 أَبْهَى أَثَرًا ، وَلَا أَثْنَى خَطَرًا مِنْ اقْتِرَانِ غِنَى
 النَّفْسِ بِهِ ، وَانْتِظَامِهَا نَسَقًا مَعَهُ ، فَإِنَّ الْحَازِرَ لَهُمَا ،
 الضَّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهِمَا ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، أَيْنَمَا تَوَجَّهَ ،
 وَرَدَّ مَنَهْلٍ بَرٍّ وَحَطَّ فِي جَانِبِ قَبُولٍ ، وَضُوحِكِ
 قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ، وَأُعْطِيَ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ ،
 وَقِيلَ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا

فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلٌ
 غَيْرُ أَنَّ الْوَطَنَ مَحْبُوبٌ ، وَالْمُنَشَأَ مَأْلُوفٌ ، وَاللَّيْبَ

يَحْنُ إِلَى وَطْنِهِ حَيْنَ النَّجِيبِ ^(١) إِلَى عَطْنِهِ ^(٢)
وَالْكَرِيمِ لَا يَحْفُو أَرْضًا فِيهَا قَوَابِلُهُ ، وَلَا يَنْسَى
بَلَدَةً فِيهَا مَرَاضِعُهُ
قَالَ الْأَوَّلُ :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا يَنْ مَنَعِجٍ ^(٣)
إِلَى وَسَلَمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادُهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِي
وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِسْمِي تُرَابُهَا
هَذَا إِلَى مُغَالَاتِي بِعَقْدِ جَوَارِكَ ، وَمُنَافَسَتِي
بِلَحْظَةٍ مِنْ قُرْبِكَ ، وَاعْتِقَادِي أَنَّ الطَّمَعَ فِي غَيْرِكَ
طَبَعٌ ^(٤) ، وَالْغِنَى مِمَّنْ سِوَاكَ عَنَّا ^(٥) ، وَالْبَدَلُ مِنْكَ

(٣) اسم مكان

(٢) مبرك الابل

(١) الكريم من الابل

(٤) دنس (٥) تعب

أَعْوَرُ ، وَالْعَوْضَ لَفَاءً وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا
وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي

ضَنًّا بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأُمَرَاءِ

وَفِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ ، وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ^(١)
وَالْعَفَارُ ، فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّاكَ ، وَالْمَيْلُ
عَمَّنْ لَا يَمِيلُ عَنْكَ ؟ وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ
فِيكَ ؛ وَرِضَاكَ فِيمَنْ رِضَاهُ لَكَ ؛

يَا مَنْ يَعْزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ

وَجِدَانَنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ

أُعِيذُكَ وَنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيْمَ خُلْبًا^(٢) ، وَاسْتَمَطِرَ
جَهَامًا^(٣) ، وَأَكْرِمَ غَيْرَ مُكْرِمٍ ، وَأَشْكُو شَكْوَى

(١) المرخ والعفار شجر سريع الاتقاد (٢) البرق الذي لا مطر معه

(٣) سحاب غير مطر

الْجَرِيحِ إِلَى الْعِقْبَانِ وَالرَّخْمِ ، فَمَا أَبْسَسْتُ^(١) لَكَ
إِلَّا لِتَدَّرَ ، وَحَرَّكَتُ لَكَ الْحُورَ إِلَّا لِتَحِنَّ ،
وَنَبَّهْتُكَ إِلَّا لِأَنَامَ ، وَسَرَيْتُ إِلَيْكَ إِلَّا لِأَحْمَدَ
السُّرَى^(٢) لَدَيْكَ ، وَإِنَّكَ إِنْ سَنَيْتَ^(٣) عَقَدَ أَمْرِي
تَيْسَرَ ، وَمَتَى أَعْذَرْتَ فِي فَكِّ أَسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ
وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ ، وَالشَّفَاعَةَ
زَكَاةُ الْمَرْوَةِ ، وَفَضْلُ الْجَاهِ يَعُودُ صَدَقَةً .
وَإِذَا أَمْرُؤُ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً

مِنْ جَاهِهِ فَكَانَهَا مِنْ مَالِهِ

لَعَلِّي أُلْقِيَ الْعَصَا بِذُرَاكَ ، وَتَسْتَقِرُّ بِي النَّوَى فِي
ظِلِّكَ ، وَأَسْتَأْنِفُ التَّأْدِيبَ بِأَدَبِكَ ، وَالْإِحْتِمَالَ عَلَى

مَذْهَبِكَ ، فَلَا أُوجِدُ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لِحَظِهِ ، وَلَا أَدْعُ
 لِلْقَادِحِ مَسَاغَ لَفْظِهِ ، وَاللَّهُ مُيَسِّرُكَ مِنْ إِبْلَاجِي^(١)
 بِهِذِهِ الطَّلِبَةِ^(٢) ، وَإِشْكَائِي^(٣) مِنْ هَذِهِ الشَّكْوَى ،
 بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ الْمَصْنَعِ ، وَتَسْتَوْدِعُهَا
 أَحْفَظَ مُسْتَوْدِعٍ ، حَسَبَ مَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ ، وَأَنَا مِنْكَ
 حَرِيٌّ بِهِ ، وَذَلِكَ بِيَدِهِ وَهَيْئُ عَلَيْهِ . وَلَمَّا تَوَالَتْ
 غُرُرُ هَذَا النُّثْرِ وَاتَّسَقَتْ دُرَرُهُ ، فَهَزَّ عِطْفَ غُلَوَائِهِ ،
 وَجَرَّ ذَيْلَ خِيَلَائِهِ ، عَارَضَهُ النَّظْمُ مُبَاهِيًا ، بَلْ كَابَدَهُ
 مُدَاهِيًا حِينَ أَشْفَقَ^(٤) مِنْ أَنْ يَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ ،
 وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ الْطَافُهُ ، فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ مِنْهُ ،
 وَاعْتَدَّ بِالْفَائِدَةِ ، وَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذَّهْنَ الْعَلِيلَ ،

(١) اسعافى (٢) الهوى والرغبة (٣) إزالة شكواى

(٤) اشفق من . . غارمته

وَالْخَاطِرَ الْكَالِيلَ ، حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ مِنْهُ عَرُوسًا مَجْلُوءَةً
 فِي أَثْوَابِهَا ، مُنْصُوصَةً بِجُلِيِّهَا وَمَلَابِسِهَا
 الْهَوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ
 وَالْمُنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ
 سَرَرْنَا عَيْشُنَا الرَّقِيقُ الْخَوَاشِي
 لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ
 وَطَرْتُ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقْضَى
 زَمَنٌ مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِيمِ
 إِذْ خِتَامُ الرِّضَا الْمُسَوِّغِ مِسْكٌ
 وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ
 وَغَرِيضُ الدَّلَالِ غَضُّ جَنَى الصَّ
 بُوَةِ نَشْوَانٍ مِنْ سَلَافِ النَّعِيمِ

طَالَمَا نَافَرَ الْهَوَى مِنْهُ غِرًّا
 لَمْ يَطُلْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالتَّيْمِ
 زَارَ مُسْتَخْفِيًا وَهَيْهَاتَ أَنْ يَخْ
 نَى سَنَا الْبَدْرِ فِي الظَّلَامِ الْبَهِيمِ
 فَوَشَى الْخَلَى إِذَا مَشَى وَهَفَا طَّ
 يِبُ إِلَى حِسِّ كَاشِحٍ بِالنَّسِيمِ
 أَيُّهَا الْمُؤْذِنِي بِظُلْمِ اللَّيَالِي
 لَيْسَ يَوْمِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظُلُومِ
 قَرُّ الْأَفْقِ إِذْ تَأَمَّلْتَ وَالشَّ
 مْسُ هُمَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ
 وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْحُو
 بِالْمُصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوَ الْعَظِيمِ

بَوَّاءَ اللَّهِ جَهْوَراً أَشْرَفَ السُّو

دَدٍ فِي السَّرِّ وَاللَّبَابِ الصِّمِ
وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأَمُّ

رَ فَكَانَ الْخُصُوصُ وَفَقَ الْعُمُومُ
قَلَدَ الْعُمُرُ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ

وَكَتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ
خَطَرٌ يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعِي

خُلُقٍ بَارِعٍ وَخُلُقٍ وَسِيمِ
أَسْوَةَ الرُّوضِ مَنْ بِطَيْبِكَ يَحْظَى

نَظَرِي مَا اعْتَمَدَتْهُ وَشَمِيمِي
أَيْهَذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو

وَالْعَصَا بَدَأَ قَرَعَهَا لِلْحَلِيمِ

مَا عَنَّا أَنْ يَأْتِيَ السَّابِقُ الْمَرْ
 بِطٍ فِي الْعِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ
 وَثَوَاءِ الْحُسَامِ فِي الْجَفْنِ يَثْنِي
 مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ
 أَفْصَرُ مِثْنِ خَمْسٍ مِنَ الْآيَا
 مِ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمِ
 وَمُعْنَى مِنْ الضَّيِّ بِهَنَاتٍ
 نَكَاتٍ بِالْكُلُومِ قَرْحَ الْكُلُومِ
 سَقَمٌ لَا أَعَادُ مِنْهُ وَفِي الْعَا
 ئِدِ أُنْسٌ يَفِي بِبُرْءِ السَّقِيمِ
 نَارٌ بَغْيٍ سَعَى إِلَى جَنَّةِ الْأُمِّ
 نِ لَهَا فَاظْهَرًا فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ

بَابِي أَنْتَ إِنْ تَشَأْتِ بِرَدِّ

وَسَلَامًا كَنَارِ إِبْرَاهِيمَ

لِلشَّيْخِ الشَّائِ وَالْحَمْدُ فِي صَوِّ

بِالْحَيَا لِلرِّيَّاحِ لَا لِلْغُيُومِ

وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذِلَّ لِي الصَّعَّ

بِالْمَشَابِي إِلَى الْهَمَامِ الزَّعِيمِ

وَتَنَاءٍ أَرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظَّا

عَنِ عَيْنِ شَوْقِهِ وَلَهُوَ الْمُقِيمِ

وَوِدَادٍ يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَاءَ

وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ

فَهُوَ رِيحَانَةُ الْجَلِيسِ وَلَا فَخْ

رَ وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ

لَمْ يَزَلْ مُغْضِيًّا عَلَى هَفْوَةِ الْجَا
نِي مُصِيحًا إِلَى اعْتِذَارِ الْمُئِيمِ
وَمَتَى تَبْدَأُ الصَّنِيعَةَ يُوَلِّعُ
كَ تَمَامِ الْخَصَالِ بِالتَّشْمِيمِ
وَقَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :
لَيْسَ دَهْرِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظُلُومِ
وَبَلَائِي مِنْ حَدِيثٍ وَقَدِيمِ
لَيْسَ يُسْتَنْكَرُ النُّحُولُ لِثَلَاثِ
جَسَدِي مُبْتَلًى بِقَلْبٍ مَشُومِ
هَآكِهََا أَعَزَّكَ اللَّهُ يَسُطُّهَا الْأَمَلُ ، وَيَقْبِضُهَا
الْخَجَلُ ، لَهَا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ وَحُرْمَةُ الْإِخْلَاصِ . فَهَبْ
ذَنْبًا لِحُرْمَةِ ، وَاشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ . لِتَأْتِيَ بِذَلِكَ

الْإِحْسَانَ مِنْ جِهَاتِهِ ، وَنَسَلْنَاكَ إِلَى أَفْضَلِ طُرُقَاتِهِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ



وَالآنَ تَقِفُكَ عَلَى نَوْعٍ جَدِيدٍ مِنَ الْأُسْلُوبِ
الَّذِي فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْمُمَثَّلِ لِمُخْتَارِ أَصَالِيْبِ
الْقُرْنِ الْخَامِسِ لِلْهَجْرَةِ ، وَالطَّرِيفِ فِي الْعَرَبِيَّةِ ،
مِمَّا لَقَّنِيهِ الْأُسْتَاذُ وَقَدْ نَقَلَ بَعْضُهَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ
الْإِسْكَافِيُّ وَذَكَرَهَا يَاقُوتٌ فِي مَعْجَمِهِ^(١) ، وَهِيَ مِنْ
مَجْمُوعَةِ رَسَائِلِ اللَّوْطُوطِ اتَّهَمَ فِيهَا الْحَسَنَ الْقِطَّانَ
بِالسَّرِقَةِ مِنْ كُتُبِهِ وَتَقْتَبِسُ مِنْهَا :

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت ج ٣ ص ١٧٠

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قَرَعَ سَمْعِي مِنْ
 أَفْوَاهِ الْوَارِدِينَ وَالسِّنَةِ الطَّارِئِينَ عَلَى خَوَارِزَمٍ ، أَنْ
 سَيِّدَنَا أَدَامَ اللَّهُ فَضْلَهُ ، كُلَّمَا يَفْرَغُ مِنْ مُهِمَّاتِ
 نَفْسِهِ ، وَوُظَائِفِ دَرْسِهِ ، يُقْبَلُ بِمَجَامِعِهِ عَلَى أَشْكَلِ
 لَحْمِي ^(١) ، وَالْإِطْنَابِ فِي سَبِيٍّ وَشَتْمِي . وَيَنْسِبُنِي إِلَى
 الْإِغَارَةِ عَلَى كُتُبِهِ ، وَيُبَالِغُ فِي هَتَاكِ أَسْتَارِ الْكَرَمِ
 وَحُجْبِهِ ، أَهَذَا يَلِيقُ بِالْفَضْلِ وَالْمُرُوءَةِ ، أَوْ يَحْمِلُ
 بِالْكَرَمِ وَالْفَتْوَةِ ؟ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ .
 بِمِثْلِ هَذَا الْكَذِبِ الْمُقْلِقِ ، وَالْبُهْتَانِ الْمُؤْلِمِ .
 وَاللَّهِ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ يَوْمَ النُّشُورِ ، وَبُعِثَتْ هَذِهِ
 الرِّمُّ الْبَالِيَةُ ^(٢) مِنَ الْأَجْدَاثِ مُتَدَرِّعَةً مَلَابِيسَ (مِنْ

(١) اغتياي من قوله تعالى : أَيْحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

(٢) الهالكة

دُونَ خَلَاءٍ) الْحَيَاةَ الثَّانِيَةَ وَجُمِعَتْ عِبَادُ اللَّهِ فِي مَوَاقِفِ
 الْعُرُصَاتِ^(١)، وَتَطَايَرَتْ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ إِلَى أَرْبَابِهَا،
 وَسُئِلَتْ كُلُّ نَفْسٍ عَمَّا كَسَبَتْ، فَمِنْ مُسِيٍّ يُسْحَبُ
 عَلَى وَجْهِهِ إِلَى النَّارِ، وَمِنْ مُحْسِنٍ يُحْمَلُ عَلَى أَعْطَافِ
 الْمَلَائِكَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، لَمْ يَتَعَلَّقْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْهَائِلِ
 أَحَدٌ بِذَيْلِي، طَالِبًا مِنِّي مُلْكًا غَصْبَتْهُ، وَلَا مَالًا نَهَبَتْهُ،
 أَوْ دَمًا سَفَكْتُهُ، أَوْ شَخْصًا قَتَلْتُهُ، أَوْ حَقًّا أَبْطَلْتُهُ،
 أَوْ سِتْرًا هَتَكْتُهُ. وَهَآنَذَا — قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنَ الْوَجْهِ
 الْحَلَالِ قَرِيبًا مِنْ أَلْفِ مُجَلَّدٍ مِنَ الْكُتُبِ النَّفِيسَةِ،
 وَالذِّفَائِرِ الْفَائِقَةِ، وَالنُّسَخِ الشَّرِيفَةِ، وَوُقِفَتْ كُلُّهَا عَلَى
 خَزَائِنِ الْكُتُبِ الْمُبْنِيَّةِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ عَمَرَهَا اللَّهُ،

لِيَنْتَفِعَ الْمُسْلِمُونَ بِهَا . وَمَنْ كَانَتْ عَقِيدَتُهُ هَكَذَا —
 كَيْفَ يَسْتَحْجِزُ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يُغَيِّرَ عَلَى كُتُبِ إِمَامٍ
 مِنْ شُيُوخِ الْعِلْمِ ، أَنْفَقَ جَمِيعَ عُمْرِهِ ، حَتَّى حَصَلَ
 أَوْرَاقًا يَسِيرَةً ، لَوْ بَاعَتْ فِي الْأَسْوَاقِ لَمَا أُخْضِرَ
 بِشَمْنِهَا مَائِدَةُ لَيْمٍ ^(١) . . . اللَّهُ اللَّهُ . — لَا يَفْتَرِينَّ
 سَيِّدُنَا آدَامَ اللَّهِ فَضْلُهُ — فَافْتَرَاءِ الْكَذِبِ عَلَى مِثْلِي
 ذَنْبٌ يَتَعَثَّرُ فِي أَذْيَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَلِيَخَافَنَّ اللَّهُ الَّذِي
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَلِيَتَذَكَّرَنَّ يَوْمَ يَثَابُ الصَّادِقُ فِيهِ
 بِصِدْقِهِ ، وَيُعَاقَبُ الْكَاذِبُ عَلَى كِذْبِهِ وَالسَّلَام .

فَوَرَدَ عَلَى الرَّشِيدِ جَوَابٌ عَنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ
 يَكُونُ فِي نَحْوِ كَرَّاسَتَيْنِ يُغْلِظُ لَهُ فِي الْقَوْلِ وَيُصَرِّحُ
 بِالسَّبِّ وَالتَّهْمَةِ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ الرَّشِيدُ :

(١) أرخص مائدة لأن اللّيم شحيح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : وَرَدَ كِتَابُ سَيِّدِنَا أَطَالَ
 اللَّهُ بَقَاءَهُ فِي دَوْلَةٍ مُفْتَرَّةٍ ^(١) الْمُبَاسِمِ ، وَنِعْمَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ
 الْمُرَاسِمِ ^(٢) ، مُشْتَمِلًا مِنَ الْإِيذَاءِ وَالْإِيحَاشِ ^(٣) ،
 وَالْإِيذَاءِ ^(٤) وَالْإِفْحَاشِ ، عَلَى كَلِمَاتٍ بَلَّ عَلَى ظُلُمَاتٍ !!
 لَوْ أَطْفَأَ — أَدَامَ اللَّهُ عُلوَّهُ — بَعْضَ لَهَبِهِ ، وَسَكَّنَ
 ثَائِرَتَهُ ^(٥) غَضَبِهِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ مُتَصَفِّحًا لِالْفَاطِظِ وَمَعَانِيهِ ،
 مُتَفَصِّحًا عَنْ مَقَاطِعِهِ وَمَبَايِنِهِ ، لَمَا ارْتَضَى ذَلِكَ مِنْ
 دِينِهِ وَعَقْلِهِ ، وَلَمَا اسْتَحْسَنَهُ مِنْ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ .
 إِلَّا أَنِّي أَعْذَرُهُ فِيمَا قَالَ ، قَصَرَ مَلَامُهُ أَوْ طَالَ .
 لِعِلْمِي أَنَّهُ أَدَامَ اللَّهُ عُلوَّهُ مَسْلُوبٌ مَغْلُوبٌ ، جَرِيحٌ

(١) مفترّة المباسم : أى باسمه راضية والدولة الملك (٢) المظاهر
 والحجاني والثمرات (٣) التجاني والتباعد (٤) الإخاش فى النعم والشم
 (٥) حدة

اسِنَّةُ الْقَهْرِ ، طَرِيحُ صَدَمَاتِ الدَّهْرِ . عَصِيَّةُ أُنْيَابٍ^(١)
 النَّوَائِبِ ، وَخَدَشَتُهُ أَظْفَارُ^(٢) الْمَصَائِبِ . نُهَيْتُ كُتْبُهُ
 وَأَمْوَالُهُ ، وَغُصِبَتْ رِحَالُهُ وَاثْقَالُهُ . وَطَالِبُ الثَّارِ
 يَقْصِدُ كُلَّ رَاجِلٍ وَفَارِسٍ ، وَصَاحِبُ الضَّالَّةِ يَتَّبِعُهُمْ
 كُلَّ قَائِمٍ وَجَائِسٍ . وَلَقَدْ عَلِمَ سَيِّدُنَا أَدَامَ اللَّهُ عُلوَّهُ ،
 أَنَّ وَقْعَةَ مَرَوْ عَمَّرَهَا اللَّهُ كَانَتْ وَاقِعَةً عَامَّةً ، شَمِلَتْ
 كُلَّ جَبْهَةٍ وَخَافِرٍ ، وَطَبَّقَتْ كُلَّ صَاحٍ وَصَافِرٍ .
 وَكَانَ قَدْ لَحِقَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِعَسْكَرِ خَوَارِزْمِشَاهٍ
 مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ أَوْزَاعُ^(٣) وَأَخْيَافُ^(٤) ، وَمِنْ حَشَرَاتِ
 الْأَرْضِ أَنْوَاعٌ وَأَصْنَافٌ . قُصَارَى هَمِّهِمُ الْقَتْلُ

(١) شبه النوائب بذات الأنياب من الوحوش (٢) شبه المصائب
 بذات الظفر من الطيور الجارحة (٣) الجماعات (٤) مختلفون

وَالْإِغَارَةُ ، وَمُسْتَهَى أَرْبِهِمُ الْإِحْرَاقُ وَالْإِبَارَةُ ، وَأَوْبَاشُ
 مَرَوْ أَيْضًا كَانُوا يَخْرُجُونَ مِنْ مَكَامِنِهِمْ فِي اللَّيَالِي ،
 وَيَتَعَرَّضُونَ لِبُيُوتِ السَّادَاتِ وَالْمَوَالِي . فَلَيْسَ بِمُسْتَبْعَدٍ
 أَنْ يَكُونَ ظَفَرَ بِكُتْبِهِ مِنْ أَوْلِيكَ الْأَقْوَامِ أَحَدٌ
 لَا يَعْرِفُ شَأْنَهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَكَانَهُ . أَمَّا أَنَا فَاللَّهُ تَعَالَى
 يَعْلَمُ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ اسْتَشْهَدَهُ بَاطِلًا ، أَنِّي مَا فَتَحْتُ
 لِلْإِغَارَةِ بَابَهُ ، وَلَا فَتَحْتُ كِتَابَهُ . بَلْ ذَهَبْتُ يَوْمًا
 عَلَى مُقْتَضَى إِشَارَتِهِ الْكَرِيمَةِ لِأَحْمَلِ كُتْبَهُ إِلَى
 الْمُعَسْكَرِ . فَلَمَّا دَخَلْتُ دَارَهُ الرَّفِيعَةَ ، وَرَأَيْتُ كُتْبًا
 كَثِيرَةً فَوْقَ مَا يُحِيطُ بِهِ عَدٌّ أَوْ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ حَدٌّ .
 فَقُلْتُ : نَقْلُ هَذِهِ أَمْرٌ مُشْكَلٌ ، وَحَمْلُ هَذِهِ خَطْبٌ
 مُعْضِلٌ ^(١) . فَتَرَكْتُهَا بِجَالَتِهَا فِي أَمَا كِنِهَا ، وَخَلَّيْتُهَا

(١) مشكل يدعو للحيلة

بِرُمَّتْهَا فِي مَعَادِنِهَا . وَخَرَجْتُ كَمَا دَخَلْتُ خَالِي
 الْحَقَائِبِ ، فَارِغَ الزَّكَائِبِ . فَإِنْ كُنْتُ غَصَبْتُ يَوْمَ
 وَقَعَةِ مَرَوْ أَوْ قَبْلَهَا أَوْ بَعْدَهَا مِنْ كُتْبِهِ - أَدَامَ اللَّهُ
 عُلوَّهُ - كِتَابًا أَوْ جُزْءًا ، أَوْ دَفْتَرًا أَوْ مِنْ سَائِرِ
 أَمْوَالِهِ شَيْئًا صَغُرَ أَوْ جَلَّ ، كَثُرَ أَوْ قَلَّ ،
 أَوْ رَضِيتُ أَنْ يَغْصِبَهُ أَحَدٌ مِنْ أَتْبَاعِي ، وَالْمُسْتَمِينَ
 إِلَيَّ . أَوْ عَرَفْتُ غَاصِبًا غَصَبَهُ ، أَوْ نَاهِبًا نَهَبَهُ .
 فَأَخْفَيْتُ ذَلِكَ عَنْهُ ، أَوْ كَتَمْتُهُ مِنْهُ . فَأَنَا بَرِيءٌ
 مِنَ اللَّهِ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنِّي . وَإِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ
 بِنَفْسِي شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْتُ ، أَوْ رَضِيتُ أَنْ يَفْعَلَهُ
 أَحَدٌ مِنَ الْمُتَعَلِّقِينَ بِي ، أَوْ عَرَفْتُ فَاعِلًا فَعَلَهُ :
 فَعَلَى اللَّهِ أَنْ أَحْبَجَ بَيْنَهُ الْمُعْظَمَ الْمُكْرَمَ رَاجِلًا حَافِيًا ،

وَعَلَى عَاتِقِ الزَّادِ وَالْمَزَادَةُ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، وَإِنْ كُنْتُ
 قَدْ فَعَلْتُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ أَوْ رَضِيتُ أَنْ يَفْعَلَهُ
 أَحَدٌ مِنَ الْمُتَعَلِّقِينَ بِي ، أَوْ عَرَفْتُ فَاعِلًا فَعَلَهُ ،
 فَكُلُّ مَالٍ مَلَكَتُهُ يَمِينِي ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى
 مَسَاكِينِ الْحَرَمَيْنِ . وَإِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ شَيْئًا مِنْ
 ذَلِكَ أَوْ رَضِيتُ أَنْ يَفْعَلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَعَلِّقِينَ بِي ،
 أَوْ عَرَفْتُ فَاعِلًا فَعَلَهُ ، فَكُلُّ عَبْدٍ مَلَكَتُهُ أَوْ
 أَمْلِكُهُ فَهُوَ حُرٌّ . وَإِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ شَيْئًا مِنْ
 ذَلِكَ أَوْ رَضِيتُ أَنْ يَفْعَلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَعَلِّقِينَ بِي ،
 أَوْ عَرَفْتُ فَاعِلًا فَعَلَهُ فَكُلُّ امْرَأَةٍ تَزَوَّجْتُهَا أَوْ
 أَتَزَوَّجُهَا فَهِيَ طَالِقٌ مِنِّي ثَلَاثَ طَلَقَاتٍ . هَذِهِ
 الْإِيمَانُ وَالنُّذُورُ كَتَبْتُهَا بَيْنَانِي ، وَأَجْرَيْتُهَا عَلَى لِسَانِي ،

لَا خَوْفًا مِنْ غَوَائِلِهِ^(١) ، وَلَا هَرَبًا مِنْ حَبَائِلِهِ^(٢) ،
 فَإِنَّ الصُّلَحَ آمَنَ أَهْلُهُ ، وَالْإِسْلَامَ جَبَّ^(٣) مَا قَبْلَهُ ،
 وَلَكِنْ إِظْهَارًا خُلُوءٍ رَاحَتِي ، وَبَرَاءَةٍ سَاحَتِي . وَشَفَقَةً
 عَلَيْهِ — أَدَامَ اللَّهُ عُلوَّهُ — وَصِيَانَةً لِفَاضِلِ مِثْلِهِ ، الَّذِي
 لَا مَشِيلَ لَهُ فِي أَقْطَارِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ ، وَأَقَاصِي
 الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةً غَيْرَ مُسْتَصَوِّبَةٍ ،
 وَيَخْتَارَ شَرِيعَةً غَيْرَ مُسْتَعْدَبَةٍ . عَصَمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاهُ
 مِمَّا يُورِثُ ذَمًّا ، وَيُعْقِبُ إِثْمًا .

وَقَدْ بَعَثْتُ فِي قِرَانِ هَذِهِ الْخِدْمَةِ خِدْمَةً أُخْرَى
 مُفْرِطَةً فِي الطَّوْلِ ، مُجَرَّرَةً الذِّلَّ ، مَنْسُوجَةً عَلَى
 مَنَوَالٍ آخَرَ ، كَالْكَيِّ لِلدَّاءِ إِذَا اسْتَحْكَمَتْ شِدَّتُهُ ،

(١) بواده ووسائل آذاه (٢) شراكه ومكايده (٣) محا

وَتَطَاوَلَتْ مُدَّتُهُ ، وَعَجَزَ الْأَسَاءَةُ ^(١) عَنْ مُعَالَجَتِهِ ،
وَالْأَطِبَاءُ عَنْ مَدَاوَاتِهِ . وَهَدَيْتُهُ — أَدَامَ اللَّهُ عُلوَّهُ —
فِيهَا النَّجْدَيْنِ ^(٢) ، وَأَرَيْتُهُ الطَّرِيقَيْنِ . وَدَفَعْتُ عِنَانَ
الْاخْتِيَارِ إِلَيْهِ ، وَوَضَعْتُ زِمَامَ الْإِثَارِ فِي يَدَيْهِ .
لَيْسَلْكَ مِنْهُمَا مَا يَشَاءُ : إِمَّا مَا يُسَرُّ بِهِ وَإِمَّا
مَا يُسَاءُ . وَفَقَّهُهُ اللَّهُ لِلْأُصُوبِ وَالْأَصْلَحِ . وَأَسْعَدَهُ
بِالْأَرْشَدِ وَالْأَنْجَحِ ، وَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ ،
وَالْفَائِزِينَ الْمُفْلِحِينَ . وَالسَّلَامُ .

✱

✱ ✱

وَإِنِّي لَا زَوِيَ لَكَ — فِي غَيْرِ تَمْثِيلٍ لِعَصْرِ
أَوْ أُسْلُوبٍ زَمَنِي — أَنْ أَكْثَرَ مَا كَانَ يُعْجِبُهُ — رَحْمَةُ
اللَّهِ — مِنْ كِتَابِ الْأَمَالِي وَلَا سِيَّامَا أُخْرِيَّاتِ أَيَّامِهِ

(١) الأطباء أو هو أشمل من الأطباء (٢) طريق الخير والشرأى أن له اختياراً

وَصِيَّةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ ، الَّتِي أَوْصَى بِهَا مُحَمَّدًا ،
 حِينَما حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ، مِمَّا نُثِبَتْهُ لَكَ ، لِجَزِيلِ نَفْعِهِ
 وَكَبِيرِ فَائِدَتِهِ ، وَرَائِعِ أَدَبِهِ ، وَتَخَيَّرِ لَفْظِهِ ، وَسَدِيدِ
 نَصَحِهِ وَحَصِيفِ رَأْيِهِ .

وَإِنِّي أَطْلُبُ إِلَيْكَ أَنْ تَسْتَوْعِبَ هَذِهِ الدَّرَّةَ
 الْيَتِيمَةَ ، لِمَا فِيهَا مِنْ عِظَةِ رَائِعَةٍ ، وَحِكْمَةٍ جَامِعَةٍ ،
 وَعِبْرَةٍ نَاصِعَةٍ ، وَأَنْ تَسْتَذْكِرَهَا جَيِّدًا ، وَتُنْعِمَ النَّظَرَ
 فِي مُحتَوِيَّاتِهَا وَمَنَاحِيهَا ، حِينَ قَرَأَتْكَ رِسَالَةَ الْغَزَالِي
 « أَيُّهَا الْوَلَدُ » ؛ الَّتِي سَنُطَالِعُكَ بِهَا فِيمَا سَنَنْشُرُهُ
 عَلَيْكَ مِنْ كُتُبِنَا ، عَنْ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
 الْفَدَّةِ ، وَبِتَيْسِيرِهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ ، وَمَنِّهِ
 وَفَضْلِهِ ، وَكَمْ يَكُونُ جَدُّ جَمِيلٍ إِذَا كُنْتُ مِمَّنْ وَهَبَهُ

اللَّهُ مَنْطِقَ الْمُقَابَلَةِ ، وَحَبَاكَ يَلْقَاحِ الْمُوَازَنَةِ ، لِتُقَارِنَ
 بَيْنَ الْمَادَّاتَيْنِ ، فَتُظْفَرَ بِحُسْنِ الْبَصِيرَةِ ، وَدِقَّةِ الْمُلَاحَظَةِ ،
 وَتَكْتَسِبَ بِذَلِكَ تَرْعِيَةً فِي قُوَّةِ الْمُقَايَسَةِ ، وَتُمَدَّ
 بِقَارِحَةِ الْكَمَالِ فِي التَّحَرِّيِ وَالِاسْتِقْرَاءِ ، وَكُنْتَ
 صَادِرًا عَنْ شِرْعَةِ الْأَخْصَائِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَثَارِ ،
 وَرُؤَادِ أَسَاتِيدِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ ، وَمَنْ فِي سِلَكِهِمْ ،
 مِمَّنْ نَبَهَ شَأْنَهُمْ فِي تَبْيِينِ الْعُهُودِ ، وَتَعْرِيفِ الْعُصُورِ ،
 فِي اسْتِكْنَاهِ جَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ ، وَحَقَائِقِ الْأُمُورِ ،
 وَإِنَّكَ لَتَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ؛ وَقَدْ أَصَبْتَ نُجَحًا
 مُؤَزَّرًا فِي عِلْمِ النَّقْدِ ، وَكُنْتَ الصَّيْرِفِيَّ الْمَاهِرَ فِي صِيَاعَةِ
 الْكَلَامِ ، وَالْحَكَمِ الْعَدْلَ بَيْنَ أُمَمَةِ الْبَيَانِ قَالَ (١) :

(١) أنظر كتاب الأملاني ص ٢٠٢ — ٢٠٤ ج ٢ وقد راجعناها
 على نصوص أسامة بن منقذ ص ٢٢ من كتاب لباب الألباب

يَا مُبْنَى ، أَرَى دَاعِيَ الْمَوْتِ لَا يُقْلِعُ ، وَمَنْ
 مَضَى مِنَّا لَا يَرْجِعُ ، وَمَنْ بَقِيَ فَإِلَيْهِ يَنْزِعُ ،
 وَلَيْسَ أَحَدٌ عَلَيْهِ بِمُشْتَعٍ . وَإِنِّي أَوْصِيكَ — يَا بُنَى —
 بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا : عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ ،
 وَلِيَكُنْ أَوْلَى الْأُمُورِ بِكَ الشُّكْرُ لِلَّهِ ، وَحُسْنُ
 النِّيَّةِ ، فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ . وَاعْلَمْ بِأَنَّ (الشَّاكِرَ)
 مُزَادٌ ، وَالتَّقْوَى خَيْرُ زَادٍ . وَكُنْ — يَا بُنَى — كَمَا
 قَالَ الْخَطِيبَةُ

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ
 وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
 وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا
 وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآتِقِ مَزِيدٌ

وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ
وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدٌ

ثُمَّ قَالَ : يَا مَبْنَى لَا تَزْهَدَنَّ فِي مَعْرُوفٍ ، فَإِنَّ
الدَّهْرَ ذُو صُرُوفٍ ، وَالْأَيَّامَ ذَاتُ نَوَائِبٍ ، عَلَى
الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ . فَكُم مِّن رَّاغِبٍ كَانَ مَرْغُوبًا
إِلَيْهِ ، وَطَالِبٍ قَدْ أَصْبَحَ مَطْلُوبًا مَا لَدَيْهِ . وَأَعْلَمُ
بِأَنَّ الزَّمَانَ ذُو أَلْوَانٍ ، وَمَنْ يَصْحَبِ الزَّمَانَ
يَرَى اَلْهُوَانَ ، وَكُنْ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي الدُّثَلِ
(أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوَلِيُّ)

وَعُدَّ مِنَ الرَّحْمَنِ فَضْلًا وَنِعْمَةً
عَلَيْكَ إِذَا مَا جَاءَ لِلْخَيْرِ طَالِبُ

وَإِنْ أَمْرًا لَا يُرْتَجَى الْخَيْرُ عِنْدَهُ

يَكُنْ هَيْنًا ثَقَلًا عَلَى مَنْ يُصَاحِبُ

فَلَا تَمْنَعَنَّ ذَا حَاجَةٍ جَاءَ طَالِبًا

فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاغِبٌ

رَأَيْتُ تَصَارِيفَ الزَّمَانِ بِأَهْلِهِ

وَيَنْبَغُهُمْ فِيهِ تَكُونُ النَّوَائِبُ

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، كُنْ جَوَادًا بِالْمَالِ فِي مَوَاضِعِ

الْحَقِّ ، بَخِيلًا بِالْأَسْرَارِ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ ، فَإِنَّ

أَحْمَدَ جُودِ الْحُرِّ ، الْإِنْفَاقُ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ ، وَإِنَّ أَحْمَدَ

بُخْلِ الْحُرِّ ، الضَّنُّ بِمَكْتُومِ السَّرِّ ، وَكُنْ — يَا بُنَيَّ —

كَمَا قَالَ : قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ الْأَنْصَارِيُّ

أَجُودُ بِمَضْنُونِ التَّلَادِ^(١) وَإِنِّي
 بِسِرِّكَ عَمَّنْ سَأَلَنِي لَضَيْنُ
 إِذَا جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ سِرٌّ فَإِنَّهُ
 بَنَتْ^(٢) وَتَكْسِيرِ الْحَدِيثِ قَيْنُ
 وَإِنْ ضَيَّعَ الْإِخْوَانُ^(٣) سِرًّا فَإِنِّي
 كَتُومٌ لِأَسْرَارِ الْعَشِيرِ أَمِينُ
 وَعِنْدِي لَهُ يَوْمًا إِذَا مَا اثْتَمَنَتْهُ
 مَكَانُ بِسَوْدَاءِ الْفُؤَادِ مَكِينُ
 ثُمَّ قَالَ : - يَا بُنَيَّ - وَإِنْ غُلِبْتَ يَوْمًا عَنِ الْمَالِ ،
 فَلَا تَدْعِ الْحِيلَةَ بِكُلِّ مَكَانٍ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ مُحْتَالٌ ،
 وَاللَّيِّمَ مُغْتَالٌ ، وَكُنْ أَحْسَنَ مَا تَكُونُ فِي الظَّاهِرِ

(٢) النث : إفشاء السر ونشره

(١) التلاد : المال الموروث

(٣) في الأصل الأقوام

حَالًا . أَقَلَّ مَا تَكُونُ فِي الْبَاطِنِ مَالًا . وَاعْلَمْ أَنَّ
الْكَرِيمَ مَنْ كَرُمَتْ عِنْدَ الْحَاجَةِ طَبِيعَتُهُ ، وَظَهَرَتْ
عِنْدَ الْإِنْفَازِ نِعَمَتُهُ ، وَكُنْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ
ابْنُ خَدَّاقِ الْعَبْدِيُّ :

وَجَدْتُ أَبِي قَدْ أَوْرَثَهُ أَبُوهُ
خِلَالًا قَدْ تَعَدُّ مِنْ الْمَعَالِي
فَأَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَى نَفْسِي
إِذَا مَا قَلَّ فِي الْأَزْمَاتِ مَالِي
فَتَحَسَّنُ سِيرَتِي وَأَصُونُ عِرْضِي
وَيَجْمَلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي
فَإِنْ نِلْتُ الْغِنَى لَمْ أَغْلُ فِيهِ
وَلَمْ أَخْصُصْ بِجَفَوَتِي الْمَوَالِي

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، وَإِنْ سَمِعْتَ كَلِمَةً مِنْ حَاسِدٍ ،
فَكُنْ كَأَنَّكَ لَسْتَ بِالشَّاهِدِ ، فَإِنَّكَ إِنْ أَمْضَيْتَهَا
حَيَاهَا^(١) ، وَقَعَ الْعَيْبُ عَلَى مَنْ قَالَهَا . وَقَدْ كَانَ
يُقَالُ : إِنَّ الْأَرِيبَ الْعَاقِلَ هُوَ الْفَطِنُ الْمُتَغَافِلُ ،
وَكُنْ كَمَا قَالَ حَاتِمُ الطَّائِي :

وَمَا مِنْ شَيْمَةٍ شَتَمُ ابْنِ عَمِّي
وَمَا أَنَا مُخْلِفٌ مَنْ يَرْتَجِينِي

وَكَلِمَةِ حَاسِدٍ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ
سَمِعْتُ ، فَقُلْتُ : مَرَى فَاَنْفُذِي

فَعَابُوهَا عَلَى وَلَمْ تَعْبِنِي
وَلَمْ يَعْرِقْ لَهَا يَوْمًا جَبِينِي

(١) حياها : مقابلتها

وَذُو اللَّوْنَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيقًا
وَلَيْسَ إِذَا تَغَيَّبَ يَأْتِلِينِي^(١)
بَصُرْتُ بَعِيْبِهِ فَكَفَفْتُ عَنْهُ

مُحَافَظَةً عَلَى حَسْبِي وَدِينِي
ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، لَا تُوَاخَ أَخًا حَتَّى تُعَاشِرَهُ
وَتَعْرِفَ أَمْرَهُ ، وَتَتَفَقَّدَ مَوَارِدَهُ وَمَصَادِرَهُ ؛ فَإِذَا
اسْتَطَبَّتِ الْعُسْرَةُ ، وَرَضِيتِ الْخُبْرَةُ ، فَأَخِهِ عَلَى إِقَالَةِ
الْعُتْرَةِ ، وَالْمُوَاسَاةِ فِي الْعُسْرَةِ . وَكُنْ — يَا بُنَيَّ —
كَمَا قَالَ الْمُقَنَّنُ الْكِندِيُّ :

أَبْلُ الرِّجَالِ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ
وَتَوَسَّمتَ فَعَالَهُمْ وَتَفَقَّدَ

(١) ألوت : أى ما قصرت أو ما استطعت

فَإِذَا ظَفِرْتَ بِذِي الْأَمَانَةِ وَالْتَقَى

فِيهِ الْيَدَيْنِ - قَرِيرَ عَيْنٍ - فَاشْدُدْ

وَإِذَا رَأَيْتَ - وَلَا مُحَالََةَ - زَلَّةً

فَعَلَى أَخِيكَ بِفَضْلِ حَامِكَ فَارْدُدْ

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، وَإِذَا أَحْبَبْتَ حَبِيبًا فَلَا

تُقْرِطْ ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ بَغِيضًا فَلَا تُشْطِطْ ، فَإِنَّهُ

قَدْ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ :

« أَحِبِّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ

بَغِيضَكَ يَوْمًا مَّا ، وَابْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَّا ،

عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَّا . وَكُنْ كَمَا قَالَ

الشَّاعِرُ هُدْبَةُ بْنُ الْخَشْرَمِ الْعُذْرِيُّ

وَكَُنْ مَعْقِلًا لِلْخَيْرِ وَاصْفَحْ عَنِ الْخَنَاءِ^(١)

فَإِنَّكَ رَأَى مَا حَيَّيْتَ وَسَامِعُ

وَأَحْبَبُ - إِذَا أَحْبَبْتَ - حُبًّا مُقَارِنًا

فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَارِعُ

وَأَبْغَضُ إِذَا أَبْغَضْتَ بَغْضًا مُقَارِبًا

فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى الْوُدُّ رَاجِعُ

وَعَلَيْكَ - يَا بُنَيَّ - بِصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ وَصِدْقِ

الْحَدِيثِ ، وَإِيَّاكَ وَصُحْبَةَ الْأَشْرَارِ فَإِنَّهُ عَارُ . وَكَُنْ

كَمَا قَالَ الدَّارِمِيُّ :

صَاحِبِ الْأَخْيَارِ وَارْغَبْ فِيهِمْ

رُبَّ مَنْ صَاحَبَتْهُ مِثْلُ الْجَرْبِ

وَدَعَ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ ،
وَإِذَا شَاتَمْتَ فَاشْتُمْ ذَا حَسَبٍ
إِنَّ مَنْ شَاتَمَ وَغَدَا كَالَّذِي
يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ
وَاصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ
وَدِعِ الْكَذِبَ فَمَنْ شَاءَ كَذَبَ
رُبَّ مَهْزُولٍ سَمِينٌ عَرَضُهُ
وَسَمِينِ الْجِسْمِ مَهْزُولُ الْحَسَبِ
ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، وَإِذَا آخَيْتَ فَلَاخَ مَنْ يُعَدُّ
لِنَوَائِبِ الزَّمَانِ ، وَعَلَيْكَ بِذَوِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ
تَقَفُّهُمْ الْأَدَابُ وَوَقَفَتْهُمْ الْأَحْسَابُ ، فَإِنَّهُمْ أَطِيبُ
مُخْتَبَرٍ ، وَأَكْرَمُ مُحْتَضِرٍ ، وَأَعَذُّ مُعْتَصِرٍ ، وَاحْذَرِ

إِخَاءَ كُلِّ جَهُولٍ، وَصُحْبَةَ كُلِّ عَجُولٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ
 الزَّلَّةَ، وَإِنْ عَرَفَ الْعِلَّةَ، سَرِيعُ غَضَبِهِ، عَالٍ لَهْبُهُ
 إِنْ سَأَلَ أَخْلَفَ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ، يَرَى مَا يُعْطِيكَ
 غُرْمًا، وَمَا يَأْخُذُ مِنْكَ غُنْمًا؛ فَهُوَ يُرْضِيكَ مَا طَمَعَ
 فِيكَ؛ فَإِذَا يَتَّسَّ مِنْ خَيْرِكَ، مَالٍ إِلَى غَيْرِكَ.
 وَفِي مِثْلِهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

لَا تُوَاخِ - الدَّهْرَ - جِبْسًا^(١) رَاضِعًا

مُلْهَبَ^(٢) الشَّرِّ قَلِيلَ الْمُنْفَعَةِ

مَا يَنْلُ مِنْكَ فَأَحْلَى مَغْنَمٍ

وَيَرَى ظَرْفًا بِهِ أَنْ يَمْنَعَهُ

يَسْأَلُ النَّاسَ وَلَا يُعْطِيهِمْ

تَكَلَّتْهُ أُمُّهُ مَا أَطْمَعَهُ

(١) الجبس: ظاهر الجهل (٢) ملهّب الشر: شديده

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، مَنْ عَتَبَ عَلَى الزَّمَانِ ، وَتَتَبَعَ
عَثَرَاتِ الْإِخْوَانِ ، قَطَعَهُ صَدِيقُهُ ، وَمَلَّهٗ رَفِيقُهُ ،
وَاحْتَمَاهُ الْأَهْلُونَ ، وَظَفَرَ بِهِ الشَّامِتُونَ ، وَمَنْ سَارَ
فِي الْبِلَادِ ، ثَمَرَ الْمُرَادِ ، وَطَالِبُ الْكَفَافِ — بِالْقَنَاعَةِ
وَالْعَفَافِ — : يَعِيشُ حَمِيدًا ، وَيَمُوتُ فَقِيرًا .
وَقَدْ قَالَ النَّابِغَةُ :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشًا لِنَفْسِهِ
شَكَ الْفَقْرَ أَوْ لَامَ الصَّدِيقَ فَأَكْثَرَا
وَصَارَ عَلَى الْأَذْنَيْنِ^١ كَلًّا^٢ وَأَوْشَكَتْ
صِلَاتُ ذَوِي الْقُرْبَى لَهُ أَنْ تَنْكَرَا

فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمِسِ الْغِنَى ،
 تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتُعْذَرَا
 وَمَا طَالِبُ الْحَاجَاتِ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ
 مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ أَجَدَّ وَشَمَّرَا
 وَلَا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بِدُونِ وَلَا تَمَ
 وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ بَاتَ مُعْسِرَا
 ثُمَّ قَالَ : وَلَيْسَ إِخْوَانُكَ وَأَهْلُ بَطَانَتِكَ أَوْلَى
 الدِّينِ وَالْعَفَافِ ، وَالْمَرْءُ وَاتِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ ؛
 فَإِنِّي رَأَيْتُ إِخْوَانَ الْمَرْءِ يَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَلِسَانَهُ
 الَّذِي يَصُولُ بِهِ ، وَجَنَاحَهُ الَّذِي يَنْهَضُ بِهِ . فَأَصْحَبُ
 هَؤُلَاءِ تَجِدُهُمْ إِخْوَانًا ، وَعَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا . وَاجْتَنِبِ
 الصَّغَارَ الْأَخْطَارَ ، اللَّثَامَ الْأَقْذَارَ ، الَّذِينَ لَا يُحَاكُمُونَ

عَلَى حَسَبٍ ، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى نَسَبٍ ، وَلَا يَصْبِرُونَ
 عَلَى نَائِبَةٍ ، وَلَا يَنْظُرُونَ فِي عَاقِبَةٍ ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ رَأَوْكَ
 فِي رَحَاءٍ سَأَلُوكَ ، وَإِنْ رَأَوْكَ فِي شِدَّةٍ أَسَأَمُوكَ ؛
 وَلَعَلَّهُمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْكَ مَعَ بَعْضِ الْأَعْدَاءِ .

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرَّجُلَ بِلَا خَدِينٍ ^(١) ، كَذَى الشَّمَالِ
 بِلَا يَمِينٍ . وَاخْلِطْ نَفْسَكَ مَعَ الْأَبْرَارِ ، وَطَهَّرْهَا
 مِنَ الْفُجَّارِ ، فَلَمَرَّ يُعْرِفْ بِقَرِينِهِ . وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :
 وَقَارِنْ إِذَا قَارَنْتَ حُرًّا فَإِنَّمَا

يَزِينُ وَيُزِرِّي بِالْفَتَى قُرْنَاؤُهُ
 وَلَنْ يَهْلِكَ الْإِنْسَانُ إِلَّا إِذَا أَتَى
 مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَرْضَهُ نَصَحَاؤُهُ

(١) الخدين والخدم : الصاحب والصديق .

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ

وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِهِ إِذَا قَلَّ مَأْوُهُ

ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، قَدْ جَمَعْتُ لَكَ مَصَالِحَ نَفْسِكَ ،
فَلَسْتُ فَتِّحَ اللَّهُ بِمَسَامِيعِ عَقْلِكَ ؛ وَتَفَهَّمْ مَا وَصَفْتُ
لَكَ بِالْجَارِبِ ؛ تَحْزُ صِلَاحَ الْعَوَاقِبِ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ تَوَرَّعَ ، وَمَنْ غَفَلَ
عَنْهَا خَسِرَ ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ نَجَا ، وَمَنْ اعْتَبَرَ
أَبْصَرَ ، وَمَنْ فَهَمَ عِلِمَ ، وَفِي التَّوَانِي تَكُونُ الْهَلَكَةُ
وَفِي التَّانِي ، السَّلَامَةُ ، وَزَارِعُ الْبَرِّ يَحْصُدُ الشُّرُورَ ،
وَالْقَلِيلُ مَعَ الْقَنَاعَةِ فِي الْقَصْدِ ، خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ
مَعَ السَّرَفِ فِي الْمَذَلَّةِ ، وَالتَّقْوَى نَجَاةٌ ، وَالطَّاعَةُ
مُلْكٌ ، وَحَلِيفُ الصَّدَقِ مُوَفَّقٌ ، وَصَاحِبُ

الْكُذِبِ مَخْذُولٌ؛ وَصَدِيقُ الْجَاهِلِ تَعِبٌ، وَنَدِيمُ
 الْعَاقِلِ مُغْتَبِطٌ. فَإِذَا جَهَلْتَ فَسَلْ، وَإِذَا نَدِمْتَ
 فَأَقْلِعْ، وَإِذَا غَضِبْتَ فَأَمْسِكْ، وَمَنْ لَأَقَاكَ بِالْبَشْرِ
 فَقَدْ أَدَّى إِلَيْكَ الصَّنِيعَةَ، وَمَنْ أَقْرَضَكَ الشَّاءَ
 فَأَقْضِهِ الْفَضْلَ.

وَضَعُ - يَا بُنَى الصَّنَائِعِ عِنْدَ الْكِرَامِ ذَوِي
 الْأَحْسَابِ، وَلَا تَضَعَنَّ مَعْرُوفَكَ عِنْدَ اللَّئَامِ فَتُضْيِعَهُ،
 فَإِنَّ الْكَرِيمَ يَشْكُرُكَ وَيَرْصُدُكَ^(١) بِالْمُسْكَافَةِ، وَإِنَّ
 اللَّئِيمَ يَحْسِبُ ذَلِكَ حَتْمًا، وَيَوُؤُلُ أَمْرَكَ مَعَهُ إِلَى
 الْمَذَلَّةِ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا أَوْلَيْتَ مَعْرُوفًا لَيْمًا
 فَعَدَّكَ قَدْ قَتَلْتَ لَهُ قَتِيلًا

(١) يرصدك : يرقبك : والارصاد الترقب

فَعُدُّ مِنْ ذَاكَ مُعْتَذِرًا إِلَيْهِ
 وَقُلْ إِنِّي أَتَيْتُكَ مُسْتَقِيلًا^(١)
 فَإِنْ تَغْفِرْ فَمُجْتَرَمٌ^(٢) عَظِيمٌ
 وَإِنْ عَاقَبْتَ لَمْ تَظْلِمْ فَتِيلًا
 وَإِنْ أَوْلَيْتَ ذَلِكَ ذَا وَفَاءٍ
 فَقَدْ أَوْدَعْتَهُ شُكْرًا طَوِيلًا
 لَمَّا حَضَرَتِ الْمُهْلَبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ
 الْوَفَاءُ ، قَالَ لَوْلَدِهِ وَأَهْلِهِ : أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ،
 وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تُعْقِبُ الْجَنَّةَ ؛ وَإِنَّ
 صِلَةَ الرَّحِمِ تُنْسِي^(٣) الْأَجَلَ ، وَتُشْرِى الْمَالَ ، وَتَجْمَعُ
 الشَّمْلَ ، وَتُكَثِّرُ الْعَدَدَ ، وَتُعَمِّرُ الدِّيَارَ ، وَتُعِزُّ

(١) من استقال الذنب : طلب إقالته منه (٢) مجترم : متحرج

(٣) تزيد فيه

الْجَانِبَ ، وَأَنهَا كُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ
مَعْصِيَةَ اللَّهِ تُعْقِبُ النَّارَ ؛ وَإِنَّ قَطِيعَةَ الرَّحِمِ تُورِثُ
الذِّلَّةَ وَالْقِلَّةَ ، وَتُقِلُّ الْعَدَدَ ، وَتَفَرِّقُ الْجَمْعَ ، وَتَذَرُ
الدِّيَارَ بِلَا قَعٍ ^(١) ، وَتُذْهِبُ الْمَالَ ، وَتُطْمِعُ الْعَدُوَّ ،
وَتُبْدِي الْعَوْرَةَ .

يَا بَنِي ، قَوْمَكُمْ قَوْمَكُمْ : إِنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ
فَضْلٌ عَلَيْهِمْ ، بَلْ هُمْ أَفْضَلُ مِنْكُمْ ، إِذْ فَضَّلَوْكُمْ
وَسَوَّدَوْكُمْ ، أَوْطَأُوا أَعْقَابَكُمْ ، وَبَلَّغُوا حَاجَتَكُمْ ،
فِيمَا أَرَدْتُمْ وَأَعَانُوكُمْ ؛ فَإِنْ طَلَبُوا فَأَطِيبُوهُمْ ، وَإِنْ
سَأَلُوا فَأَعْطُوهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَسْأَلُوا فَابْتَدِئُوهُمْ ، وَإِنْ
شَتَمُوا فَاحْتَمِلُوهُمْ ، وَإِنْ غَشَوْا أَبْوَابَكُمْ فَلْتَفْتَحْ
لَهُمْ وَلَا تَغْلَقْ دُونَهُمْ .

(١) جمع بلقع : وهو الخراب اليَسَابُ

يَا بَنِيَّ إِنِّي أَحِبُّ لِلرَّجُلِ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ
لِفِعْلِهِ الْفَضْلُ عَلَى لِسَانِهِ ، وَأَكْرَهُ لِلرَّجُلِ مِنْكُمْ
أَنْ يَكُونَ لِللِّسَانِ الْفَضْلُ عَلَى فِعْلِهِ .

يَا بَنِيَّ ، اتَّقُوا الْجَوَابَ ، وَزَلَّةَ اللِّسَانِ ، فَإِنِّي
وَجَدْتُ الرَّجُلَ تَعَثُرُ قَدَمُهُ فَيَقُومُ مِنْ زَلَّتِهِ وَيَنْتَعِشُ
مِنْهَا سَوِيًّا ، وَيَزِلُّ لِسَانُهُ فَيُوبِقُهُ وَيَكُونُ فِيهِ هَلَكَتُهُ .
يَا بَنِيَّ ، إِذَا غَدَا عَلَيْكُمْ رَجُلٌ وَرَاحَ فَكُنِي
بِذَلِكَ مَسْأَلَةً وَتَذَكُّرَةً بِنَفْسِهِ .

يَا بَنِيَّ ، ثِيَابُكُمْ عَلَى غَيْرِكُمْ أَجْمَلُ مِنْهَا عَلَيْكُمْ ،
وَدَوَابُّكُمْ تَحْتَ غَيْرِكُمْ أَجْمَلُ مِنْهَا تَحْتَكُمْ .

يَا بَنِيَّ ، أَحِبُّوا الْمَعْرُوفَ ، وَأَنْكِرُوا الْمُنْكَرَ
وَاجْتَنِبُوهُ ؛ وَآثِرُوا الْجُودَ عَلَى الْبُخْلِ ؛ وَاصْطَنِعُوا الْعَرَبَ

وَأَكْرَمُوهُمْ ، فَإِنَّ الْعَرَبِيَّ تَعِدُهُ الْعِدَّةُ فَيَمُوتُ دُونَكَ ،
وَيَشْكُرُ لَكَ ، فَكَيْفَ بِالصَّنِيعَةِ إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ
فِي احْتِمَالِهِ لَهَا وَشُكْرِهِ ، وَالْوَفَاءُ مِنْهُ لِصَاحِبِهَا ؟
يَا بَنِي ، سَوِّدُوا أَكْبَرَكُمْ ، وَاعْرِفُوا فَضْلَ
ذَوِي أَسْنَانِكُمْ ، وَارْحَمُوا صَغِيرَكُمْ وَقَرَّبُوهُ وَالْطِفُوهُ ،
وَاجْبُرُوا يَتِيمَكُمْ وَعُودُوا عَلَيْهِ بِمَا قَدَرْتُمْ ، ثُمَّ خُذُوا
عَلَى أَيْدِي سُفَهَائِكُمْ ، وَتَعَاهَدُوا فَقَرَاءَكُمْ وَجِيرَانَكُمْ
بِمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ ، وَاصْبِرُوا لِلْحَقُوقِ وَنَوَائِبِ الدُّهُورِ ؛
وَاحْذَرُوا عَارَ غَدٍ ، وَعَلَيْكُمْ فِي الْحَرْبِ بِالْأَنَانَةِ
وَالثَّوْدَةِ فِي اللَّقَاءِ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْتِمَاسِ الْخَدِيعَةِ فِي
الْحَرْبِ لِعَدُوِّكُمْ ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالنَّزَقَ ^(١) وَالْعَجَلَةَ فَإِنَّ

(١) النزق : الرعونة

الْمَكِيدَةَ وَالْأَنَانَةَ وَالْخَدِيعَةَ أَنْفَعُ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالشَّدَّةِ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْقِتَالَ وَالْمَكِيدَةَ مَعَ الصَّبْرِ ، فَإِذَا
كَانَ اللَّقَاءُ ، نَزَلَ الْقَضَاءُ الْمُبْرَمُ . فَإِنْ ظَفَرَ الْمَرْءُ
وَقَدْ أَخَذَ بِالْحَزْمِ قَالَ الْقَائِلُ : قَدْ أَتَى الْأَمْرَ مِنْ
وَجْهِهِ ؛ وَإِنْ لَمْ يَظْفَرْ قَالَ : مَا ضَيَّعَ وَلَا فَرَطَ وَلَكِنَّ
الْقَضَاءَ غَالِبٌ .

يَا بَنِي ، الزَّمُوا الْحَزْمَ عَلَى أَىِّ الْحَالَيْنِ وَقَعَ الْأَمْرُ ؛
وَالزَّمُوا الطَّاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ ؛ وَتَوَاصَلُوا وَتَوَازَرُوا وَتَعَاطَفُوا ،
فَإِنَّ ذَلِكَ يُدَبِّتُ الْمَوَدَّةَ ، وَتَحَابُّوا ؛ وَخُذُوا بِمَا
أُوصِيَكُمْ بِهِ بِالْجِدِّ وَالْقُوَّةِ ، وَالْقِيَامِ بِهِ ، وَالتَّعَهُّدِ لَهُ ،
وَتَرْكِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ ، تَظْفَرُوا بِدُنْيَاكُمْ مَا كُنْتُمْ فِيهَا ،
وَأَخِرَتِكُمْ إِذَا صَرِثْتُمْ إِلَيْهَا وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

يَا بَنِي . وَلَيْكُنْ أَوَّلَ مَا تَبْدَءُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ
 إِذَا أَصْبَحْتُمْ تَعْلُمُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَنَ ؛ وَآدَاءَ الْفَرَائِضِ ؛
 وَتَأْدَبُوا بِأَدَبِ الصَّالِحِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ سَلَفِكُمْ ؛
 وَلَا تُقَاعِدُوا أَهْلَ الدَّعَارَةِ وَالرِّيْبَةِ ، وَلَا تُخَالِطُوهُمْ
 وَلَا يَطْمَعَنَّ فِي ذَلِكَ مِنْكُمْ . وَإِيَّاكُمْ وَاخْفَافَ فِي
 مَجَالِسِكُمْ وَكَثْرَةَ الْكَلَامِ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْهُ صَاحِبُهُ ؛
 وَأَدُّوا حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ ؛ فَإِنِّي قَدْ أَبْلَغْتُ إِلَيْكُمْ
 فِي وَصِيَّتِي ، وَاتَّخَذْتُ اللَّهَ حُجَّةً عَلَيْكُمْ ا. هـ .



وَمَا دُمْنَا بِسَبِيلِ الْقَوْلِ فِي الْوَصَايَا التَّهْذِيبِيَّةِ ،
 وَالْعِظَاتِ الْحَكَمِيَّةِ ، وَتَثْقِيفِ الْمُحَنِّكِينَ مِنَ الْأَبَاءِ ،
 وَتَشْدِيدِ الْمُجَرَّبِينَ مِنَ الشُّبَّانِ ، لَا نَرَى مَنَادِحَ لَنَا

مِنَ التَّبَسُّطِ مَعَكَ فِي اخْتِيَارِ يَتِيمَةٍ ثَانِيَةٍ مِنْ مَقْرُوءَاتِ
 الشَّيْخِ ، لَا لِأَنَّهَا تُمَثِّلُ لَكَ أَدَبَ الْقَوْمِ الرَّائِعِ
 فَحَسْبُ ، بَلْ لِأَنَّهَا تُبَصِّرُكَ بِوُجْهَاتِ نَظَرِهِمُ الْمُسَدَّدَةِ
 الْمُؤَوَّقَةِ فِي التَّعَالِيمِ الْخُلُقِيَّةِ ، وَالدُّرُوسِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ،
 وَالتَّجَارِيِبِ النَّفْسِيَّةِ ، وَتُصَوِّرُ لَكَ آرَاءَ الْمُدْرَسَةِ
 الْقَدِيمَةِ — إِنْ شِئْتَ تَعْيِيراً حَدِيثاً — فِيمَا رَسَمْتَهُ
 فِي مَاهِيَةِ الْمُقَوِّمَاتِ الذَّاتِيَّةِ ، وَالْمَعَايِيرِ الْأَخْلَاقِيَّةِ
 لِلنَّجَاحِ فِي مُعْتَرِكِ الْحَيَاةِ وَهَكَذَا ذِي الْيَتِيمَةِ
 الثَّانِيَةِ ، وَهِيَ نُحْبَةٌ مِنْ وَصِيَّةِ ابْنِ سَعِيدٍ الْمَغْرِبِيِّ
 لِابْنِهِ وَقَدْ أَرَادَ السَّفَرَ وَنَكَرَّرُ لَكَ الْقَوْلَ
 الَّذِي أَذَلُّنَا لَكَ بِهِ فِي الْكَلِمَةِ السَّابِقَةِ مِنْ تَذَكُّرِهَا
 هِيَ الْأُخْرَى حِينَ مُطَالَعَتِكَ رِسَالَةِ الْغَزَالِيِّ « أَيُّهَا

الْوَلَدُ « فِي كُتُبِنَا الْقَادِمَةِ بَيْنَهُ وَحَوْلِهِ : قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ :
 أَوْدِعْكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ
 مُرْتَقِبًا رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكَ
 فَلَا تَطْلُ حَبْلَ النَّوَى إِنِّي
 وَاللَّهِ أَشْتَاقُ إِلَى طَلْعَتِكَ
 وَاخْتَصِرِ التَّوْدِيعَ أَخْذًا فَمَا
 لِي نَاطِرُ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِكَ
 وَاجْعَلْ وَصَاتِي نُصْبَ عَيْنٍ وَلَا
 تَبْرَحْ مَدَى الْأَيَّامِ مِنْ فِكْرَتِكَ
 خُلَاصَةُ الْعُمْرِ الَّتِي حُنَّكَتْ
 فِي سَاعَةٍ زُفَّتْ إِلَى فِطْنَتِكَ
 فَلِلتَّجَارِبِ أُمُورٌ إِذَا
 طَالَعَهَا تَشَحَّدُ مِنْ غَفْلَتِكَ

فَلَا تَنْمُ عَنْ وَغِيهَا سَاعَةً
فَإِنَّهَا عَوْنٌ إِلَى يَقْظَتِكَ
وَكُلُّ مَا كَابَدْتَهُ فِي النَّوَى
إِيَّاكَ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ هَمِّتِكَ
فَلَيْسَ يُدْرَى أَصْلُ ذِي غُرْبَةٍ
وَإِنَّمَا تُعْرِفُ مِنْ شِمَتِكَ
وَأَمَشِ الْهُوَيْنَا مُظْهِرًا عِفَّةً
وَأَبْغِ رِضَا الْأَعْيُنِ عَنْ هَيْئَتِكَ
وَأَنْطِقْ بِحَيْثُ أَلْعَى مُسْتَقْبَحٌ
وَأَصْمُتْ بِحَيْثُ الْخَيْرُ فِي سَكْتِكَ
وَلِجْ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بَابِهِ
وَاقْصِدْ لَهُ مَا عِشْتَ فِي بُكَرَتِكَ

وَوَفَّ كَلَّا حَقَّهُ وَلِتَكُنْ
تَكْسِرُ عِنْدَ الْفَخْرِ مِنْ حَدِّكَ
وَحَيْثَا خِيَّمَتْ فَأَقْصِدْ إِلَى
صُحْبَةٍ مَنْ تَرْجُوهُ فِي نُصْرَتِكَ
وَلِلرَّزَايَا وَثْبَةً مَا لَهَا
إِلَّا الَّذِي تَذْخُرُ مِنْ عُدَّتِكَ
وَلَا تُقْلُ أَسْلَمَ لِي وَحَدَّثِي
فَقَدْ تُقَاسِي الذَّلَّ فِي وَحَدَّتِكَ
وَلِتَجْعَلَ الْعُقْلَ مُحَكَّا وَخُذْ
كَلَّا بِمَا يَظْهَرُ فِي تَقْدَتِكَ
وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِأَلْفَاظِهِمْ
وَاصْبِرْ أَخَا يَرْغَبُ فِي صُحْبَتِكَ

كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نَصَحَهُ
 وَفِكْرُهُ وَقَفَّ عَلَى عَشْرَتِكَ
 إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ إِنَّهُ
 عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كُرْبَتِكَ
 وَأَنْتُمْ نُمُو النَّبْتِ قَدْ زَارَهُ
 غِيبُ النَّدَى وَاسْمُ إِلَى قُدْرَتِكَ
 وَلَا تُضَيِّعْ زَمَنًا مُمَكِنًا
 تَذْكَارُهُ يَذْكِي لَظَى حَسْرَتِكَ
 وَالشَّرَّ مَهْمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ
 فَإِنَّهُ حُورٌ عَلَى مُهْجَتِكَ
 يَا بُنَى الَّذِي لَا نَاصِحَ لَهُ مِثْلِي ، وَلَا مَنْصُوحَ لِي
 مِثْلُهُ ، قَدْ قَدَّمْتُ لَكَ فِي هَذَا النِّظْمِ مَا إِنْ أْخْطَرْتَهُ

بِخَاطِرِكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ ، رَجَوْتُ لَكَ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَإِنَّ أَخَفَّ مِنْهُ لِلْحِفْظِ ، وَأَعْلَقَ
 بِالْفِكْرِ ، وَأَحَقَّ بِالتَّقَدُّمِ قَوْلُ الْأَوَّلِ :

يَزِينُ الْغَرِيبَ إِذَا مَا اغْتَرَبَ
 ثَلَاثُ فَمَنْ حُسْنُ الْأَدَبِ
 وَثَانِيَةٌ حُسْنُ أَخْلَاقِهِ

وَتَالِثَةٌ اجْتِنَابُ الرَّيْبِ
 وَاصْغَ يَا بُنَيَّ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ الدَّهْرِ ،
 وَسَلِّمْ الْكَرَّمَ وَالصَّبْرَ :

وَلَوْ أَنَّ أَوْطَانَ الدِّيَارِ نَبَتْ بِكُمْ
 لَسَكَنْتُمْ الْأَخْلَاقَ وَالْأَدَابَا
 إِذْ حُسْنُ الْخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيلٍ ، وَالْأَدَبُ أَرْحَبُ

مَنَزِلٍ ، وَلِتَسْكُنَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي أَدِيبٍ مُتَغَرَّبٍ ،
 وَكَانَ كُلَّمَا طَرَأَ عَلَى مَلِكٍ فَكَانَهُ مَعَهُ وَلَدٌ وَإِلَيْهِ
 قَصَدَ ، غَيْرَ مُسْتَرِيبٍ بِدَهْرِهِ ، وَلَا مُنْكَرٍ شَيْئاً
 مِنْ أَمْرِهِ ، وَإِذَا دَعَاكَ قَلْبُكَ إِلَى صُحْبَةٍ مَنْ أَخَذَ
 بِجَمَاعٍ هَوَاهُ ، فَاجْعَلِ التَّكَلُّفَ لَهُ سُلْماً ، وَهُبْ
 فِي رَوْضِ أَخْلَاقِهِ هُبُوبَ النَّسِيمِ ، وَحُلِّ بِطَرْفِهِ حُلُولَ
 الْوَسَنِ ، وَانْزِلْ بِقَلْبِهِ نُزُولَ الْمَسَرَّةِ ، حَتَّى يَتِمَّكَنَ لَكَ
 وَدَادُهُ ، وَيَخْلُصَ فِيكَ اعْتِقَادُهُ ، وَطَهَّرْ مِنَ الْوُقُوعِ
 فِيهِ لِسَانَكَ ، وَأَغْلِقْ سَمْعَكَ ، وَلَا تُرَخِّصْ فِي جَانِبِهِ
 حِسْودَ لَكَ مِنْهُ ، يُرِيدُ إِبْعَادَكَ عَنْهُ لِنَفْعَةٍ ، أَوْ
 حَسُودٍ لَهُ يَغَارُ لِتَجَمُّلِهِ بِصُحْبَتِكَ ، وَمَعَ هَذَا فَلَا
 تَغْتَرَّ بِطُولِ صُحْبَتِهِ ، وَلَا تَتَمَهَّدْ بِدَوَامِ رِقْدَتِهِ ، فَقَدْ

يُنَبِّهُهُ الزَّمَانُ ، وَيَتَغَيَّرُ مِنْهُ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ ، وَإِنَّمَا
الْعَاقِلُ مَنْ جَعَلَ عَقْلَهُ مَعْيَارًا ، وَكَانَ كَالْمِرْآةِ يَلْقَى
كُلَّ وَجْهِ بِمِثَالِهِ ، وَفِي أَمْثَالِ الْعَامَّةِ : مَنْ سَبَقَكَ
يَوْمٌ ، فَقَدْ سَبَقَكَ بِعَقْلٍ ، فَاحْتَدِ بِأَمْثَلَةٍ مِنْ جَرَبٍ ،
وَاسْتَمِعْ إِلَى مَا خَلَدَ الْمَاضُونَ بَعْدَ جَهْدِهِمْ وَتَعَبِهِمْ مِنْ
الْأَقْوَالِ ، فَإِنَّهَا خُلَاصَةُ عُمُرِهِمْ ، وَزُبْدَةُ تِجَارَتِهِمْ ،
وَلَا تَتَّكِلْ عَلَى عَقْلِكَ ، فَإِنَّ النَّظَرَ فِيمَا تَعَبَ فِيهِ النَّاسُ
طُولَ أَعْمَارِهِمْ ، وَابْتِغَاؤُهُ غَالِيًا بِتِجَارَتِهِمْ ، يُزِيحُكَ
وَيَقْعُ عَلَيْكَ رَخِيصًا ؛ وَإِنْ رَأَيْتَ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَمَرْوَةٌ
وَتَجَرِبَةٌ فَاسْتَفِدْ مِنْهُ ، وَلَا تُضِيعْ قَوْلَهُ وَلَا فِعْلَهُ ،
فَإِنَّ فِيمَا تَلَقَّاهُ تَلَقِيحًا لِعَقْلِكَ ، وَحِثًّا لَكَ وَاهْتِدَاءً ،
وَلَيْسَ كُلُّ مَا تَسْمَعُ مِنْ أَقْوَالِ الشُّعْرَاءِ يَحْسُنُ بِكَ

أَنْ تَتَّبِعَهُ حَتَّى تَتَدَبَّرَهُ ، فَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِعَقْلِكَ ،
 مُصْلِحًا لِحَالِكَ ، فَرَاعَ ذَلِكَ عِنْدَكَ ؛ وَإِلَّا فَاَنْبِذْهُ نَبْذَ
 النِّوَاةِ ، فَلَيْسَ لِكُلِّ أَحَدٍ يُتَبَسَّمُ ، وَلَا كُلُّ
 شَخْصٍ يُكَلِّمُ ، وَلَا الْجُودُ مِمَّا يُعْمُ بِهِ ، وَلَا حُسْنُ
 الظَّنِّ وَطِيبُ النَّفْسِ مِمَّا يُعَامَلُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ ،
 وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

وَمَالِي لَا أَوْفِيَ الْبَرِّيَّةَ قِسْطَهَا

عَلَى قَدْرِ مَا يُعْطَى وَعَقْلِي مِيزَانُ
 وَإِيَّاكَ أَنْ تُعْطِيَ مِنْ نَفْسِكَ إِلَّا بِقَدْرِ ، فَلَا
 تُعَامِلُ الدُّونَ بِمُعَامَلَةِ الْكُفِّ ، وَلَا الْكُفَّ
 بِمُعَامَلَةِ الْأَعْلَى ، وَلَا تُضَيِّعْ عُمْرَكَ فِيمَنْ يُعَامِلُكَ
 بِالْمُطَامِعِ ، وَيُثْبِتُكَ عَلَى مَصْلَحَةٍ حَاضِرَةٍ عَاجِلَةٍ

بِغَائِبَةٍ آجِلَةٍ ، وَلَا تَجْفُ النَّاسَ بِالْجُمْلَةِ ، وَلَكِنْ
يَكُونُ ذَلِكَ بِحَيْثُ لَا يَلْحَقُ مِنْهُ مَلَلٌ وَلَا ضَجَرٌ
وَلَا جَفَاءٌ ، فَتَتَى فَارَقْتَ أَحَدًا فَعَلَى حُسْنَى فِي الْقَوْلِ
وَالْفِعْلِ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي هَلْ أَنْتَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ
فَلِذَلِكَ قَالَ الْأَوَّلُ : (وَلَمَّا مَضَى سَلَمٌ بَكَيْتُ عَلَى
سَلَمٍ) وَإِيَّاكَ وَابْنَتِ السَّائِرِ

وَكَنتَ إِذَا حَلَلْتَ بِدَارِ قَوْمٍ

رَحَلْتَ بِخَزِيَّةٍ وَتَرَكْتَ عَارًا

وَاحْرِصْ عَلَى مَا جَمَعَ قَوْلُ الْقَائِلِ : ثَلَاثَةٌ تُبْقَى

لَكَ الْوُدُّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ ، أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ ،

وَتُوسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ

إِلَيْهِ ؛ وَاحْذَرُ كُلَّ مَا يَبْنِيهِ لَكَ الْقَائِلُ : كُلُّ
 مَا تَغْرِسُهُ تَجْنِيهِ إِلَّا ابْنُ آدَمَ ، فَإِذَا غَرَسَتْهُ يَقْلَعُكَ ،
 وَقَوْلُ الْآخِرِ : ابْنُ آدَمَ ذَنْبٌ مَعَ الضَّعْفِ ، أَسَدٌ مَعَ
 الْقُوَّةِ ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تَثْبُتَ عَلَى صُحْبَةِ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ
 تُطِيلَ اخْتِبَارَهُ . وَيُحْكِي أَنَّ ابْنَ الْمُقَفِّعِ خَطَبَ
 مِنَ الْخَلِيلِ صُحْبَتَهُ ، فَجَاوَبَهُ : إِنَّ الصُّحْبَةَ رِقٌّ ، وَلَا
 أَضْعُ رِقٍّ فِي يَدَيْكَ حَتَّى أَعْرِفَ كَيْفَ مَلَكَتُكَ ؛
 وَاسْتَمَلَ مِنْ عَيْنِ مَنْ تَعَاشَرُهُ ، وَتَفَقَّدَ فِي فَلَاتٍ
 الْأَلْسُنِ ، وَصَفَحَاتِ الْأَوْجِهَةِ ، وَلَا يَحْمِلُكَ الْحَيَاءُ عَلَى
 الشُّكُوتِ عَمَّا يَضُرُّكَ أَنْ لَا تُبَيِّنَهُ ، فَإِنَّ الْكَلَامَ
 سِلَاحُ السَّلَامِ ، وَبِالْأَنِينِ يُعْرَفُ أَلَمُ الْجُرْحِ ، وَاجْعَلْ
 لِكُلِّ أَمْرٍ أَخَذْتَ فِيهِ غَايَةً تَجْعَلُهَا نِهَايَةً لَكَ .

وَحُذِّ مِنْ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ

مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ

إِذَا الْأَفْكَارُ تَجَلَّبَبَ الْهُمُومُ ، وَتَضَاعَفَ الْغُومُ ،
وَمُلَازِمَةُ الْقُطُوبِ عِنْوَانُ الْمَصَائِبِ وَالْخُطُوبِ ،
يَسْتَرِيبُ بِهِ الصَّاحِبُ ، وَيَشْمَتُ الْعَدُوُّ وَالْمُجَانِبُ ،
وَلَا تَضُرُّ بِالْوَسَاوِسِ إِلَّا نَفْسُكَ ، لِأَنَّكَ تَنْصُرُ
بِهَا الدَّهْرَ عَلَيْكَ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

إِذَا مَا كُنْتَ لِلْأَحْزَانِ عَوْنًا

عَلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ فَمَنْ تَلُومُ

مَعَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْغَائِبَ الْحُزْنَ ، وَلَا
يَرْعَوِي بِطُولِ عَثْبِكَ الزَّمْنَ ، وَلَقَدْ شَاهَدْتُ
بَغْرَ نَاطَةِ شَخْصًا قَدْ أَلْفَتَهُ الْهُمُومُ ، وَعَشِيقَتَهُ الْغُومُ ،

وَمِنْ صِغَرِهِ إِلَى كِبَرِهِ ، لَا تَرَاهُ أَبَدًا خَلِيًّا مِنْ
فِكْرَةٍ ، حَتَّى لُقِّبَ بِصَدْرِ الْهَمِّ ، وَمِنْ أَعْجَبِ
مَا رَأَيْتُهُ مِنْهُ أَنَّهُ يَتَنَكَّدُ فِي الشَّدَّةِ ، وَلَا يَتَعَلَّلُ
بِأَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا فَرَجٌ ، وَيَتَنَكَّدُ فِي الرَّخَاءِ خَوْفًا
مِنْ أَنْ لَا يَدُومَ وَيُنْشِدَ :

تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ ، وَيُنْشِدُ

وَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ الْمُتَطَاوُلُ

وَلَهُ مِنَ الْحِكَايَاتِ فِي هَذَا الشَّانِ عَجَائِبُ ،
وَمِثْلُ هَذَا عُمُرُهُ مَخْسُورٌ ، يَمُرُّ ضَيَاعًا ؛ وَمَتَى رَفَعَكَ
الزَّمَانُ إِلَى قَوْمٍ يَذْمُونَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تُحْسِنُهُ حَسَدًا لَكَ ،
وَقَصْدًا لِتَصْغِيرِ قَدْرِكَ عِنْدَكَ ، وَتَرْهِيدًا لَكَ فِيهِ ،
فَلَا يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَرْهَدَ فِي عِلْمِكَ ، وَتَرْكُنَ

إِلَى الْعِلْمِ الَّذِي مَدَحُوهُ ، فَتَكُونُ مِثْلَ الْغُرَابِ الَّذِي
 أَعْجَبَهُ مَشْيُ الْحَجَلَةِ ، فَرَامَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ فَصَعُبَ عَلَيْهِ ،
 ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَشْيِهِ فَنَسِيَهُ ، فَبَقِيَ مُخْبَلًا
 الْمَشْيَ كَمَا قِيلَ :

إِنَّ الْغُرَابَ وَكَانَ يَمْشِي مِشْيَةً
 فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الْأَجْيَالِ
 حَسَدَ الْقَطَا وَأَرَادَ يَمْشِي مَشْيَهَا
 فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ الْعُقَّالِ
 فَأَضَلَّ مِشْيَتَهُ وَأَخْطَأَ مَشْيَهَا
 فَلِذَاكَ كَنُوهُ أَبَا مَرْقَالٍ

وَلَا يُفْسِدُ خَاطِرُكَ مَنْ جَعَلَ يَذُمُّ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ
 وَيَقُولُ: مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ وَلَا فَاضِلٌ ، وَلَا مَكَانٌ
 يُرْتَاخُ فِيهِ ، فَإِنَّ الَّذِينَ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ

أَكْثَرَ مَا يَكُونُونَ مِمَّنْ صَحِبَهُ الْحَرَمَانُ ، وَاسْتَحَقَّتْ
 طَلْعَتُهُ لِلْهَوَانِ ، وَأَبْرَمُوا عَلَى النَّاسِ بِالسُّوَالِ ،
 فَمَقَتُوهُمْ ، وَعَجَزُوا عَنْ طَلَبِ الْأُمُورِ مِنْ وُجُوهِهَا ،
 فَاسْتَرَاخُوا إِلَى الْوُقُوعِ فِي النَّاسِ ، وَأَقَامُوا الْأَعْذَارَ
 لِأَنْفُسِهِمْ بِقَطْعِ أَسْبَابِهِمْ ، وَلَا تُزِلْ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ
 مِنْ فِكْرِكَ :

لَنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
 فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ
 وَالْأَمْثَالُ تُضْرَبُ لِذِي اللَّبِّ الْحَكِيمِ ، وَذُو
 الْبَصَرِ يَمْشِي عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالْفِطْنُ يَقْنَعُ
 بِالْقَلِيلِ ، وَيَسْتَدِلُّ بِالْيَسِيرِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلِيفَتِي
 عَلَيْكَ ، لَا رَبَّ سِوَاهُ : ا. هـ .



لِنَتْرُكَ الْآنَ الْوَصَايَا الْأَدْيِيَّةَ ، وَمَا فِيهَا مِنْ
حِكْمَةٍ رَادِعَةٍ ، وَعِظَةٍ بَالِغَةٍ ، مُسْتَقِيلِينَ سِرَاعًا ، إِلَى
طَرَفٍ مِنَ الْمَنْظُومِ ، وَأَنْصَافِ الْأَشْعَارِ مِنْ مَقْرُوءَاتِ
الشَّيْخِ فِي أَبْوَابِ الْأَمْثَالِ التَّضْمِينِيَّةِ ، وَالْمُنَاحِي الْغَزَلِيَّةِ ،
وَبَلِيغِ الْمَرَاثِي ، وَجَيِّدِ الْعِتَابِ ، وَنَحْتَارُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ
الْبَحْرِ الزَّاهِرِ رَذَاذَا قَلِيلًا لِنُمَثِّلَ ذَلِكَ ، فَمِنْ أَنْصَافِ
الْأَيَّاتِ قَوْلُهُ :

وَجَرَحُ اللِّسَانِ كَجَرَحِ الْيَدِ^(١)
وَكَيْفَ التَّظَنِّي بِالْإِخَاءِ الْمُغَيَّبِ
رَضِيَتْ مِنْ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ

(١) أين هذا من قول القائل :

ولا يلتام ما جرح اللسان

جراحات السنان لها التئام

وَبِالْأَشْقَيْنِ مَا وَقَعَ الْعِقَابُ
 أَخْنَى عَلَيْهِ الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبْدٍ
 كَذَى الْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ
 وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ
 وَرُبَّ امْرِئٍ سَاعٍ لِآخِرٍ قَاعِدٍ
 وَفِي طُولِ عَيْشِ الْمَرْءِ بَرَحٌ وَتَعْذِيبٌ
 فَكَيْفَ بِمَنْ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِي
 كَصَدْعِ الزُّجَاجَةِ لَا يَلْتَمُّ
 فَقُلْتُ اطْمَئِنِّي أَنْضِرُ الرَّوْضَ عَازِبُهُ (١)
 وَالْحَوْضُ مُنْتَظَرٌ وَرُودَ الْوَارِدِ
 يَدِي عَوَّلَتْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى يَدِي
 وَأَنْفُ الْفَتَى مِنْ وَجْهِهِ وَهُوَ أَجْدَعُ

(١) العازب : البعيد المطلب ،

وَاللَّيْتَ لَوْ لَمْ تَهْجُ لَمْ يَبْرَحِ الْأَجْمَا
 وَفِي بَعْضِ الْقُلُوبِ عُيُونُ
 وَزَلَّةُ الرَّأْيِ تُنْسِي زَلَّةَ الْقَدَمِ
 إِذَا الشَّمْسُ لَمْ تُعْرِفْ فَلَا طَلَعَ الْبَدْرُ
 وَمُبْلَغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ
 حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
 مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ
 وَقَدْ يَمَلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعِمُ
 وَقَدْ تَجَمُّدُ^(١) الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ مُوجَعُ
 وَقَدْ يَعْثُرُ السَّاعِي إِذَا كَانَ مُسْرِعًا
 قَدْ يُوثِقُ الْمَرْءُ امْرَأَهُ وَهُوَ يَحْقِرُهُ
 وَالْقَوْلُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمَى

(١) جود العين كناية عن بخلها بالدموع



وَمِنْ شَيْقِ الْغَزَلِ قَوْلُ أَبِي صَخْرٍ الْهَذَلِيِّ :
 أَمَا وَالَّذِي أَبْكِي وَأَضْحَكَ وَالَّذِي
 أَمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِي أَمَرَهُ الْأَمْرُ
 لَقَدْ تَرَكْتَنِي أَحْسَدُ الْوَحْشِ أَنْ أَرَى
 أَلْيَفَيْنِ مِنْهَا لَا يَرُوعُهُمَا الذُّعْرُ^(١)
 عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ يَبْنِي وَيَبْنِيهَا
 فَلَمَّا انْقَضَى مَا يَبْنِي سَكَنَ الدَّهْرُ
 فَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوَى كُلِّ لَيْلَةٍ
 وَيَا سَلَوَةَ الْأَيَّامِ مَوْعِدِكَ الْحُشْرُ
 وَإِنِّي لَتَعْرِوْنِي لِذِكْرَاكِ هِرَّةً
 كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بَلَلَهُ الْقَطْرُ

(١) الذعر : الخوف .

وَأَنِّي لَا تَيْهَا أُرِيدُ عِتَابَهَا
وَأُوْعِدُهَا بِالْهَجْرِ مَا بَرَقَ ^(١) الْفَجْرُ
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا جُأَاءً
فَأُبْهِتَ لَا عُرْفَ لَدَيَّ وَلَا نُكْرَ
وَأَنَسَى الَّذِي قَدْ كُنْتُ فِيهِ أَتَيْتُهَا
كَمَا قَدْ تُنْسَى لُبَّ شَارِبِهَا الْخَمْرُ
وَيَمْنَعُنِي مِنْ بَعْضِ إِنْكَارِ ظُلْمِهَا
إِذَا ظَلَمْتُ يَوْمًا وَإِنْ كَانَ لِي عُذْرُ
مَخَافَةُ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ لَيْتَنِي بَدَا
لِي الْهَجْرُ مِنْهَا مَا عَلَى هَجْرِهَا صَبْرُ
وَأَنِّي لَا أَدْرِي إِذَا النَّفْسُ أَشْرَفَتْ
عَلَى هَجْرِهَا مَا يَصْنَعَنَّ بِي الْهَجْرُ

وَمِنْ بَلِيغِ الْمَرَاثِي مَا كَانَ يَتَمَثَّلُ بِهِ ^(١) عَلَى بَنِ
 أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَرَّمَهُ اللَّهُ وَجْهَهُ :
 أَلَا قَدْ أَرَى وَاللَّهِ أَنَّ لَسْتُ مِنْكُمْ
 وَلَا أَنْتُمْ مِنِّي وَإِنْ كُنْتُمْ أَهْلِي
 وَأَنَا ثَوِيٌّ قَدْ أَحْمَّ انْطِلَاقُهُ
 يُحْيِيهِ مِنْ حَيَّاهُ وَهُوَ عَلَى رَحْلِ
 وَمُنْطَلِقُ مِنْكُمْ بَغِيرِ صَحَابَةٍ
 وَتَابِعُ إِخْوَانِي الَّذِينَ مَضَوْا قَبْلِي
 أَلَمْ أَكُ قَدْ صَاحَبْتُ عَمْرًا وَمَالِكًا
 وَأَذْهَمَ يَغْدُو فِي فَوَارِسٍ ^(٢) أَوْ رَجُلٍ ^(٣)

(١) في مادة ودق أن علي بن أبي طالب لم يقل إلا بيتين من الشعر وهما :
 تَلِكُمُ قَرِيشٌ تَمَنَّانِي لَتَقْتُلَنِي فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَلَا ظَفَرُوا
 فَإِن قُتِلْتُ فَرَهْنُ ذِمَّتِي لَهُمْ بِذَاتِ وَدَقِينَ لَا يَعْفُو لَهَا أَثَرُ
 (٢) فوارس جمع فارس والمراد به الراكب (٣) رجل جمع راجل وهو الماشي

وَصَاحَبْتُ شَيْبَانًا وَصَاحَبْتُ ضَايِبًا
 وَصَاحَبَنِي الشَّمُّ الطَّوَالَ بَنُو شَيْبَلٍ
 أُولَئِكَ إِخْوَانِي مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ
 يَكَادُ يُنْسِينِي تَذَكُّرُهُمْ عَقْلِي
 يَقُولُ أَنَسُ أَخْلِيَاءُ^(١) تَنَاسَهُمْ
 وَلَيْسَ بِنَاسٍ مِثْلَهُمْ أَبَدًا مِثْلِي
 أُولَئِكَ أَخِلَائِي إِذَا مَا ذَكَرْتَهُمْ
 بَكَيتُ بِعَيْنٍ مَاءٍ عَبْرَتَهَا كُحْلِي^(٢)
 وَكَانُوا إِذَا مَا الْقُرُ^(٣) هَبَّتْ رِيَا حُهُ
 وَضَمَّ سَوَادُ اللَّيْلِ رَحْلًا^(٤) إِلَى رَحْلٍ

- (١) أخلياء جمع خلى وهم الذين لم ينزل بهم ما نزل به
 (٢) أى مائل إلى السواد من شدة الحزن (٣) القر : البرد
 (٤) الرحل : هو ما يحمله البعير والمراد به هنا أنهم تجمعوا ليلا

يُدِرُّونَ بِالسَّيْفِ الْوَرِيدِينَ وَالنَّسَاءَ
إِذَا لَمْ يَقُمْ رَاعِي أَنْاسٍ إِلَى رَسُولٍ
إِذَا مَا لَقُوا أَقْرَانَهُمْ قَتَلَوْهُمْ
وَإِنْ قُتِلُوا لَمْ يَقْشَعِرُوا^(١) مِنَ الْقَتْلِ

✱
✱ ✱

وَمِنْ جَيْدِ الْعِتَابِ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ الْحَكَمِ لِأَخِيهِ
عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ الْحَكَمِ :
تُكَاشِرُنِي^(٢) كَرُّهَا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ

وَعَيْنُكَ تُبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوَى^(٣)
لِسَانِكَ لِي أَرَى^(٤) وَغَيْبُكَ عَلَقْمٌ
وَشَرُّكَ مَبْسُوطٌ وَخَيْرُكَ مُلْتَوَى

(١) يقشعروا أى لم يخافوا والمراد هنا بيان شدة بأسهم ورباطة جأشهم

(٢) كاشره ضحك في وجهه وبأساطه (٣) دوى : به داء

(٤) الأرى : الماذى والشهد : العسل

تُقَارِبُ مَنْ أَطْوَى صَوَى الْكَشْحِ دُونَهُ
وَمِنْ دُونِ مَنْ صَافَيْتُهُ أَنْتَ مُنْطَوِي
تُصَافِحُ مَنْ لَاقَيْتَ لِي ذَا عَدَاوَةٍ
صِفَاحًا وَغَيِّ^(١) يَنْ عَيْنَيْكَ مُنْزَوِي
أَرَاكَ إِذَا لَمْ أَهْوَأْ أَمْرًا هَوَيْتَهُ
وَلَسْتَ لِمَا أَهْوَى مِنْ الْأَمْرِ بِالْهَوِي
أَرَاكَ اجْتَوَيْتَ^(٢) الْخَيْرَ مِنِّي وَاجْتَوَى
أَذَاكَ فَكُلُّهُ يَجْتَوِي قُرْبَ مُجْتَوِي
فَلَيْتَ كَفَافًا كَانَ خَيْرُكَ كُلَّهُ
وَشَرُّكَ عَنِّي مَا ارْتَوَى الْمَاءُ مُرْتَوِي
تَوَدُّ عَادُوِي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّي
صَدِيقُكَ لَيْسَ الْفَعْلُ مِنْكَ بِمُسْتَوِي

(١) الغي : الضلال (٢) اجتوى : كره

لَعَلَّكَ أَنْ تَنْأَى بِأَرْضِكَ نِيَّةً
 وَإِلَّا فَإِنِّي غَيْرَ أَرْضِكَ مُسْتَوَى^(١)
 تَبَدَّلْ خَلِيلًا بِي كَشَكِّكَ شَكْلُهُ
 فَإِنِّي خَلِيلًا صَالِحًا بِكَ مُقْتَوَى^(٢)
 فَلَمْ يُغَوِّنِي رَبِّي فَكَيْفَ اصْطَحَابُنَا
 وَرَأْسُكَ فِي الْأَغْوَى مِنَ الْغَىِّ مُنْغَوَى
 عَدُوُّكَ يَخْشَى صَوْلَتِي إِنْ لَقِيْتُهُ
 وَأَنْتَ عَدُوِّي لَيْسَ ذَاكَ بِمُسْتَوَى
 وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْلَايَ طِحْتَ كَمَا هَوَى
 بِأَجْرَامِهِ^(٣) مِنْ قُلَّةِ^(٤) النَّيْقِ^(٥) مُمْهَوَى

(١) نوى المنزل وانتواه : قصده (٢) مقتوى : أى مستخلص
 ومستبدل (٣) الجرم بالكسر ماله حجم (٤) قلّة : ما استندق
 من رأس الجبل (٥) النيق أرفع الجبل

نَدَاكَ عَنِ الْمَوْلَى وَنَصْرُكَ عَاتِمٌ^(١)
 وَأَنْتَ لَهُ بِالظُّلْمِ وَالْغَمِّ مُجْدَوِي^(٢)
 تَوَدُّ لَهُ لَوْ نَالَهُ نَابُ حَيَّةٍ
 رَيْبِ صَفَاةٍ بَيْنَ لَهْيَيْنِ^(٣) مُنْحَوِي^(٤)
 إِذَا مَا ابْتَدَى الْمَجْدَ ابْنُ عَمِّكَ لَمْ تُعِنِ
 وَقُلْتَ : أَلَا يَأْلَيْتُ بُنْيَانَهُ خَوِي^(٥)
 كَأَنَّكَ إِنْ قِيلَ ابْنُ عَمِّكَ غَانِمٌ
 شَجٍ أَوْ عَمِيدٌ أَوْ أَخُو مَغَلَةٍ^(٦) لَوِي^(٧)
 تَمَلَّاتَ مِنْ غَيْظٍ عَلَى فَلَمْ يَزَلْ
 بِكَ الْغَيْظُ حَتَّى كَدْتَ بِالْغَيْظِ تَنْشَوِي

(١) عاتم : مبطىء (٢) مجدوى : من أجدوى الشيء مجدوى أى
 ثبت قائماً واجدوى مثل ارعوى (٣) اللهب بكسر اللام : الشعب
 الصغير فى الجبل (٤) منحوى : من انحما الحية : أى انطوائها
 (٥) خوى : خلى من خوى المنزل يخوى (٦) المغلة : وجع البطن
 (٧) لوى : وجع الجوف

وَمَا بَرِحَتْ نَفْسٌ حَسُودٌ حَبَسَتْهَا

تُذِيْبُكَ حَتَّى قِيلَ هَلْ أَنْتَ مُكْتَوَى؟

وَقَالَ النَّطَاسِيُّونَ إِنَّكَ مُسْعَرٌ^(١)

سَلَالًا^(٢) أَلَا بَلْ أَنْتَ مِنْ حَسَدٍ جَوَى^٣

جَمَعْتَ وَفُحْشًا غِيْبَةً وَنَمِيمَةً

ثَلَاثَ خِلَالٍ لَسْتَ عَنْهَا بِمُرْعَوَى

أَفُحْشًا وَجُبْنًا وَاخْتِئَاءً^(٤) عَنِ النَّدَى

كَأَنَّكَ أَفْعَى كُدِيَّةٍ^(٥) فَرَّ مُحْجَوَى^(٦)

(١) مُسْعَرٌ من مُسْعَارِ الْكَلْبِ الْكَلِيبِ (٢) سَلَالًا : أَى مَرَضٍ

بِالسَّلِّ (٣) جَوَى : مِنْ الْجَوَى وَهُوَ دَاءُ الْقَلْبِ (٤) الْاخْتِئَاءُ :

الْخَوْفُ وَالْفَرَقُ بَانْفِئَاعٍ وَذَلِ (٥) الْكُدِيَّةُ : الْأَرْضُ الْغَلِيظَةُ الصَّلْبَةُ

(٦) مُحْجَوَى : أَى مُسْتَرٍ : مِنْ أَجْحَوَى سَرَهُ إِذَا كَتَمَهُ

وَيَدْحُوبُكَ الدَّاحِي إِلَى كُلِّ سَوَاءٍ

فَيَأْشُرَنَّ مَنْ يَدْحُو بِأَطْيَشٍ مُدْحَوِيٍّ^(١)

بَدَأَ مِنْكَ غِشٌّ طَالَمَا قَدْ كَتَمْتُهُ

كَلَّمَا كَتَمْتَ دَاءَ ابْنِهَا أَمْ مُدْوِيٍّ

وَالآنَ هَلُمَّ بِنَا إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْقَصَصِ الْعَرَبِيِّ مِمَّا

كَانَ أَسْتَاذِي الشَّيْخُ يَرْوِيهِ كَمَثَلٍ رَائِعٍ فِي الْعُتْبِ

وَالْمَجَادَلَةِ وَالنَّقَاشِ وَالْمُحَاجَّةِ وَيَتَّخِذُهُ كَنُموذَجٍ مَتِينٍ

أَخَازٍ لِلْأَدَبِ الْأُمُوِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى

لِتَبْيَانِ قُوَّةِ الْعَارِضَةِ وَبَلَاغَةِ الْعِبَارَةِ وَسَدَادِ الْمُنْطِقِ

وَرَجَاحَةِ الْفِكْرَةِ وَرَحَابَةِ الصَّدْرِ وَحَزَامَةِ الْخُصَاةِ

وَتَدْفُقِ الْبَدِيعَةِ وَحَصَافَةِ الْقَرِيحَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ

(١) مدحوى : وما اشتق منها في هذا البيت كله بالخاء أى رمى به ودفعه

جَلِيلِ الصِّفَاتِ الَّتِي أُمْتَازَ بِهَا الْعَرَبُ الْخُلَصُ فِي
ذَلِكَ الْحِينِ .

يَبْدَأُنِي مَعَ فَارِطٍ إِعْجَابِي بِأَسْلُوبِهَا ، وَاقْتِنَاعِي
بِأَنَّهَا مِلُّ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ ، رَوْعَةٌ وَبَلَاغَةٌ ، وَمَنْطِقًا
وَطِلَاوَةً ، وَبَدَاهَةً وَكِيَاسَةً ، وَحَزْمًا وَسِيَاسَةً ، وَإِذْعَانًا
وَرِيَاسَةً ، وَانْتِهَالَ عَفْوٍ وَسَخَاءِ نَفْسٍ ، وَعُذْرٍ وَإِعْذَارٍ
وَعُنفٍ وَإِنْذَارٍ - إِلَّا أَنِّي مَعَ هَذَا كُلِّهِ . أَتَّخِذُهَا
كَنَوْعٍ مِنَ الْقَصَصِ الْعَرَبِيِّ وَمُخَيَّلَةِ الرُّوَاةِ وَاخْتِرَاعِ
الْمُؤَلِّفِينَ وَتَأْلِيفِ الْقُصَاصِ وَجَمْعِ الْمُحَدِّثِينَ .
وَإِلَيْكَ تِلْكَ التَّحْفَةُ الْيَتِيمَةُ ، وَتِلْكَ الْقِصَّةُ الشَّيْئَةُ
لِلتَّجَلِّيَةِ وَالْإِطْلَاعِ :

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَدَائِنِيُّ لَمَّا ادَّعَى مُعَاوِيَةُ ابْنُ
 أَبِي سُفْيَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ زِيَادَ بْنَ عُبَيْدٍ وَقَدِمَ بِذَلِكَ
 عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الْمَدِينَةَ : جَزَعَتْ بَنُو أُمَيَّةَ مِنْ ذَلِكَ
 جَزَعًا شَدِيدًا ، فَقَدِمُوا الشَّامَ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَنَزَلُوا فِي
 مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَوَجَدُوا مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ قَدْ كَتَبَ
 لَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ عَهْدًا بِوِلَايَةِ الْمَدِينَةِ ، فَآتَوْهُ
 فَقَالُوا لَهُ : أَنْتَ شَيْخُنَا وَكَبِيرُنَا ، وَقَدْ تَرَى مَا رَكِبْنَا
 بِهِ مُعَاوِيَةُ مِنْ أَمْرٍ لَيْسَ لَنَا عَلَيْهِ صَبْرٌ وَلَا قَرَارٌ ،
 وَلَا يَنَامُ عَلَى مِثْلِهِ الْأَحْرَارُ ، وَيُعْذِرُ بَعْضَ الْإِعْذَارِ ،
 إِدْخَالَهُ مَنْ لَيْسَ مِنَّا ، يُرِيدُ أَنْ يُدْخِلَهُ عَلَى حَرَمِنَا
 وَنِسَائِنَا ، وَإِثَارُهُ عَلَيْنَا مَنْ هُوَ دُونَنَا ، وَقَدْ أَجْمَعَ

رَأَيْنَا عَلَى أَنْ نُعَاتِبَهُ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ قَبِلَ قَبِلْنَا ، وَإِنْ
أَبَى اعْتَزَلْنَا ، قَالَ مَرْوَانُ : قَدْ وَاللَّهِ حَكَمْتُهُ فِي ذَلِكَ
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، لَيْسَ فِيهَا مَرَّةٌ إِلَّا وَهُوَ يُظْهِرُ التَّعَبَّ
وَالْتَّغَضُّبَ ، وَيَزْعُمُ أَنَّ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَوْحَدُ . فَقَالَ
سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَكِنَّكَ تُحَامِي عَلَى
عَهْدِكَ ، وَتُبْقِي عَلَى وَلَايَتِكَ ، فَقَالَ مَرْوَانُ : وَاللَّهِ
لَصَلَاحُكُمْ فِي فَسَادِ عَهْدِي ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَسَادِكُمْ
فِي صَلَاحِ عَهْدِي ، فَادْخُلُوا عَلَى الرَّجُلِ فَكَلِّمُوهُ بِلُغَةٍ
أَفْوَاهِكُمْ ، فَإِنَّهُ حَلِيمٌ أَدِيبٌ أَرِيبٌ . فَانْطَلَقَ الْقَوْمُ
يَجْمَعَتُهُمْ ، وَتَخَلَّفَ عَنْهُمْ مَرْوَانُ ، فَذَهَبُوا حَتَّى
اسْتَأْذَنُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ الْآذِنُ . بِمَكَانِهِمْ

قَالَ لَهُ : احْبِسْهُمْ يَنْ الْبَابَيْنِ ، وَأَرْسَلَ إِلَى قُوَادِ
 أَهْلِ الشَّامِ وَرُؤَسَائِهِمْ ، فَجَمَعَهُمْ عِنْدَهُ ، وَأَقَامَ الرَّجَالَ
 يَنْ يَدَيْهِ بِالْأَعْمَدَةِ وَالسُّيُوفِ ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمْ ، فَلَمَّا
 دَخَلُوا عَلَيْهِ سَأَمُوا ، فَأَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ :
 قَرَّبَ اللَّهُ الدِّيَارَ ، وَأَذْنَى الْمَزَارَ ، مَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ ؟
 أَزِيَارَةً فَتَخَطَى ، أَمْ سُخْطٌ فَيَرْضَى ، أَمْ حَاجَةٌ
 فَتُقْضَى ، قَالُوا : لِكُلِّ جَنَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
 قَالَ تَكَلَّمُوا ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ ، وَمَثَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
 ابْنُ الْحَكَمِ أَخُو مَرْوَانَ - يَنْ يَدَيْهِ فَقَالَ :
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَتَكَ عُصْبَةٌ مِنْ فَصِيلَتِكَ ،
 وَآخَرُونَ مِنْ أَسْرَتِكَ وَعَشِيرَتِكَ ، كُلُّهُمْ عَارِفٌ
 بِفَضْلِكَ ، رَاعٍ لِحَقِّكَ ، نَاشِرٌ لَشُكْرِكَ ، فِي أَمْرِ

قَبْرُهُ خَيْرٌ مِنْ نَشْرِهِ ، وَإِمَاتَتُهُ خَيْرٌ مِنْ ذِكْرِهِ ،
 جَنَّتْكَ لِأَمْرِ عَجَزْتَ عَنْ حَمْلِهِ الْجُنُوبُ ، وَضَاقَتْ
 الصُّدُورُ وَالْقُلُوبُ ، وَكَرِهْنَا إِلَّا نَذْرَهُ لَكَ فَيَنْبُتَ
 فِي صُدُورِنَا ، وَلَا يُحْصَدَ لِزَمَانِهِ ، وَلَا يُصِيرُهُ
 لِإِبَانِهِ ، وَهِيَ الْمُصِيبَةُ الْخَطِرَةُ ، وَاللَّأْوَاءُ ^(١) الْمُبِيرَةُ ^(٢)
 وَاعْلَمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِكَ تَجْرُمًا وَلَا تَعِيثًا ^(٣) وَلَا بَطْرًا ،
 فَإِنْ تَأَذَّنْ تَكَلَّمْنَا ، وَإِنْ تَأَبَّ سَكَتْنَا ، قَالَ : هَاتِ
 لِلَّهِ أَنْتَ ! قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ أُمِّيَّةَ
 ابْنِ عَبْدِ شَمْسٍ وَلَدَ عَشْرَةَ ذُكُورٍ : حَرْبًا وَأَبَا حَرْبٍ
 وَسُفْيَانَ وَأَبَا سُفْيَانَ ، وَالْعَاصَ وَأَبَا الْعَاصِ ، وَالْعَيْصَ
 وَأَبَا الْعَيْصِ ، وَلَمْ يَلِدْ عُبَيْدًا عَبْدَ ثَقِيفٍ وَلَا الْعَاصِ

(١) اللأواء : المشقة والشدة

(٢) الميرة : المهلكة

(٣) من العيث : وهو الفساد

ابْنُ وَائِلٍ ، وَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ عَمْرَوًا وَزِيَادًا شِعَارَكَ
 دُونَ دِثَارِكَ ، وَتَفْسَكَ الَّتِي يَنْ جَنْبَيْكَ ، ثُمَّ لَمْ
 تَرْضَ لِابْنِ عُبَيْدٍ حَتَّى نَسَبْتَهُ إِلَى أَبِيكَ ، عَضِيَّةً ^(١)
 لِأَبِيكَ ، وَازْرَاءَ بَيْنِكَ ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ
 السَّخَطِ لِرَبِّكَ ، وَالْمُخَالَفَةِ لِنَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ إِذْ قَضَى : أَنَّ الْوَلَدَ لِلْفِرَاشِ ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرِ ،
 فَقَضَيْتَ الْوَلَدَ لِلْعَاهِرِ ، وَلِلْفِرَاشِ الْحَجَرِ ، فَرَفَعْتَ أُمَّرَأً
 كَانَ حَقِيرًا ، وَشَهَرْتَ أُمَّرَأً كَانَ خَامِلًا صَغِيرًا ، تَرِيدُ
 أَنْ تُدْخِلَهُ عَلَى حَرَمِكَ وَنِسَائِكَ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :
 أَتَرْضَى يَا مُعَاوِيَةُ بْنُ حَرْبٍ
 بِأَنْ تُعْطَى حَرَائِمُكَ الْعَبِيدَ

(١) العضية : الافك والبهتان

كَأَنِّي وَالَّذِي أَصْبَحْتَ عَبْدًا
لَهُ بِالْقَوْمِ قَدْ شَكُرُوا يَزِيدًا
فَإِنْ تَرْجِعْ فَقَدْ لُقِيتَ رُشْدًا
وَإِنْ تَجْمِعْ فَلَمْ تُطِعِ الرَّشِيدَا
فَأَمَّا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فَقَدْ أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ
الْحَاجَةَ إِلَيْهِ ، وَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الْغِنَاءَ عَنْكَ ، وَائْتَمَّ اللَّهُ
لِنَحْنُ أَنْصَحُ جُيُوبًا ، وَأَوْجَبُ حَقًّا ، وَأَمْسُ رَحْمًا ،
وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَبْلُغُهُ عَمْرُو فَنَعْجِزَ عَنْهُ لِنَقْصِيرِ بِنَا
وَلَا وَهْنٍ ^(١) مِنَّا ، لَكِنَّكَ رَفَعْتَ الْمَرْءَ فَوْقَ قَدْرِهِ ،
حَتَّى طَمَحَ بِفَخْرِهِ ، وَزَخَرَ بِبِخْرِهِ ، فَصَارَ كَأَنَّهُ شَيْءٌ
وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ، وَإِنْ مَثَلْنَا وَمَثَلَكَ ، كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصِلُ الْأَبْعَدِينَ
 وَيَشْقَى بِهِ الْأَقْرَبُ الْأَقْرَبُ
 قَالَ : ثُمَّ إِنَّ مَرْوَانَ أَدْرَكَهُ تَذَمُّمٌ ^(١) مِنْ تَخْلُفِهِ
 عَنْ الْقَوْمِ ، فَلَجَقَ بِهِمْ عِنْدَ انْقِضَاءِ كَلَامِ أَخِيهِ ،
 فَلَمَّا رَأَاهُ مُعَاوِيَةُ قَالَ : إِيْهِ يَا مَرْوَانُ ؟ عَنْ رَأْيِكَ
 صَدَرَ الْقَوْمُ حَتَّى اسْتَمْعَوْنِي مَا سَمِعْتُ ؟ قَالَ : يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ لَنَا ذَلِكَ مَثَلًا . قَالَ : هَاتِ ، خَطَّطُ كَخَطَطِ
 أَخِيكَ . قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ عَدِيَّ بْنُ زَيْدٍ
 الْعِبَادِيَّ لَمَّا حَبَسَهُ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ فِي السَّجْنِ . قَالَ :
 أَبَا مُنْذِرٍ جَاوِزْتَ بِالْوُدِّ سَخَطَةً
 فَمَاذَا جَزَاءُ الْمُبْغِضِ الْمُسْتَبْغِضِ

(١) التذمم : الاستنكاف

فَجَازَيْتَهُ فِي ذَا الْمِثَالِ كَرَامَةً

وَلَسْتُ لَشَيْءٍ بَعْدُ بِالْمُتَعَرِّضِ

فَإِنَّا وَاللَّهِ — يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ — غَيْرُ عَائِدِينَ

لَشَيْءٍ مِنْ مُعَاتَبَتِكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ . فَإِنْ تَرَا جَعُ

قَبْلَنَا ، وَإِنْ تَأْبَأْمُسْكُنَا ، مَعَ أَنَّكَ لَوْ قَدَرْتَ

تَتَكَبَّرُ بِالزُّنْجِ عَلَى آلِ أَبِي الْعَاصِ لَفَعَلْتَ ، تَكْرُهَا

لِجَلْدٍ فِيهِمْ ، وَتَبَرُّمًا بِمَدَّتِهِمْ ، وَائِمُّ اللَّهِ مَا هَذَا

جَزَاؤُهُمْ مِنْكَ ، لَقَدْ آثَرُوكَ وَوَأَسَوَكَ ، فَمَا جَازَيْتَ

وَلَا كَافَأْتَ ، فَقَامَ مُعَاوِيَةُ مُغْضِبًا ، وَقَالَ لِلْحَرَسِ :

شُدُّوا أَيْدِيَكُمْ بِالْقَوْمِ ، ثُمَّ دَخَلَ ، وَأَجْلَسُوا طَوِيلًا

حَتَّى سَاءَ ظَنُّهُمْ ، ثُمَّ خَرَجَ مُقْطَبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، فَجَلَسَ عَلَى

سَرِيرِهِ ، وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ ، وَتَمَثَّلَ بِأَيَّاتٍ :

لِنَدَى الْحِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقْرِعُ الْعَصَا
وَمَا عُلِّمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْلَمَا
وَلَوْ غَيْرُ أَخَوَالِي أَرَادُوا تَقِصَّتِي
جَعَلْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينَ مِيسَمَا
وَمَا كُنْتُ إِلَّا مِثْلَ قَاطِعِ كَفِّهِ
بِكَفِّ لَهُ أُخْرَى فَأَصْبَحَ أَجْذَمَا
يَدَاهُ أَصَابَتْ هَذِهِ حَتْفَ هَذِهِ
فَلَمْ تَجِدِ الْآخِرَى عَلَيْهَا مُقَدَّمَا
فَلَمَّا اسْتَقَادَ الْكَفَّ بِالْكَفِّ لَمْ يَجِدْ
لَهُ دَرَكًا فِي أَنْ تَبِينَا فَأَحْجَمَا
فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ وَلَوْ يَرَى
مَسَاغًا لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا

ثُمَّ قَالَ : هَذَا الَّذِي حَجَزَنِي عَنْكُمْ ، وَإِيْمُ اللَّهِ ،
لَقَدْ قَطَعْتُمْ مِنْ زِيَادٍ رَحْمًا قَرِيَّةً وَاشِجَةً ، وَقُلْتُمْ
عَلَيْهِ الْبُهْتَانُ بَغَيْرِ تَثْبِتٍ وَلَا بَيَانٍ ، وَلَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ
مَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ سَفَكِ الدَّمَاءِ ، وَالشَّرِكِ بَرَبِ
السَّمَاءِ ، فَذَلِكَ أَعْظَمُ مِمَّا كَانَ فِيهِ أَبُو سُفْيَانَ ، وَإِيْمُ اللَّهِ ،
مَا اللَّهُ رَاقِبْتُمْ ، وَلَا لِي نَظَرْتُمْ ، بَلْ أَدْرَكَكُمْ الْحَسَدُ
فِي الْقَدِيمِ لِبَنِي حَرْبٍ ، وَلَنْ عُدْتُمْ لَشَيْءٍ مِمَّا أَرَى ،
أَوْ أَتَانِي عَنْكُمْ مِنْ وَرَا وَرَا : لَأَنْهَلَنَّكُمْ ^(١) صَبْرًا ،
وَلَأَعْلَنَنَّكُمْ ^(٢) عُلُقَمًا ، حَتَّى تَعْلَمُوا - فِي طُولِ حِلَامِي -
أَنْ قَدْ مُنِيتُمْ بِمَنْ إِنْ حَزَّ قَطَعَ ، وَإِنْ هَمَزَ أَوْجَعَ ،
وَأِنْ هَمَّ جَفَعَ ، ثُمَّ لَا تُقَالُ لَكُمْ الْعَثَرَاتُ ،

(١) النهل : الشربة الأولى (٢) العلل الشربة الثانية يقال علل

وَيَسْتَضِعُّ عَلَيْكُمْ مِنِّي مَا كَانَ وَطِيًّا^(١) ، وَيَتَوَعَّرُ
 عَلَيْكُمْ مَا كَانَ سَهْلًا ، فَأَمَّا قَوْلُكُمْ : إِنِّي أَصَبْتُ
 السُّلْطَانَ بِسَبَبِكُمْ ، فَقَدْ عَلِمْتُمْ - يَا آلَ الْعَاصِ -
 أَنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ وَأَنَا غَائِبٌ وَأَنْتُمْ حُضُورٌ ، فَمَا كَانَ
 فِيكُمْ مَنْ مَدَّ ذِرَاعًا ، وَلَا أَشَالَ^(٢) بَاعًا ، أَسَامَتْهُمْ
 لِلْحَتُوفِ ، وَغَمَدَتْهُمْ بَعْدَهُ السُّيُوفُ ، فَمَا نَصَرَتْهُمْ
 وَلَا مَنَعَتْهُمْ بِأَكْثَرِ مِنَ الْكَلَامِ ، وَكَانَ سَبَبَ
 مَا أَلَبَ^(٣) عَلَيْهِ النَّاسُ ، وَأَجْلَبُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ
 إِشَارِهِ إِيَّاكُمْ بِالْفَيْءِ وَالْقَسَمِ ، وَفِي ذَلِكَ قُطِعَتْ
 أَوْدَاجُهُ ، وَسُفِكَ دَمُهُ عَلَى أَثْبَاجِهِ^(٤) ، وَاسْتُحِلَّتْ

(١) الوطى بالهمز : ما سهل ولان (٢) أشال : أى رفع

(٣) يقال ألب القوم : آتوا من كل جانب . وأليت الجيش إذا جمعت

(٤) أثباجه جمع ثبج : وهو الوسط وما بين الكاهل إلى الظهر

حُرْمَتُهُ ، وَنَكِثَتْ بَيْعَتُهُ ، فَمَا شَبَبْتُمْ نَارًا ، وَلَا
 طَلَبْتُمْ ثَارًا ، حَتَّى كُنْتُ أَنَا الْمُطَالِبَ بِالثَّارِ ،
 وَالْمُشْكَلَ لِلْأُمَّهَاتِ ، وَلَقَدْ مُنِيتُ فِي الطَّلَبِ بِدَمِهِ
 بِحَرْبِ امْرِئٍ لَا يَغِيضُ بَحْرُهُ ، وَلَا يَذِلُّ نَحْرُهُ :
 مَنْ إِنْ قَرَعْتَهُ لَمْ يَفْزَعْ ، وَإِنْ أَطْمَعْتَهُ لَمْ يَطْمَعْ :
 مَنْ لَا تَخَوُّرُ قَنَاتُهُ ، وَلَا تُصْدَعُ صَفَاتُهُ ^(١) : مَنْ
 لَا يُطْعَنُ فِي قَرَابَتِهِ وَفَهْمِهِ وَعِامِهِ وَسَابِقَتِهِ وَمُبِينِ
 بَلَاءِهِ . وَإِنِّي كَالْحَيَّةِ الصَّمَاءِ لَا يُبْل ^(٢) سَلِيمَهَا ^(٣) ،
 وَلَا يَنَامُ كَلِيمَهَا ، وَإِنِّي لَامْرَأٌ إِنْ هَمَزْتُ كَسَرْتُ ،
 وَإِنْ كَوَيْتُ أَنْضَجْتُ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُشَاوِرْ ، وَمَنْ
 شَاءَ فَلْيُؤَامِرْ ، مَعَ أَنَّهُمْ لَوْ عَايَنُوا مِنْ يَوْمِ الْهَرِيرِ

(١) الصفاة : الحجر العريض الأملس (٢) بل من مرضه : برأ وصح

(٣) السليم : اللديغ

مَا عَايَنْتُ ، أَوْ وَلُوا مِنْهُ مَا وَلَيْتُ ، إِذْ شَدَّ عَلَيْنَا
أَبُو حَسَنِ فِي كِتَابِيهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ أَهْلُ
الْبَصَائِرِ ، وَكَرَامِ الْعَشَائِرِ ، فَهِنَّكَ شَخَصَتِ الْأَبْصَارُ ،
وَارْتَفَعَ الشَّرَارُ ، وَقَارَعَتِ الْأُمّهَاتُ عَنْ تُكْلِهَا ،
وَذُهِلَتْ عَنْ حَمْلِهَا ، وَانْحَرَّتِ الْحَدَقُ ، وَاغْبَرَّ
الْأَفْقُ ، وَأَجْلَمَ الْعَرَقُ ، وَسَالَ الْعَلَقُ ، وَثَارَ
الْقَتَامُ ، وَصَبَرَ الْكَرَامُ ، وَحَامَ اللَّثَامُ ، وَحَضَرَ
الْفِرَاقُ ، وَأَزِيدَتِ الْأَشْدَاقُ ، وَقَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى
سَاقٍ ، وَتَضَارَبَتِ الرَّجَالُ بِنِصَالِهَا ، بَعْدَ يَأْسٍ مِنْ
مَا لَهَا ، وَتَقَصَّفُ مِنْ رِمَاحِهَا ، فَلَا نَسْمَعُ إِلَّا التَّغْمِمْ (١)
مِنَ الرَّجَالِ ، وَالتَّحْمِمْ (٢) مِنَ الْخُيُولِ ، وَوَقَعَ السُّيُوفُ

(١) الغممة : أصوات الأبطال عند القتال (٢) والمحممة :

أصوات الخيل

كَأَنَّهُ دَقُّ غَاسِلٍ خَشَبَتَهُ عَلَى مَنْصَبَتِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ
 دَأْبَنَا يَوْمَنَا حَتَّى رَهَقْنَا ^(١) اللَّيْلُ بَغَسَقِهِ ، ثُمَّ انْبَلَجَ
 الصُّبْحُ بِفَلَقِهِ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْقِتَالِ إِلَّا الْهَرِيرُ ^(٢)
 وَالزَّيْرُ ^(٣) ، فَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْعَاصِ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ شَهِدْتُمْ
 ذَلِكَ الْيَوْمَ لَعَلِمْتُمْ أَنِّي أَحْسَنُ بَلَاءً ، وَأَصْبَرُ فِي
 اللَّأْوَاءِ ، وَإِنِّي وَإِيَّاكُمْ لَكَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

وَأَعْرِضْ عَنْ أَشْيَاءَ لَوْ شِئْتُ قُلْتُهَا

وَلَوْ قُلْتُهَا لَمْ أَتُبقِ لِلصُّلْحِ مَوْضِعًا

فَإِنْ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَيَّرَنِي شِعَارَهُ دُونَ
 دِثَارِهِ ، فَقَدْ أَوْلَيْتُهُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي ، وَقَدْ عَجَمَنِي

(١) رهقنا : غشنا
 (٢) الهرير صوت الكلب دون النباح
 (٣) والزير : صوت الأسد . والمراد هنا بيان أن هذا وصف
 الأصوات المقاتلين حين البأس

وَسَبَرَنِي فَوَجَدَنِي وَفِيًّا شُكُورًا ، إِذْ لَمْ تَشْكُرُوهُ
وَلَا أَنْتُمْ مَعَهُ ، وَقَدْ طَلَبْنَا بِدِمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
— الْمَقْتُولِ ظُلْمًا — إِذْ لَمْ تَطْلُبُوهُ ، وَصَبَرْنَا لِقِرَاعِ
الْكِتَابِ وَظُبَاتِ^(١) الْقَوَاصِبِ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ
— يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ — أَنْ تَغْفِرَ لِلْقَوْمِ مَا قَالُوا ،
وَتَتَغَمَّدَ^(٢) لَهُمْ مَا نَالُوا ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ عَائِدِينَ إِلَى أَمْرِ
تَكْرَهُهُ . فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : قَدْ فَعَلْتُ إِنَّ هُمْ فَعَلُوا .
ثُمَّ نَهَضَ وَنَهَضَ الْقَوْمُ ، فَلَمْ يَكُنْ يَبْنِيهِمْ فِي هَذَا
الْأَمْرِ مُعَاوِدَةً . . .



إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنْ قِصَّةِ الشَّيْخِ وَمُخْتَارَاتِهِ ،

(١) ظبات جمع ظبة بالضم : وهى حد السيف (٢) يقال تغمدت فلانا : سترت ما كان منه وغطيته

نَمْسِكُ بِالْإِرَاعَةِ دُونَ التَّبَسُّطِ وَالْإِسْهَابِ ، مُرْجِيَيْنَ ،
مَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ مِنْ تَذَوُّقِ فَصَاحِ الْأَسَالِيبِ ، وَمُتَخَيِّرِ
الْعِبَارَاتِ ، مِنْ مَنْظُومِ الْقَوْمِ وَمَثُورِهِمْ ، وَتَقَهُمِ
الرُّوحِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَاسْتِعَابِ وَجْهَاتِ نَظَرِ الْمَدْرَسَةِ
الْقَدِيمَةِ ، فِي دِرَاسَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، إِلَى كِتَابِنَا « التَّعْقِيبُ
عَلَى الْمُقَدِّمَةِ » آمِلِينَ بِتَيْسِيرِ اللَّهِ وَتَسْهِيدِهِ ، أَنَّ
نَسْتَطِرِدَ لَكَ فِيهِ بِطَرَفٍ مِنْ مَقُولَاتِ الشَّيْخِ ،
مُسْتَهْلِينَ لَكَ بِرَسَائِلِ عِصْمَاءِ لِأَبِي الْعَلَاءِ الْمُعَرِّيِّ ،
وَالْمَأُورِدِيِّ ، وَشِهَابِ الدِّينِ الْحَلِيِّ ، وَابْنِ مَمَاتِيٍّ ،
وَعَلِيِّ بْنِ خَلْفٍ ، فَابْنَ قُتَيْبَةَ ، فَالْمُدْبِرَ ، فَمُقْتَبَسِينَ
مِنْ مُخْتَارَاتِهِمْ مَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ ، فَعَابِرِينَ حَلَقَةَ
الِاتِّصَالِ ، فَمُنْتَهِينَ إِلَى خَاتِمَةِ « التَّعْقِيبِ » ، فَوَاصِلِينَ

إِلَى كِتَابِ « التَّذْيِيلِ » وَفِيهِ بَعْضُ مُحْتَارَاتٍ مِنْ
بَلِيغِ الْخُطْبِ ، فَبَعْضُ نَوَاحٍ مِنْ آرَاءِ الْعَصْرِ ،
وَمَدْرَسَةِ الْعَصْرِ ، فَمُنْتَقِلِينَ إِلَى كُتُبِ الْمَجَازَاتِ ،
وَالْمُتَرَادِفَاتِ ، وَالْأَمْثَالِ ، وَالْمَنْشُورِ ، وَالْمَنْظُومِ ،
وَالْتَّعْلِيْقِ ، وَهُوَ خَاتِمَةُ كُتُبِنَا فِي الْمُقَدِّمَةِ عَنِ الْأَدَبِ
وَبِذَلِكَ تَكُونُ هَذِهِ الْكُتُبُ الْعَشْرَةُ السِّلْسِلَةَ
الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ ، رَاجِينَ أَنْ نَصِيبَ فِيهَا
سَهْمًا مِنَ التَّوْفِيقِ ، وَقِسْطًا مِنْ آدَاءِ الْوَاجِبِ ،
وَمُعْتَذِرِينَ بِأَنَّا لَمْ نَفْصِلْ لَكَ الْأَبْوَابَ فِيمَا رَوَيْنَاهُ
لَكَ ، لِأَنَّ قَصْدَنَا الَّذِي تَوَخَّيْنَاهُ مِنْ وَضْعِنَا هَذَا
الْكِتَابَ وَالْكَتُبَ الَّتِي تَلِيهِ ، أَنْ نُلِمَّ سَوِيًّا إِمَامَةً
جَامِعَةً مُوجِزَةً عَنِ الْأَدَبِ ، وَمُخْتَلِفٍ النَّوَاحِي فِي

دَرَسِ لُغَةَ الْعَرَبِ ، وَتَرَجُّوْا أَنْ يُتَاحَ لِغَيْرِنَا الْمَرِيْدُ
 فَيُفْرِدَ لَنَا كُتُبًا فِي النِّقْدِ ، وَالْأَخْلَاقِ ، وَالتَّارِيخِ ،
 وَالْقِصَّةِ ، وَالْجَدَلِ ، وَالتَّفْسِيرِ ، وَالْحَدِيثِ ، وَالْمَنْطِقِ ،
 وَفِي الْإِخْتِرَاعِ وَالْإِجْتِمَاعِ ، وَفِي الْحَيَاةِ وَالنَّجَاحِ ،
 وَفِي السِّيَاحَةِ وَالشُّعُوبِ ، وَفِي السِّيَاسَةِ وَالصَّحَافَةِ ،
 وَفِي النَّفْسِ وَمُقَوِّمَاتِ النَّفْسِ ، وَفِي النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ ،
 وَفِي الْبَيْنِ وَالْبَنَاتِ ، وَفِي وَسَائِلِ التَّبَرُّزِ وَالتَّوْفِيقِ ،
 وَفِي الْكُتُبِ وَالْكِتَابِ ، وَفِي الْعِبَاقِرَةِ وَالْعِصَامِيِّينَ ،
 وَفِي الْوُظَيْفَةِ وَالْمُؤَوِّظِينَ ، وَفِي الْأَحْزَابِ وَالِدَّعَاوَةِ ،
 وَفِي الْحُرِّيَّةِ وَالِدِّعْقَرَاطِيَّةِ ، وَفِي الْوُطَنِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ ،
 وَفِي الْحَضَارَةِ وَالثَّقَافَةِ ، وَفِي الْاِقْتِصَادِ وَالْمَدَنِيَّةِ ،
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بَنَاتِ أَفْكَارِ الْعَصْرِ ، وَمَوْضُوعَاتِ

الْعَصْرِ ، وَحَاجِيَّاتِ الْعَصْرِ . إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ
 بِتَكْوِينِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ،
 وَهَلْ جَرًّا ، وَنَرْجُو أَنْ نَكُونَ فِي نِظَامِ هَذَا السَّلَكِ
 وَفِي غِمَارِ هَذِهِ النَّظُورَةِ ، لِنُسَاهِمَ مَعَهَا هَذِهِ الْخِدْمَةَ
 الْأَدَبِيَّةَ لِلْوَطَنِ ، وَاللُّغَةِ ، وَالدِّينِ ، وَالْإِنْسَانِيَّةِ
 عَامَةً ، وَالثَّقَافَةَ خَاصَةً ، مَعَ الْعِنَايَةِ بِالْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ ،
 وَادَبِ الْفِقْهِ ، وَفَلَسَفَةِ التَّشْرِيعِ ، وَالْقُرْءَانِيَّاتِ ،
 وَالْإِسْلَامِيَّاتِ ، وَعُلُومِ الْكَلَامِ ، وَالْأُصُولِ ، وَمَعَ
 الْمُبَادَرَةِ بِوَضْعِ كُتُبٍ فِي مُسْتَقْبَلِ الشَّبَابِ ، وَالْجُنْدِيِّ
 الْمَجْهُولِ ، وَمَدْرَسَةِ الشَّعْبِ ، وَالتَّعْلِيمِ الْقُرْوِيِّ ،
 وَالنِّيَابَةِ وَالنُّوَابِ ، وَالْحُقُوقِ الْوَطَنِيَّةِ ، وَالْحَيَاةِ
 الدِّسْتُورِيَّةِ ، وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْوِزَارِيَّةِ ، وَالدَّرَجَةِ

السِّيَاسِيَّةِ . وَكَذَلِكَ يَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَكِّرَ جَدِّيًا
فِي وَضْعِ الْأُسُسِ الْأُولَى فِي مَشْرُوعِ الْمَوْسُوعَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، بِتَجْدِيدِ طَبْعِ مَا وَضَعَهُ السَّلَفُ
الصَّالِحُ فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ جِهَابِذَتِهِمْ وَشُيُوخِ اللُّغَةِ
وَالْأَدَبِ وَالْعِلْمِ لَدَيْهِمْ . . . لِتَكُونَ تُكَاةً وَعَتَادًا
لَنَا أَوْ لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا فِي هَذَا السَّبِيلِ بِمَنْهَ وَفَضْلِهِ .
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا وَصَلَاةً وَسَلَامًا عَلَى نَبِيِّهِ
وَمَنْ اصْطَفَى مِ



شكر

يشكر الطالب حضرات السادة الامجاد أستاذة الجليل فضيلة
الشيخ عبد الخالق عمر الأستاذ بدار العلوم والطبيب الشافعي عباس حافظ
واخوانه بدار المطبوعات والأديب الفاضل الشيخ محمد منصور
وزملاءه صحتي دار المأمون فضلهم العميم في مراجعة هذه المكتبة
كما يشكر - في حسن تقدير - العناية الفائقة التي بذلتها
دار مطبعة المعارف معترفًا بهمة حضرة مديرها الرهام
الأستاذ شفيق مرقى في الطبع الأنيق والتجليد الرائع
سائلًا المولى الكريم التوفيق في البداية والنهاية

Handwritten text at the top of the page, likely a title or header.

Handwritten text in the upper middle section of the page.

Main body of handwritten text, consisting of several lines of script.

Handwritten text at the bottom of the page, possibly a signature or footer.

الفهرس

تنبيه - تعمد المؤلف أن لا يضع عناوين لفصوله ، لأنه يعتبرها بمثابة قصة متصلة الحلقات في كتبه العشرة عن مقدمة الأدب ، وهي المقدمة ، والتعقيب ، والتذييل ، والمجازات ، والمترادفات ، والأمثال ، والمعلقات ، والمنثور ، والمنظوم ، والتعليق وهو خاتمة كتاب المقدمة في الأدب وهي السلسلة الأولى من هذه المكتبة . لأن العنوان المستقل لكل فكرة مستقلة تعسف واغترار ، وادعاء واستهتار ، ولم يكن أسهل من زيادة كلمة لارضاء هذه الشهوة ، ولكننا نعمل على قول ارسطاطاليس « أحب أفلاطون ، ولكنني أحب الحق أكثر منه ، فلنحمد العادة ولنحمد أكثر منها ما هو منطقي وما هو حق وما هو واقع »

الموضوع	الصحيفة
كلمة العماد الأصفهاني	من ٥ الى ٧
الإهداء	٧ ١١
المقدمة	١٣
حاجة العربية إلى التجديد في فن القراءة	١٤

الموضوع	الصحيفة
	من الى
برامج الدراسة العربية والأفريقية	١٦ ١٥
نوع القراءة المطلوب	١٨ ١٧
جهود ليمان أبوت وأسادون ديكنسون	١٩
ضرورة الاقتداء بمؤلفاتهما في العربية	٢١ ٢٠
قراءة كتب التجديد في المدارس والبيوت وأوقات الرياضة	٢٢
موقف المؤلف بين العربية والانجليزية	٢٤ ٢٣
مبدأ قصة المؤلف حين عزمه على الرحيل مع أستاذه الشيخ حمزه فتح الله	٢٥
فذلكات عن ابن الجوزي والبغدادى وياقوت الحموى وغيرهم ونتاج مجهوداتهم	٢٦
قصة الغفير الفارابى ، وكيف صار عظيما	٢٩ ٢٨
قصة ابن سينا مؤلف المائة وعشرين مجلداً	٣٢ ٣٠
كلمة حمزه فتح الله فى الجمع بين أدب الغرب وأدب العرب	٣٢
كلمة ابن الجوزى فى صيد الخاطر	٣٥ ٣٣

الموضوع	الصحيفة	
	الى	من
قصة الخليفة مع العالم وكتبه		٣٦
أمالى شعرية للشيخ حمزه فتح الله		٣٧
قيس بن رفاعه		٣٩
قصة الزجاج وكيف أصبح عظيماً		٤٠
وصية خازن العميد أحمد بن محمد المعروف بمسكويه	٤٥	٤٢
تمهيد الكلام لجولات في النثر العربي في مختلف عصوره	٤٧	٤٥
النثر العربي في عصر الصحابة ورسالة عمر بن الخطاب		٤٨
لأبي موسى الأشعري		
رسالة أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل		٥٠
إجابة عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح		٥٢
ومعاذ بن جبل		
قصة أبي حيان على بن محمد التوحيدى	٨٥	٥٤
عهد على للأشطر النخعي	١٢١	٨٦
رسالة البصري في صفة الامام العادل كمثل سائر	١٢٦	١٢١
للنثر الأموى		

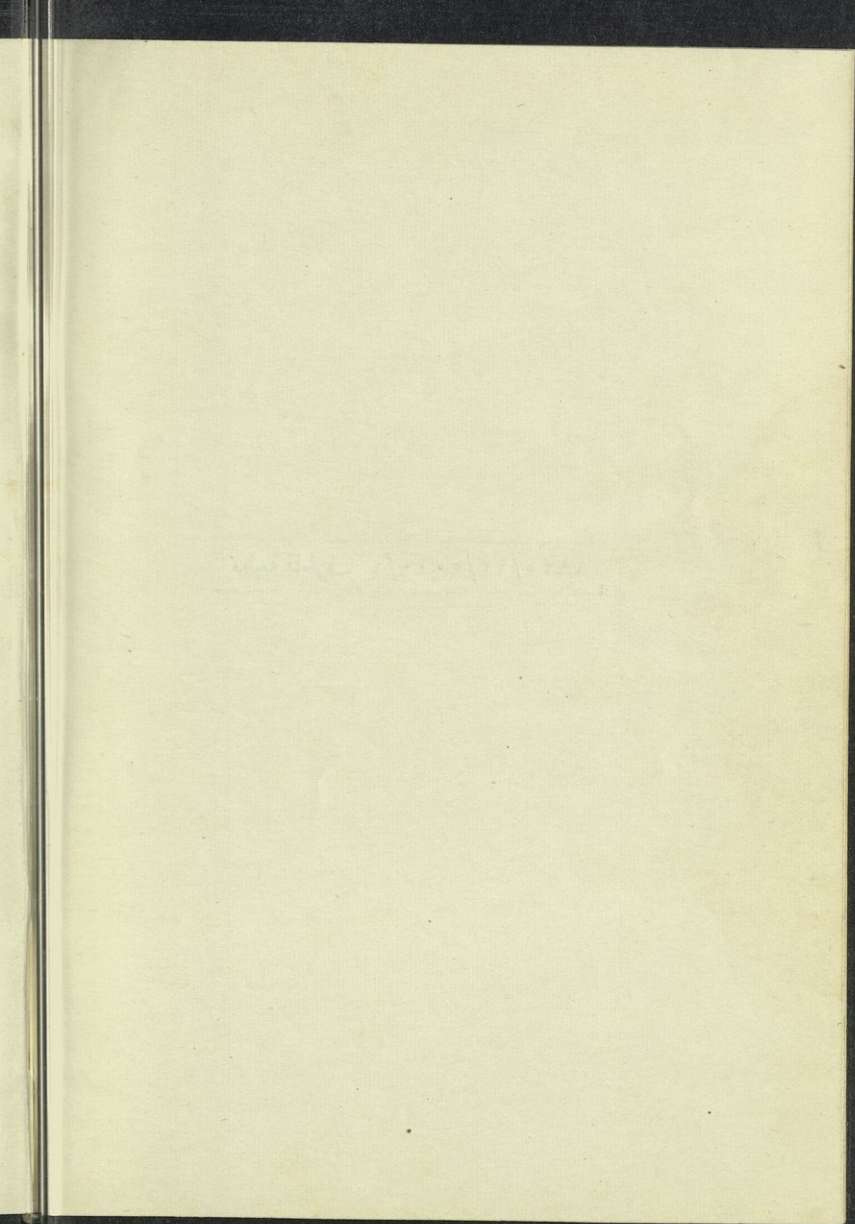
الموضوع	الصحيفة	
	من	الى
مشاورة المهديّ لأهل بيته	١٢٧	١٨٢
عهد طاهر بن الحسين وكلمة ابن طيفور عنه	١٨٢	٢١٠
رسالة سهل بن هرون في البخل كمثّل للعصر العباسيّ	٢١١	٢٢٤
استطراد للعصر العباسيّ ورسالة أبي اسحاق الصابيّ	٢٢٤	٢٣٤
الأدب الأندلسيّ ورسالة ابن زيدون	٢٣٤	٢٥٧
الأدب العربيّ في القرن الخامس وقصة الاسكافيّ عن	٢٥٧	٢٦٧
الوطواط والحسن القطان		
استطراد في الوصايا والآداب في غير تمثيل لعصر	٢٦٧	
أو أسلوب زمنيّ		
وصية عبد الله بن شدّاد	٢٦٨	
استطراد في الوصايا	٢٩١	
رسالة ابن سعيد المغربيّ	٢٩٣	٣٠٦
الأمثال التضمينية في انصاف الأبيات	٣٠٧	
في الغزل لأبي صخر الهذليّ	٣١٠	
في المراثيّ مما كان يتمثّل به علي بن أبي طالب	٣١٢	

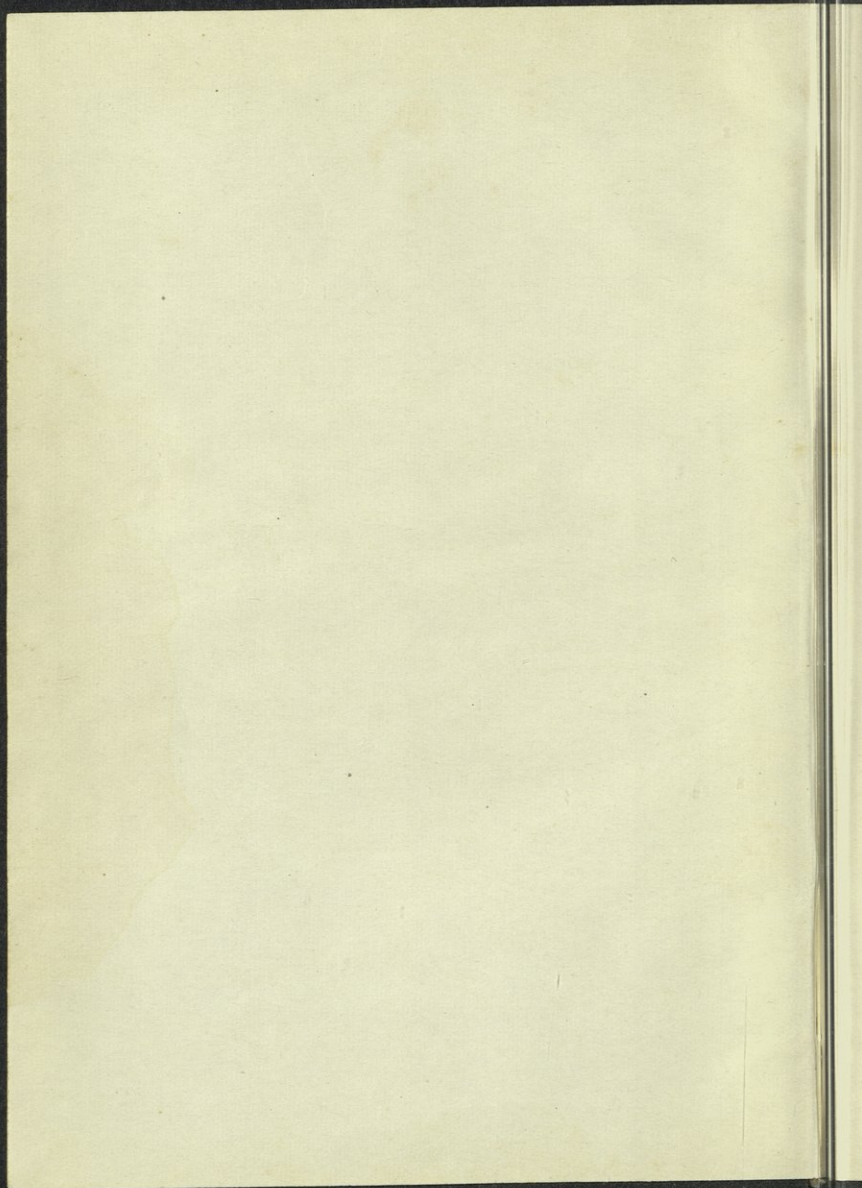
الموضوع	الصحيفة	
	الى	من
في العتاب رواية يزيد بن الحكم عن أخيه عبد ربه ابن الحكم	٣١٩	٣١٤
استطرداد في نوع من القصص العربي		٣١٩
حديث المدائني بشأن جزع بن أمية حينما أدعى معاوية		٣٢١
زياد بن عبيد وما كان من وجد مروان بن الحكم وغيره		
الآبيات التي تمثل بها معاوية في قصة المدائني		٣٢٨
كلمة المؤلف في ختام المقدمة وتمهيده لكتاب التعقيب		٣٣٥
استحثاث العزمات للتأليف فيما تحتاج اليه البلاد		٣٣٧
شكر المؤلف	٣٤٢	٣٤١
الفهرس		٣٤٣

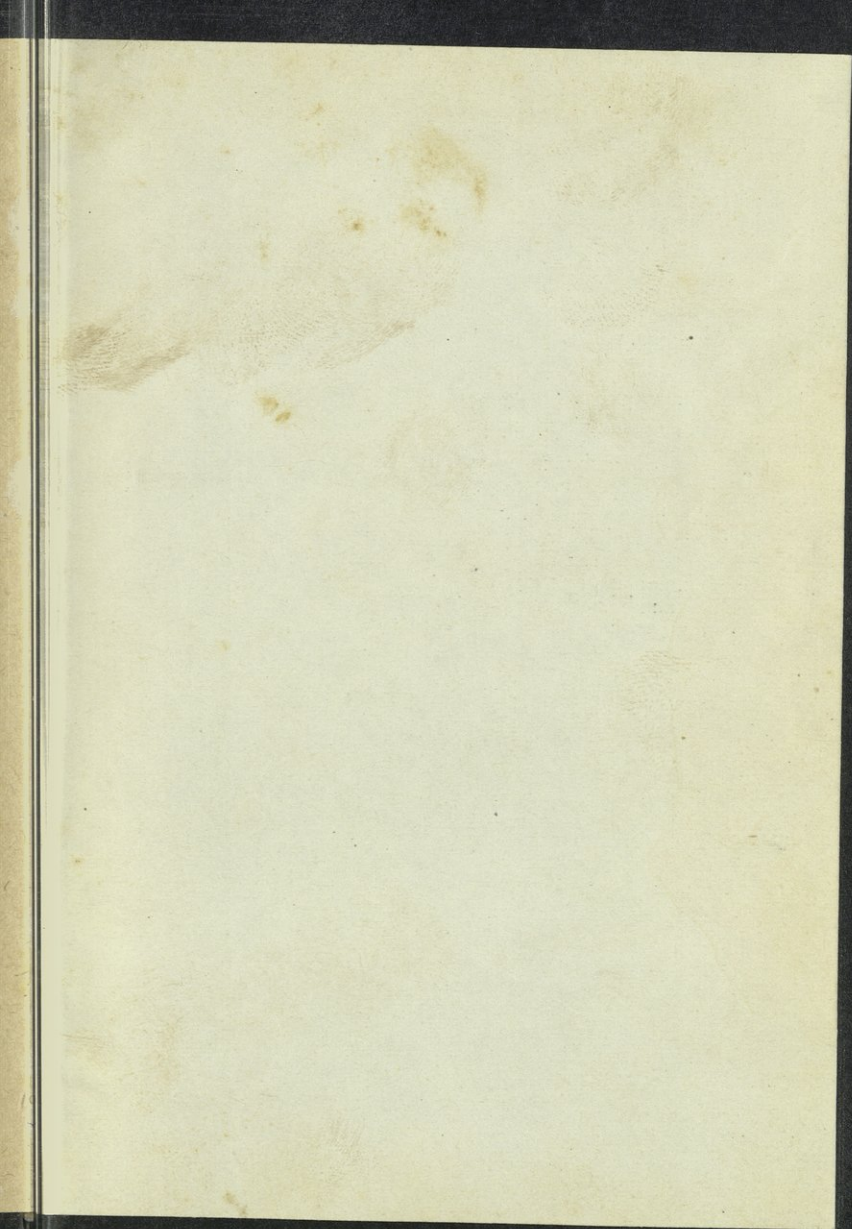


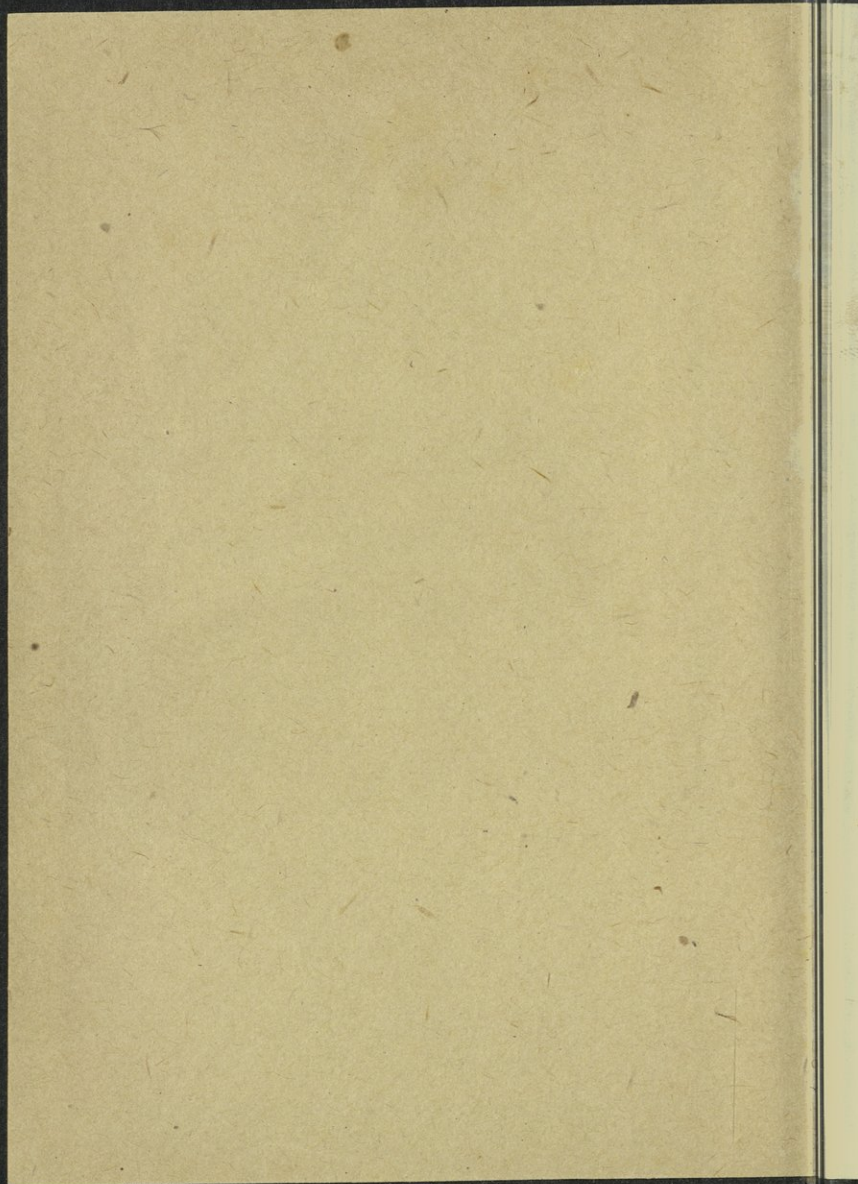
Date	Description
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...
1917	...

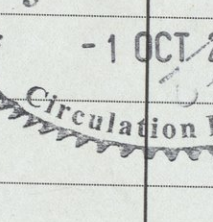
مطبعة المعارف ١٩٣٥/١٢/٥٠٠٠/١











JAFET LIB

- 1 OCT 2018

Circulation Dept. 2

892.708:R56mA:v.1:c.1

رفاعي، احمد فريد

مكتبة القراءة والثقافة الادبية للجيب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032592

American University of Beirut



892.708

R56mA

v.1

General Library

